الآراء والمعتقدات

تأليف

الدكتور غوستاف لوبون

نقله الى العربية الاستاذ

محمد عادل زعيتر

(خريج جامعة باريس)

كتاب اجتماعي يبحث عن مصدر المعتقدات غير العقلي ، وعن العناصر التي تتألف شخصية الانسان من مجموعها ، وعن الارادة غير الشاعرة ، وعما بين المنطق العاطفي والمنطق الديني ومنطق الجموع والمنطق العقلي من عراك ، وعما بين العوامل المتباينة من توازن ، وعن سبب اختلاف الآراء وكيفية انتشارها

عني بنشره

الياس انطون الياس

صاحب

المطبعة العصرية

بالفجالة ، بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بمصر

الى صديقي العزيز :

غبريال هانوتو

وزير خارجيـة فرنسا الاسبق وأحد أعضـاء المجمع العلمي الفرنسوي والمؤرخ الكبير الذي يعـلم بنظره الثاقب كيف يكتشف خلف ظواهر الامور أسباب حدوثها .

غوستاف لوبون

الدكتور غوستاف لوبون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله وصحبه وآله أجمعين

أعرض على القراء ترجمة كتاب « الآراء والمعتقدات » للدكتور غوستاف لوبون وبذلك أكون قد وفيت بوعدى فى مقدمة كتاب « روح الاشتراكية »

ولا أرى أن ألخص هـذا الكتاب فى مقدمة طويلة ، فالكتاب ذو مباحث كثيرة ومطالب عديدة لا تُلَخَّص من غير أن تفقد شيئًا من قوتها ، ولايجزعنّ القارىء من الصعوبة التى ربما يلقاها عند الشروع فى مطالعته ، اذ كلما تقـدم فيه انجلت له الحقيقة وزال عنه كل غموض .

ولا يقل إننا نشاطر الدكتور لوبون جميع أفكاره وسوانحه فعنـدنا أن الحقيقة غابت عنه فى كثير من المسائل ولا سيما فى مسئلة التوحيـد والاشراك . وقد كنا نود أن نعلق عليها بعض حواش لولم نستصوب ترك ذلك للقارىء وحصر عملنا فى الترجمة

ولا يسعني هنا الاَّ ان اشكر للاستاذ الياس أنطون الياس صاحب المطبعة العصرية الشهيرة نشر ما نقلتهُ الى العربيـة من كتب ولصديقى الفاضل محمد علي الطاهر صاحب جريدة الشورى ما بذله من همة عالية فى اظهارها .

والله الموفق لا رب سواه

محمد عادل زعيتر

نابلس « فلسطين »

الباب الأول
المعتقد والمعرفة

الفصل الأول
دائرة المعتقد ودائرة المعرفة

١ — صعوبة تفسير المعتقد

يخلطون المعتقد أحياناً بالمعرفة على مابينهما من اختلاف كبير. فالعلم والاعتقاد أمران مختلفان فى تكوينهما ومصدرهما، وبالرأى والمعتقد يتم سيرنا وعنهما تنشأ اكثر حوادث التاريخ، ولا فرق بينهما وبين الحادثات الأخرى من حيث كونهما تابعين لنواميس وان كانت هذه النواميس لم تعين حتى الآن.

لقد ظُن على الدوام أن دائرة المعتقد حافلة بالأسرار، وهـذا هو سبب قلة الكتب التى تضمنت البحث عن مصادر المعتقد مع أن ما تضمّن البحث عن المعرفة كثير الى الغاية، وما أُتى به من المساعى القليلة فى اكتناه المعتقد يكفى لبيان قلة الاطلاع على حقيقة أمره فى الماضى، فلما رضى المؤلفون برأى (ديكارت) فى المعتقد قالوا انه صادر عن العقل والارادة، وسيكون من مقاصد هذا الكتاب اثبات كون المعتقد غير عقلى وغير إرادى.

وما غابت صعوبة اكتناه المعتقد عن الفيلسوف العظيم (باسكال) فقد أشار فى فصل بحث فيه عن فن الاقناع الى «أن الناس يعتقدون بتأثير العاطفة لا بتأثير الدليل والبرهان» ثم قال «ان بيان كيفية هذا الاعتقاد اى الاعتقاد بتأثير العاطفة هو من الصعوبة والدقة والغرابة بحيث يستحيل على من هو مثلى»

ولكننا بفضل مكتشفات العلم فى الوقت الحاضر نرى إمكان حل تلك المعضلة التى عجز (باسكال) عن بيانها ، وبحلها نقدر على الاجابة عن كثير من الأسئلة المهمة التى منها : كيف تستقر الآراء والمعتقدات الدينية والسياسية ؟ ولماذا نشاهد فى كثير من المتصفين بسمو المدارك اعتقاد الخرافات والأباطيل ؟ وما هى علة عجز العقل عن تغيير عقائدنا العاطفية ؟ فلولا نظرية المعتقد لظل أمر الاجابة عن هذه الأسئلة وغيرها من المسائل غامضاً متعذراً حله ، وليس العقل بمستطيع أن يفعل ذلك وحده .

وإذا أساء المؤرخون وعلماء النفس فَهْمَ حقيقة المعتقد فذلك لأنهم حاولوا أن يشرحوا بالمنطق العقلى حوادث لم يلمها العقل أبداً ، وسوف نرى أن عناصر المعتقد جميعها خاضعة لقواعد منطقية وثيقة لا صلة بينها وبين القواعد التى استعان بها العلماء فى مباحثهم .

شغلت هذه المسئلة بالى منذ مباحثى التاريخية الأولى ، فكان يظهر لى أن المعتقد هو الفاعل الاصلى فى التاريخ ، ولكن كيف نقدر على ايضاح حوادث خارقة للعادة — كتأسيس المعتقدات — أوجبت قيام حضارات وسقوط حضارات أخرى ؟

لقد اعتنقت قبائل البدو فى جزيرة العرب ديناً أتى به أمي فأقامت بفضل هذا هذا الدين فى أقل من خمسين سنة دولة عظيمة كدولة الاسكندر زينت جيدها بقلادة من المبانى الفخمة التى هى آية فى الاعجاز ، وقبل ذلك ببضعة قرون آمنت شعوب متوحشة بعقيدة دعا اليها رسل أتوا من زاوية مجهولة فى بلاد الجليل فقوضت بتأثير هذه العقيدة دعائم العالم القديم مقيمة على أنقاضها حضارة جديدة ينطق كل عنصر منها بذكر الرب .

وبعد أن مضى ما يقرب من عشرين قرناً تزعزع ذلك الايمان وظهر فى سماء الفكر نجوم كانت مجهولة فقام شعب عظيم ورفع راية العصيان زاعماً أنه قطع علائقه بالماضى ، وقد منحه ايمانه المخرب القوى قدرة استطاع بها أن يهيمن على أوروبا المدججة بالسلاح وأن يدخل جميع عواصمها ظافراً على رغم الفوضى التى ألقته الثورة فيها .

فكيف يمكن اكتناه ما فى المعتقدات من قوى عجيبة كالتى ذكرناها ؟ ولماذا يخضع الانسان بغتةً لايمان كان يجهله بالأمس ؟ وما هى العلة التى بها يرفع الايمان الانسان الى مستوى ارفع من مستواه ؟ وما هى العناصر النفسية التى تنبجس منها هذه الأسرار ؟ سنسعى فى الإجابة عن جميع ذلك .

لتكوين الآراء والمعتقدات وذيوعها وجوه خارقة للعادة تجعل المؤمنين يعزونهما الى مصدر الهى ، ومما يشيرون اليــه هو أنهم يعتنقونها مع مخالفتها لاكثر منافعهم وضوحًا ، نعم قد يمكن إدراك السبب فى انتشار الدين المسيحى بين من يعدهم بسعادة أبدية من عبدان ومحرومين طيب العيش ، ولـكن ما هى القوى الخفية التى كانت تحمل الشريف الرومانى على التجرد من أمواله وتعريضه نفسه للعذاب فى سبيل دين جديد ترفضه العادة ويأباه العقل وتحرمه القوانين ؟

لا يجوز نسبة تسليم الناس بذلك الدين الى سخفهم ، فلقد سلم به أيضًا أرباب العقول النيرة منذ القرون الأولى حتى يومنا هذا .

ولا يكون ما يقال فى المعتقد من نظريات قيماً الا بايضاح هــذه المسائل كلها ، ومما يقتضى أن تتضمنه هذه النظريات على الخصوص هو بيانها كيف يعتقد صفوة العلماء – الذين بلغت فيهم روح النقد منتهاها – اساطير صبيانية مضحكة ، قد نتصور أن نيوطن وباسكال وديكارت وغيرهم ممن عاشوا فى بيئة مشبعة من بعض العقائد رضوا غير مجادلين بهذه العقائد رضاءهم بنواميس الـكون المقدرة ، ولـكن لماذا لم تضمحل تلك المعتقدات اضمحلالاً تامًا فى أيامنا التى سطعت فيها أنوار العلم على كل بيئة ؟ ثم لماذا تظهر أوهام غريبة مكان المعتقدات المنحلة كما يؤيد ذلك انتشار طريقة استخدام الأرواح بين أفاضل العلماء ؟ يجب أن نجيب عن جميع هذه الأسئلة أيضًا .

٢ — ما هو الفرق بين المعتقد والمعرفة ؟

لنبين أولاً ما هو المعتقد وبماذا يختلف عن المعرفة ، فالمعتقد هو إيمان ناشىء عن مصدر لا شعورى يُـكْرِه الانسان على تصديق فكر أو رأى أو تأويل أو مذهب

جزافاً ، وسوف نرى أن العقل غريب عن تكوين المعتقد ، ولا يأخذ العقل فى تبرير المعتقد الا بعد أن يتم تكوينه .

يجب أن نصف بالمعتقد كلّ ما هو من عمل الايمان ، ومتى استعان المرء فى تحقيق صحة المعتقد بالتأمل والتجربة لا يظل المعتقد معتقداً بل يصبح معرفةً ، فالمعتقد والمعرفة أمران نفسيّان يختلفان من حيث المصدر اختلافاً تاماً ، إذ المعتقد كناية عن إلهام لاشعورى ناشىء عن علل بعيدة من إرادتنا ، والمعرفة عبارة عن اقتباس شعورى عقلى قائم على الاختبار والتأمل .

وما اكتشف الانسان الغائص فى بحر المعتقد أمرَ المعرفة الا فى زمن ضرب فيه بسهم وافر من الرقى ، وكلما تقدم فى عالم المعرفة ظهر له ان الحوادث التى عزا الناس ظهورها الى موجودات علوية لم تحدث الا بتأثير نواميس قاهرة .

وقد تغيرت صورة فهم الكون فى الانسان منذ اقترب من دائرة المعرفة ، ولكنه يصعب الخوض فى هذه الدائرة الجديدة كثيراً ، لأن العلم يرى على الدوام شيئاً من المجهول متخلّلاً فى مكتشفاته ، فأكثر الحقائق وضوحاً تُبْطِن شيئاً من الاسرار

لا يزال العلم مشبعاً من مثل تلك الدياجير المدلهمة ، وكلما بلغ أفقاً بدت له آفاق جديدة تائهة فى فضاء لاحد له ، فهذا العالم الواسع الذى لم يستطع أى فيلسوف أن يضيئه هو ملكوت الاحلام التى تبذر فى النفوس آمالاً لا يؤيدها الدليل والبرهان ، وفى هذا الملكوت تجد المعتقدات الدينية والمعتقدات السياسية وكل معتقد آخر قوة غير محدودة .

ومع أن الوصول الى حقيقة علمية صغيرة يتطلب كداً طويلاً فان حيازة يقين لاركن له سوى الايمان لا يطلب شيئاً من السعى ، فكل من الناس له معتقد ولكن ما أقل الذين يصعدون منهم الى سماء المعرفة .

يشتمل عالم المعتقد على منطقه وسننه ، ومنذ القديم حاول العلماء عبثاً أن يلجوا فيه مستعينين بمناهجهم وأساليبهم ، وسنرى فى هذا الكتاب لماذا يضيع العلماء ما فيهم من ملكة الانتقاد عند ما يدخلون فى دائرة المعرفة ذات الأوهام الخادعة .

٣ — شأن المعتقد وشأن المعرفة

المعرفة هى عنصر الحضارة الأساسى وهى العامل الكبير فى ارتقائها المادى ، وأما المعتقد فهو الذى يرسم وجهة الأفكار ومن ثَمَّ وجهة السير.

كان الناس فيما مضى يعزون المعتقدات الى مصدر إلهى فكانوا يعتنقونها غير مجادلين فيها ، وعلى رغم علمنا فى الوقت الحاضر أنها صادرة عن انفسنا فانها لا تزال ذات سلطان علينا . وما تأثير قوة البرهان فيها الا كتأثيره فى الجوع والعطش . فلما نضج المعتقد فى منطقة اللاشعور حيث لا يصل اليها العقل عاناه المرء غير محاج فيه .

ومصدر المعتقدات اللاشعورى وغير الارادى يمنحها قوة عظيمة ، فالمعتقدات دينية كانت أم سياسية أم اجتماعية شأن كبير فى التاريخ على الدوام ، إذ لا تلبث المعتقدات بعد أن تصير عامة أن تصبح قطوبًا جاذبة تجذب حواليها كيان الشعوب وتطبع سمتها على كل عنصر من عناصر حضارتها فتوصَف الحضارةُ حينئذ باسم الدين الذى أوحى اليها ، ولذلك كانت اسماء الحضارة البوذية والحضارة الاسلامية والحضارة المسيحية أسماء صحيحة صائبة الى الغاية ، ومتى صار المعتقد قطب جذب أصبح قطب تغيير أيضًا ، لأن عناصر الحياة الاجتماعية المختلفة من فلسفة وفنون وأدب تتبدل لتلتئم به .

والثورات الحقيقية هى التى تتجدد بها معتقدات الشعب الاساسية ، غير أنه يندر وقوع مثل هذه الثورات ، والذى تأتى به الثورات عادة هو تغيير اسم العقائد فقط ، فالايمان يتبدل موضعًا ولكنه لا يموت أبداً ، لأن احتياج الانسان الى الاعتقاد هو عنصر نفسى مسيطر كاللذة والألم .

روح الانسان تمقت الشك ولا تطيق الارتياب ، واذا تطرق الشك أحيانًا الى قلب الرجل فذلك لأجل محدود ، فالانسان يفتقر الى إيمان دينى أو سياسي أو أخلاقى يهيمن عليه ويكفيه عناء التفكير ، واذا تداعى معتقد فذلك ليحل مكانه معتقد آخر ، ولا حول للعقل إزاء هذه السنة القاهرة التى لا تتبدل .

والايمان فى الوقت الحاضر ليس بأقل منه فى القرون الغابرة ، وما يوعظ به فى المعابد الجديدة من عقائد لم يكن أخف وطأة من عقائد الماضى ، ولهذه المعابد أنصار

عددهم كعدد أنصار المعابد السالفة ، فقد أخذ المعتقد الاشتراكى أو المعتقد الفوضوى يقوم مقام المعتقد الدينى الحرم دون أن يكون بين الطرفين فرق من حيث القهر والتجبر . والحانة مع كونها تحل مكان الكنيسة فى الغالب إلا أن مصدر ما يسمع فيها من مواعظ يأتى بها الزعماء هو الايمان أيضاً .

واذا كانت نفسية المؤمنين لم تتطور ولو قليلاً منذ القديم — حيث كانت إسيس وحاتحور تجذبان الى معابدهما على ضفتى النيل الوفاً من الحجاج المتحمسين — فذلك لأن المشاعر التى هى اسس النفس الحقيقية حافظت على ثباتها ورسوخها فى غضون الأجيال ، فالذكاء يتقدم وأما المشاعر فلا تتبدل ، لا ريب فى أن الايمان بمعتقد لا يكون على العموم إلا وهماً ، ولكننا لا نأسف على ذلك ، لأن الخيال يصبح بفضل الايمان أقوى من الموجود حقيقة ، ومتى تعتنق أمة معتقداً فان هذا المعتقد ينعم عليها بتجانس فكرى هو سر وحدتها وقوتها .

وبما أن دائرة المعرفة تختلف عن دائرة المعتقد اختلافاً كبيراً فمن العبث أن نقيس الأولى بالثانية كما يفعل اكثر العلماء ، على أن العالم مع تخلصه بالتدريج من ربقة المعتقد فانه لا يزال مشبعاً منه وينقاد اليه فى جميع المواضيع التى لم تُعلم جيداً كدقائق الحياة وأصل الأنواع مثلاً ، فما قيل فى هذه المواضيع من النظريات هو عقائد ليست على شىء من الاعتبار إلا بعزوها إلى الاساتذة الذين وضعوها .

ولا تطبق سنن المعتقد النفسية على العقائد الكبيرة الأساسية — التى وسمت لحمة التاريخ بوسم ثابت لا يُطمس — فقط بل تطبق أيضاً على اكثر آرائنا اليومية الموقتة فيما يحيط بنا من موجودات واشياء ، فالمشاهدة تدل على أن اكثر هذه الآراء ترتكز على عناصر عاطفية أو دينية مصدرها اللاشعور ، واذا كان الناس يجادلون فى أمرها بحماسة فذلك لأنها من فصيلة المعتقد ولأنها تتكون مثله .

اذاً من الخطإ أن يظن الانسان أنه يخرج من دائرة المعتقد عند ما يعدل عن عقائد انتقلت اليه وراثة ، وسوف نرى أنه كلما حاول أن يتخلص منها غاص فيها اكثر من ذى قبل .

ولما كان ما ينشأ عن تكوين الآراء والمعتقدات من مسائل هو من جنس واحد

فقد وجب البحث فيها على طرز واحد ، فعلى ما بين الآراء والمعتقدات من تباين فى النتائج على الأكثر فان الطرفين من فصيلة واحدة تختلف عن فصيلة المعرفة اختلافاً تاماً .

يرى القارىء أهمية المسائل التى نعالجها فى هذا الكتاب وصعوبتها ، فلقد تصورتها فى سنين كثيرة تحت سماوات مختلفة ، تارة وأنا أنعم النظر فى الوف من الهياكل التى أقامها البشر منذ ثمانين قرناً تمجيداً لآلهتهِ التى استحوذت على خياله ، وتارة وأنا تائه بين أساطين المعابد العظيمة العجيبة المنعكس ظلها على مياه النيل الجليل أو التى أقيمت على ضفتى نهر الغانج ، وكيف أعجب لهذه العجائب من غير أن أفكر فى القوى الخفية التى أوجدتها من العدم ؟

مصادفات الحياة ساقتنى الى التنقيب عن فروع العلم الخالص وعلم النفس والتاريخ فاستطعت أن أدرس الطرق العلمية التى يصل بها الانسان الى المعرفة والى العوامل النفسية التى يتولد منها المعتقد ، فالمعتقد والمعرفة هما التاريخ كله والحضارة كلها .

الفصل الثانى

طرق البحث فى علم النفس

استعان علم النفس فى تكوينه بطرق كثيرة ، ولا نستفيد من هذه الطرق فى بحثنا عن مسائل الآراء والمعتقدات ، فسيرى القارىء من ذكرها مختصراً أننا لا نستطيع أن ننتفع بها فى مباحثنا إلا قليلاً .

الطريقة الروحية . — الطريقة الروحية هى أقدم طريقة استعملت فى البحث عن النفس ، وقد امتد دور تطبيقها وحدها زمناً طويلاً ، فالمفكر حسب هذه الطريقة كان يختلى فى غرفة مطالعته متجرداً عن العالم الخارجى فيفكر فى نفسه وفى ما استنبطهُ من النتائج فى الكتب .

لا شك فى أنه ظهرت فى القرن السابق طرق علمية أحسن من الطريقة الروحية ولكنها غير مثمرة مثلها ، واليكها :

الطريقة النفسية الجثمانية . — لما ظهرت هذه الطريقة ظُنَّ أنه سيكون لها مستقبل مجيد لتطبيقها حوادث الجسم على أحوال النفس ، ولكن سرعان ما بدا للعلماء ضيق دائرتها ، إذ لم تطبق تلك الحوادث إلا على أبسط الأحوال النفسية كسرعة المؤثر العصبى والزمن الضرورى لانعكاس الحركة والنسبة العددية بين التهييج والحس الخ ، على أن أموراً كهذه هى بالحقيقة عضوية قلما ينتفع بها علم النفس .

طريقة المراكز الدماغية . — تسمى هذه الطريقة فى اسناد أىّ خلل فى وظائف النفس الى ضرر يقع فى أحد الاعصاب ، على هذه الصورة ظنَّ أن فى الدماغ مراكز هى مصدر أى عمل نفسى ، إلاَّ أنه قد غُضَّ النظر عن تلك المراكز الآن حتى التى لاح منها أنه ثابت صحيح كمركز النطق ومركز الخط .

طريقة الفحص والاختبار . — ظل النجاح حليف هذه الطريقة وقتًا طويلاً ، حتى أن المختبرات النفسية لا تزال مملوءة بآلات توزن بها الحركات التى يُظَنُّ أنها ذات علاقة بالعقل والذكاء ،وقد طبع عدد غير يسير من الرسائل فى البحث عن هذه الحركات فسلم بما جاء فيها بضعة علماء مشهورين ، والرسالة التى نشرها أحد أنصار هذه الطريقة المتأخرين باحثًا فيها عن الرياضى (هنرى بوانكاره) تدلنا على أن حظ علم النفس من الطريقة المذكورة ضئيل الى الغاية ، ولذا أهملت تمامًا فى الوقت الحاضر .

طريقة درس الأمراض النفسية . — هذه الطريقة هى التى أتت اكثر من غيرها بوثائق على النشاط النفسى اللاشعورى وعلى التصوف والتقليد وانحلال شخصية الانسان الخ ، وهى على رغم كونها حديثة فى تطبيقها فقد علمها اكابر الكتاب الروائيين السابقين كشكسبير ، حقًا لقد اكتشف هؤلاء لما فيهم من دهاء عظيم ونظر ثاقب حوادث لم يعينها العلم الا أخيراً ،فاطلعوا على أن مكبث متهوس ،وعطيل مصاب بالصرع ، وهملت سكير استحوذت عليه وساوس الخوف ، والملك ليار سخيف سوداوى ذو

جنون غير مطبق ، ومما يجب ملاحظته هو أنه لو كان هؤلاء الاشخاص المشهورون فى حالة اعتدال بدلاً من أن يكونوا ذوى نفسية مختلة مذبذبة لما اهتم الادب والفن بأمرهم .

طريقة القياس النفسى . — مع اكتفاء هذه الطريقة الحديثة حتى الآن بالبحث عن الغرائز وعن قليل من الانفعالات البسيطة فانه يظهر أنها ستكون احدى الطرق المعتبرة فى المستقبل ، يقول انصارها أنه لا بد من فحص أحوال الحيوانات الدنيا لفهم نفسية الانسان ، غير أن هذا البيان لم ينل بعد ما يستحقه من الحظوة عند علماء النفس الذين يزعمون وجود فرق قاطع بين عقل الانسان و بين عقل الحيوان الذى هو دونه ، فهم على عكس الطبيعة التى لا تعرف مثل هذه الفروق القاطعة ، فقد قطعنا الدور الذى كان (ديكارت) يعد فيه الحيوانات آلات متحركة .

ومع ذلك فان تطبيق الطريقة المذكورة كثير المصاعب ، إذ نشاهد أن حواس الحيوانات ومشاعرها تختلف عن حواسنا ومشاعرنا ، ثم إن من يود أن يكتنه الحيوانات فعليه أن يلاحظ حركاتها وسكناتها ملاحظة وثيقة دقيقة ، ولما كان هذا العمل شاقاً فان علم نفس الحيوانات — حتى العليا — لا يزال فى المرحلة الأولى .

الطريقة التى اتخذناها فى هذا الكتاب للبحث عن الآراء والمعتقدات . — يشعر القارىء من الطرق التى ذكرناها آنفاً بأنها لا تصلح لبيان تكوين الآراء والمعتقدات وتطورها ، ولذلك فاننا مضطرون الى الاستعانة بطرق أخرى ، لقد حللنا — بعد أن درسنا ما هو مرتع لنفوذ المعتقد من ذكاء ومشاعر ولا شعور الخ — المعتقدات الدينية والاخلاقية الخ باحثين عن علاها وأسبابها القاهرة ، ومن تاريخ الماضى والحوادث اليومية الحاضرة تتكون مقومات موضوعنا ، فالمعتقدات العظيمة هى فى الغالب تراث الماضى ، والذى يجلب النظر فيها كثيراً هو كونها حافلة بالمستحيلات التى يرفضها العقل النظرى ، وعندما نوضح كيفية اعتناقها يظهر لنا أن الرجل المتعلم والعالم الذى تعود مناهج المختبرات الدقيقة يفقد فى ميدان المعتقد كل ما فيه من ملكة انتقاد و يؤمن بالمعجزات ، وسيكون لنا فى البحث عن مظاهر السحر والشعوذة

بينات قاطعة فى هذا الموضوع ، وسوف نرى أن كثيراً من مشاهير علماء الطبيعة زعموا أنهم عاشوا بين الاشباح وأن أحد اكابر الاساتذة فى علم وظائف الاعضاء قص أنه استحضر الأموات وحادثهم وأن استاذاً آخر ليس أقل فضلاً منه قال مؤكداً إنه رأى مقاتلاً لابساً خوذة خرج من جسم فتاة تامّ الاعضاء كما دل على ذلك فحص دورته الدموية وآثار تنفسه .

تثبت لنا هذه الحوادث أن العقل عاجز عن التأثير فى اكثر المعتقدات خطأ ، ولكن لماذا يبدو من الانسان مهما تكن تربيته سذاجة متناهية عندما يدخل فى ساحة المعتقد ؟ قد سعينا لاكتشاف هذا السر فى توسيعنا نطاق البحث فدرسنا مصدر الحركة فى أنواع الحيوان فظهر لنا أن ما أتى به العلماء من ايضاح لم يكن ناقصاً أو لاغياً الا لمحاولتهم تطبيق مناهج المنطق العقلى على حوادث لم يعلها العقل أبداً ، ثم بدا لنا أنه يوجد فى حركات الحياة المعقدة — كما فى عالم اللاشعور الذى هو باعث الحركة الحقيقى — انتظام لا تأثير للعقل فيه ولا يمكن تعيينه بالفاظ غير صريحة كلفظ « الغريزة » مثلاً .

و بتوغلى فى هذه المواضيع تحققت وجود أنواع منطقية هى — مع ما بينها و بين المنطق العقلى من تباين — أرفع أو أدنى منه بحسب الأحوال ، على هذه الصورة استطعت أن أضم الى المنطق العقلى الذى علم منذ القديم والمنطق العاطفى الذى بُحث عنه منذ بضع سنين أنواعاً منطقية جديدة قد تتناقض وقد تتصادم مغيرة أوضاع نفسيتنا ، والذى يسيطر منها على دائرة المعرفة لا علاقة له بالمعتقدات أصلاً ، وهذا هو السر فى كون العالم ذى الفكر النير قد يأتى بآراء عقلية متناقضة حسب وجوده فى دائرة المعرفة أو فى دائرة المعتقد .

وليس علينا أن نطالب علم النفس المزاول ايضاح تلك المسائل ، فقد ذكر علماء النفس ولا سيما ويليام جيمس « أن علماً يدب الانتقاد النظرى فى جميع مفاصله لسريع العطب » ثم قال « إننا ننتظر وميضاً ينفذ ظلام الحقائق النفسية الأساسية » ، ونحن مع كوننا لا نشاطر تماماً رأى هذا المفكر الشهير قوله « إن كتب علم النفس

لا تحوى سوى سلسلة من الحوادث التى لم تلاحظ بدقة ومماحكات عنيفة ونظريات تنم على الثرثرة » فاننا نعترف معه « أن علم النفس المُزاوَل لا يشتمل على قاعدة نستنبط منها نتيجة كما يستنبط المعلول من العلة »

إذاً فاننا نحاول بنـاء نظرية فى تكوين الآراء والمعتقدات وتطورها على أرض مكتظة فى الظاهر وهى بكرٌ فى الباطن .

الباب الثانى

ميدان الاراء والمعتقدات النفسى

الفصل الأول

عوامل الحركة — اللذة والألم

١ — شأن اللذة والألم

اللذة والألم هما لسان الحياة المادية والمعنوية وعنوان الكدر والصفاء فى الأعضاء ، وبهما ترغم الطبيعة الحيوانَ على الاتيان بأعمال يستحيل الوجود بدونها ، وعليه فان اللذة والألم دليلان على حال معنوية باطنية أى معلولات لعلل كما أن الأعراض نتيجة لمرض .

ومن الشعور باللذة والألم تتكون قوة الاحساس ومن هذه القوة تشتق حياة الانسان المادية والمعنوية ويكون لسان الأعضاء المعبر عنه باللذة والألم متجبراً بنسبة مايقتضى من الحاجات ، ومن هذه الحاجات ماهو قاهر غير ممهل كالجوع مثلاً

الجوع هو أشد الآلام هولاً والحب هو أكثر اللذات تغلباً ، وقد نقول كما قال الشاعر الكبير (شيلر) إن قوام العالم هوالجوع والحب ، واما أنواع اللذة والألم الأخرى فهى عوامل أقل سطوة وشدة ، ولذلك أخطأ (شوبنهاور) حيث قال : « إنه يمكن ارجاع جميع العوامل التى تحرك الانسان الى ثلاثة : الأثرة والخبث والرحمة »

وقد أنكر بعض الفلاسفة فى هذه السنين شأن اللذة والألم فى حركاتنا ، قال ويليام جيمس : « لا تأثير لهما فى انفعالاتنا ، فمن الذى يعبس للتلذذ بالعبوس ؟ ومن

الذى يتنفس للتلذذ بالتنفس ؟ » فاقامة الحجة على هذه الصورة أمر غير صحيح ، فالانسان لا يتنفس للتلذذ بالتنفس ، وانما يتنفس درأ للألم الناشىء عن قطع النَّفَس ، وكذلك فانه لايعبس للتلذذ بالعبوس ، وانما يعبس عند كدره الذى هومن أنواع الألم

٢ — صفات اللذة والألم المتقطعة

لا استمرار فى اللذة والألم ، فمن طبيعتهما الوهن السريع ، ولا يحدثان الا الا ليكونا غير مُطْبِقين ، فاذا استمرت اللذة فلا تبقى لذة ، وينقص الألم إذا اتصل ولم ينقطع ، وقد يصير نقصان الألم لذة .

وعليه فاللذة ليست لذة الا اذا لم تتصل ، ولا تكون اللذة معروفة الا اذا قيست بالألم ، وقول بعضهم وجود لذة أبدية كلام خال من كل معنى كما ذكر افلاطون ، فالآلهة على رأى افلاطون لا تعرف الألم ، ولذلك فانها لا تشعر باللذة .

وتقطع اللذة والألم هونتيجة ناموس عضوى قاض بجعل التبدل أساس الاحساس، فنحن لا نشعر بالأحوال اذا اتصلت ، ولكننا نشعر بالفروق بين الأحوال التى تقع فى آن واحد أو التى تقع متوالية مترادفة ، فطقطقة الساعة مهما تعلُ لا تلبث أن لا تُسمع ، والطحان لا يفيق من جعجعة رحاه بل من انقطاعها ، ولهذا السبب فان اللذة بامتدادها تصبح غير لازمة مالم تنقطع ، وسرعان مايصير نعيم الفردوس الذى يحلم به المؤمنون غير جاذب اذا لم ينتقلوا مناوبة من النار الى الجنة ومن الجنة الى النار.

واللذة أمرنسبى تابع للأحوال ، أى ان ألم اليوم قد يصبح لذة فى الغد والعكس بالعكس ، فيصير ألم الرجل الذى أكره على أكل كسرات خبز يابسة بعد أن تغذى غذاء وافراً لذة اذا ترك أياماً فى جزيرة جرداء على أن يأكل من تلك الكسرات .

وقد أصاب المثل العامى القائل إن الانسان يتمتع باللذة التى تروقه حيث يجدها ، فلذة العامل الذى يشرب صاخباً فى الحانة تختلف عن لذة المتفنن والعالم والمخترع والشاعر — وقلما يجدّون فى أعمالهم — اختلافا كبيراً ، ولا ريب فى أن اللذة التى حصلت لنيوطن من اكتشافه سنن الجاذبية هى أعظم من اللذة التى تحصل له لو انتقلت اليه نساء كثيرات من نساء الملك سليمان .

ويظهر لنا شأن اللذة والألم ظهوراً واضحًا عند ما نتخيل الأرواح التى يعتقد وجودها المؤمنون بأكثر الاديان ، فاما كانت هـذه الأرواح عاطلة من الحواس والمشاعر فانها لا تبالى باللذة والألم ولا تعرف شيئًا من بواعث حركتنا ، وما كان يقلقها من اكدار احبائها وشدائدهم لا يؤثر فيهـا ، ولا تشعر لهذه العلة بحاجة الى مناجاتهم ، ومن هنا نقول إن وجود هذه الأرواح وهم لا أساس لهُ .

٣ — الرغبة نتيجة اللذة والألم

اللذة والألم يورثان الرغبة ، أى الرغبة فى بلوغ اللذة واجتناب الألم ، فالرغبة هى المحرك الأساسى للإرادة والباعثة على العمل .

والرغبة هى التى توحى الى الارادة التى تكون بدونها معدومة ، وعلى نسبة الرغبة تكون الارادة قوية او ضعيفة ، ومـع ذلك لا يجوز خلط الارادة بالرغبة كما فعل كثير من الفلاسفة كشوبنهاور وكوندياك ، فاذا كانت الرغبة مصدر كل ما يراد فانه يرغب فى أمور كثيرة لا تراد ، فالارادة تتضمن التأمل والقصد والتنفيذ أى تستلزم أحوالاً شعورية لا يُرى مثلها فى الرغبة .

الرغبة هى مقياس القيم ، وهـذا المقياس يختلف باختلاف الأزمنة والأمم ، فمثل الأمة الأعلى هو عنوان رغبتها ، إذ الرغبة باستيلائها على قوة الادراك فى الانسان تحول طرز تصوره وآرائه ومعتقداته ، ولقد أصاب الفيلسوف (سبينوزا) حيث قال : « نرى الاشياء مليحة برغبتنا لا ببصيرتنا . »

ولما لم تكن قيمة الاشياء بنفسها فإن الرغبة هى التى تمنحها قيمة ، وتكون هذه القيمة على نسبة ما فى الرغبة من شدة ، واكبر دليل على ذلك تحول قيمة الآثار الفنية ، وعلى رغم كون الرغبة منبع كل جهد وحاكمة الانسان المطلقة وسبب آلهته وموجدة مثـله الأعلى فانه لا تمثال لها فى المعابد القديمة ، والمصلح الكبير (بوذا) وحده هو الذى أدرك أن الرغبة هى المهيمنة على الأشياء وأنها مصدر الحركة فى الناس ، وقد حاول لتحرير البشر من بؤسها وسوقه الى راحة سرمدية أن يقضى عليها ، ومع خضوع ملايين من الناس لشريعته فانه لم يقدر على خمد شوكتها .

حقًا لا يستطيع الانسان أن يعيش بدون رغبة ، نعم قد يكون فى عالم الافكار الذى تصوره افلاطون جمال رائع ونماذج خالدة ولكن بما أنه لم تُحْى هذا العالم نفخة رغبة فان أمره لا يهمنا .

٤ — الامل هو اللذة المرجوّة

الأمل ابن الرغبة لا الرغبة نفسها ، إذ هو عبارة عن استعداد نفسى يجعل الانسان يعتقد إمكان تحقيقه ما فيه من رغبة ، فقد يرغب المرء فى شىء دون أن يأمله ، فعلى قلة من يأملون الثروة نرى جميع الناس يرغبون فيها ، وكذلك العلماء فانهم يرغبون فى اكتشاف علة علل الحوادث مع أنهم لا يأملون ان يصلوا اليه ، وقد تقترب الرغبة من الامل فى بعض الأحيان فتختلط به ، فالانسان فى لعبة الدولاب يرغب فى الربح ويأمله .

ويمكننا أن نعرف الأمل باللذة المرجوة ، وفى الغالب يكون الامل فى دور الرجاء أشفى للغلة منه فى إنجازه ، وسبب ذلك واضح ،فاللذة المنجزة تكون محدودة مقداراً وزمانًا مع أنه لاحد لما يوجبه الامل من أحلام ، ولم يوجد سلطان الامل وفتنه الا لاشتماله على ما فى اللذة من ممكنات ، فهو عصا سحر قادرة على تحويل كل شىء ، وهذا هو سر كون دعاة التجدد لم يفعلوا سوى إقامة أمل مكان آخر .

٥ — العادة هى ناظمة اللذة والألم .

العادة هى ناظمة الحس ، فهى سبب الاستمرار فى افعال الانسان لثامها حد اللذة والالم فيه ، وبها يألف أشد المصاعب ويتحمل اعظم الجهود ، والطفل بتأثيرها يتعود تعب الحياة عند ما يكرهه سن العزلة على العيش تحت سماء الشمس .

والعادة التى هى ناظمة حياة الفرد هى دعامة الحياة الاجتماعية أيضًا ، والأمر الشاق فى حياة الامة هو أن تبتدع لنفسها عادات اجتماعية وأن لا تجمد إزاء هذه العادات إذ انه عندما تثقل وطأة العادات زمنًا طويلاً على الامة لا تتخلص من ربقتها الا بثورات عنيفة ، ولذلك وجب أن لا يطول الوقوف عند حد العادة ، فالمدنيات والافراد والأمم الشائخة هى التى تميل الى الرزوح تحت أثقال العادة وقتًا كبيراً ومن العبث أن نتكلم

فى شأنها كثيراً ، فلقد جلبت نظر جميع الفلاسفة وصارت تُعتبر حكمة قومية . قال (باسكال) :

« ماذا تكون مبادئنا الفطرية إذا لم تصدر عن العادة ؟ فالعادة هى طبيعة ثانية تقوض أركان الاولى ، ومنها نأخذ اشد أدلتنا قوة واكثرها فيضاً ، وهى التى تعين وجهة النفس دون أن يفكر الانسان فى ذلك ، وبها يصبح الانسان نصرانيا أو وثنياً أو تركياً أو محترفاً أو جندياً الخ ، ثم بها تستعين النفس وقتما تعثر على مكان الحقيقة . »

ولو أنَّ قدرة خارقة جعلت الانسان أو الشعب يهرب من تأثير العادة لاصاب الفالج حياته فجأةً لان العادة هى التى تملى علينا كل يوم ما يجب أن نقوله ونفعله ونفكر فيه .

٦ — اعتبار اللذة والالم حقيقتين نفسيتين اساسيتين .

حاول الفلاسفة أن يزعزعوا ما فى الانسان من يقين وأن يثبتوا أنه لا يعلم من العالم غير الظواهر ، غير أن هنالك حقيقتين ليس باستطاعة أحد أن ينقضهما وهما اللذة والالم ، فمنهما تشتق حركة البشر ونشاطه واليهما يستند ما تعد به الشرائع الدينية والدنيوية وتتوعد به من ثواب وعقاب وجنة وجحيم .

ويظهر الالم واللذة فى الانسان منذ ما تدب الحياة فيه ، فبقوة الحس لا بالفكر يشعر الانسان بوجودهِ ولو قال (ديكارت) : « اشعر ولذلك فانى موجود » بدلاً من قوله « افكر ولذلك فانى موجود » لكان قولهُ أقرب الى الحقيقة ، لان دستوره إذا تبدل على هذا الوجه يُطبق على جميع الناس لا على فريق وحده .

ومن هاتين الحقيقتين يمكن استنباط فلسفة حياتية عملية ، وبهما يجاب جواباً صائباً عن السؤال الذى جاء مكرراً فى سفر سليمان ، وهو : لماذا يشتغل الانسان ويسعى كثيراً مع أن الموت ينتظره والأرض ستخمد يوماً ما ؟

الانسان يسعى لأنه يجهل المستقبل ولأن الطبيعة فى الحال ترغمه على البحث عن اللذة والفرار من الألم ، فالفاعل الذى يضنيه العمل والراهبة التى لا تجزع من القروح والمبشر الذى ينكل به الهمج والعالم الذى يكدح فى حل مسئلة والمكروب الصغير

الذى يميد متحركاً فى قطرة ماء لا يكابدون ما يكابدونه الا بتأثير عاملين : جذب اللذة وخوف الألم .

لا حركة بغير هذين الباعثين ، ولا نتصور وجود بواعث أخرى غيرهما على رغم اختلاف الألفاظ ، فحب الجمال والحرب والتدين والشهوات إن هى الا أمور صادرة عن مصدر عضوى واحد ، ولا تلبث حركة البشر أن تزول بزوال ذلكما العاملين اللذين لا ريب فيهما : اللذة والالم .

الفصل الثانى

تقلبات الحس هى أساس حياة الفرد وحياة المجتمع

---

١ — حدود الشعور باللذة والالم

تطبيق قواعد الوزن والقياس على درس الحوادث الجثمانية هو المرحلة الأولى فى تقدم هـذا الدرس ، فلولا ميزان الحرارة لاكتفى بتقديرات شخصية تختلف باختلاف الناس ، وما أتى به الانسان من رقى فى ميدان العقل لم يؤت بمثله فى دائرة العاطفة ، ولذا ترانا عاطلين من ميزان نزن به المشاعر .

ومع ذلك فانه يظهر أن شعورنا باللذة والألم يتراوح بين حدين محصورين ، يدعم هـذا القول ما تم على يد علماء وظائف الاعضاء من تجارب ، فلقد أثبت هؤلاء العلماء أن للحس حداً أعظمياً لا يتجاوزه مهما يزد المحرض وأن له حداً أصغرياً لا ينزل دونه .

ولا يزيد الحس بنسبة المحرض الذى يوجبه ، فيقتضى أن يزيد المحرض على نسبة هندسية ليزيد الحس على نسبة حسابية ، ولهذا يجب لمضاعفة ما تولدهُ آلة الطرب من حس زيادة عددها عشر مرات ، ويقتضى لجعل ماتولده من حس ثلاث مرات زيادتها مئة ضعف ، واذا أريدت مضاعفة طنين عشر آلات طرب يوقع عليها عشرة

مئتين فانه يقتضى ايصالها الى ألف ضعف . وبتطبيقنا هذه الافكار على اللذة والألم نرى أنه لا بد من زيادة المحرض كثيرا لزيادتهما قليلاً

لا ريب فى أن الارقام المذكورة غير مطلقة ،وانما غرضنا من جميع ذلك أن نثبت أن الشعور باللذة والألم يتراوح بين حدين محـدودين ، وكيف يكون الأمر خلاف ذلك ؟ قد تعـانى الأعضاء بالتدريج كل تطور ولكنهـا عاجزة عن احتمال أى تحول فجائى لاشتمالها على عوامل ناظمة تقيها من مثل ذلك ، فحرارة الجسم فى حال الصحة لا تتقلب اكثر من بضعة أعشار الدرجة مهما يشتد الحر أو البرد فى العالم الخارجى ولا يشاهد نقص الحرارة وزيادتها درجتين أو ثلاث درجات بالنسبة الى درجة حال الصحة الا فى الأمراض الشديدة المهلكة ، ففى كل وجود حد للتوازن لا يُبتعد منه .

وبهذه المناسبة نذكر وجود ناموس آخر يدعى « ناموس عدم تجمع المشاعر » ، فلهذا الناموس — مع إغفال أمره فى الغالب — شأن كبير فى حياتنا الشاعرة ، نعلم أن بعض الأشياء كصفيحة الفوطوغراف مثـلاً لها مزية تكويم ما يقرعها من المؤثرات الصغيرة المتتابعة ، وينشأ عن تجمع هذه المؤثرات الصغيرة المكررة تكريراً كافيًا على مر الأيام نتيجة كالتى تصدر عن مؤثر قوى قصير الأجل ، على هذه الصورة تستطيع صفيحة الفوطوغراف أن ترسم نجومًا لا تقدر العين المجردة على رؤيتها نظراً لأن شبكة العين لا تحتوى خاصة تكديس المؤثرات الصغيرة ، وما قيـل عن العين يقال مثله عن باقى الحواس من حيث عدم قدرتهـا على تكويم المؤثرات ، اللهم اذا استثنينا بضعة شواذ

وتقريبًا للذهن نقول : انه إذا هلك ثلاثمئـة شخص فى حادثة قطار فان حزنًا شديداً يملأ قلوبنا ، وتفهم الصحف أعمدتها بتفصيل الواقعة ، ويتبادل الملوك برقيات التعزية ، وأما اذا فرضنا أن هلاك هؤلاء تم بفعل سلسلة من الحوادث الصغيرة وقعت فى بحر السنة فان ما ينتابنا من الكدر قليل الى الغاية ، ذلك لان حواسنا لم تجمع كل أثر صغير أوجبته تلك السلسلة .

فلنفرض لكون الأمر على هذا الوجه ، فلو بُني الوجود على شكل مستعد لتكديس الآلام لكانت الحياة شيئًا ثقيلاً لا يطاق

٢ — تقلبات الحس فى الفرد وشأنها فى الحياة الاجتماعية

ظهر لنا مما تقدم أن تقلبات الحس محدودة زماناً واتساعاً ، والاختبار يثبت أن الحس يتراوح بين هـذه الحدود ، ومما يغير الحس على الخصوص تغييراً متتابعاً هو المرض والصحة والبيئة والحوادث ، وماأشبه الحس فى تقلبه بالبحيرة التى يجعل النسيم وجهها ذا أخاديد وغضون

وتوضح لنا تلك التقلبات المستمرة لماذا تتحول أذواقنا وأفكارنا وآراؤنا على الدوام ، والتقلبات المذكورة تكون أشد من ذى قبل عندما تأخذ العادات والمعتقدات الموروثة التى تحدد تقلبات الحس فى الأفول ، فعدم الثبات عند ذلك يصبح قاعدة

ومن علل الآراء ما يحـدد تقلبات الحس أيضاً ، ونعد من هذه العلل العدوى النفسية التى تحدث عادات موقتة قادرة على منح تنقلنا شيئاً من الثبات ، ومتى أصبح حس المجتمع على شىء من الرسوخ الموقت فان آثاراً مختلفة تؤلف معبرة عنه وتعد هذه الآثار مرآة الزمن .

وبعد أن يصفو الحس بفعـل بعض المحرضات المكررة فانه يدنو من الذوق الخالص قليلاً ، وكلما صفا الحس ينثـلم حده ، فأنغام (لولى) التى كانت تسحر قلوب آبائنا تورث فينا ضجراً وملالاً ، وأكثر الروايات الملحّنة التى نالت منذ خمسين سنة حظوة عند الجمهور أصبح لا يلائم ذوقنا ، وسبب ذلك كون مسئلة توافق الأصوات حلت بالتدريج مكان مسئلة النغم ، فيقتضى لإطراب الحواس التى أعياها التعب فى الوقت الحاضر إيجاد شىء من الشذوذ فى الألحان كان يعَدُّ خطأ عند مقترعى الأنغام فى الماضى .

تدلنا آثار أحد الأزمنة على شعور ذلك الزمان وتقلباته ، ولكون هـذه الآثار عنواناً صادقاً للشعور الذى ساد الزمان المذكور فانه يسهل توقيتها ، ولمثل هذا السبب تكون الآثار الفنية أفيد من كتب التاريخ ، فلما كان المؤرخ ينظر الى الماضى من خلال شعوره الشخصى الحاضر فان شروحه تكون بحكم الطبيعـة غير سديدة ، والقصص والروايات وألواح التصوير والمبانى هى على خلاف كتب التاريخ مصدر معرفة صحيح موجب للاعتبار والالتفات .

ولا ينتقل الحس زمانًا ومكانًا ، فلا شك فى أن البناء العظيم الذى يقوم مستعينًا بعناصر تخص قرونًا قديمة أو شعوبًا مختلفة يمس شعورنا لاشتقاقه من مشاعر تناقض مشاعرنا ، ولو تغير شعورنا بتأثير تطور النوع لأصبح ما نعجب له الآن من آثار الماضى — كالبارتنون والكنائس القوطية والقصائد الغراء والتصاوير والنقوش الشهيرة — غير جدير بأن نتأمل فيه ، وليس من الضرورى أن يكون تطور الشعوب مديداً لتستخف بما تعجب به الآن ، فيكفى لذلك أن تستمر التربية على انتحائها الحاضر نحو الاختصاص وأن يدوم اقتراب الجموع من القبض على زمام الأمور اقترابًا سريعًا ، لأن آثار الفن فى نظر الجموع كناية عن نفائس وكماليات تستحق الاهانة ، فعندما استحوذ نظام (الكومون) الذى هو عنوان روح الجماعات الصادق لم يتأخر رجاله عن حرق أجمل مبانى باريس كدائرة البلدية وقصور التويلرى ، والمصادفة هى التى أنقذت قصر اللوفر وتحفه من يد التخريب

ومهما يكن مستقبل آثار الماضي فانها لا تزال ماثلة للعيان وهى التى ترشدنا الى تاريخ الحس والشعور ، فلولا هذه العناصر المستنبطة من الادب والفن لما اطلعنا على شعور الأزمنة ولجهلناه كما نجهل سكان البرجيس ، وما فى الازمنة من معقول نقف عليه فى كتب العلم لخلوها من سمات مؤلفيها العاطفية ، فاذا كانت الروايات تنم على تاريخها بنفسها مثلاً فان رسائل الهندسة ليست كذلك ، فقد يمكن أحد الرياضيين المتأخرين أن ينتحل رسالة (أوقليدس) الهندسية القديمة التى لا تزال تُدَرَّس ، لأن (أوقليدس) لما وضع رسالته استعان بالمعقولات التى لا صلة بينها وبين الحس والمشاعر أبداً ، فالعقل يضع حقائق عامة خالدة والحس يضع حقائق خاصة زائلة

٣ — ما ينشأ عن تقلبات الحس فى المجموع من تبدل فى المثل الاعلى والمعتقد

غاية الحركة فى الانسان هى البحث عن السعادة أى طلب اللذة وطرد الألم ، على هذا المبدإ اتفق الناس أجمعون ، وانما اختلفوا فى معنى السعادة ووسائل نيلها ، وللسعادة أشكال متنوعة مع اتفاق المقصود ، فأحلام الحب والغنى والرفعة والايمان إن هى إلا أوهام مسيطرة تلقيها الطبيعة فى قلوبنا لتسوقنا الى أقصى الغايات ، ومتى يتغير

مبدأ السعادة اى المثـــل الاعلى فى الرجل أو الامة فان طرز نظره فى الحياة ومصيره يتغيران ، وليس التاريخ سوى الاخبار عما يبذله الانسان من الجهد فى سبيل إقامة مثل أعلى والقضاء عليه بعد أن يصل اليه ويكتشف بطلانه

ومن أمل السعادة التى يتخيلها الشعب والمعتقدات التى هى عنوان ذلك الأمل تتكون قوة هذا الشعب ، فمثل الشعب الأعلى يتولد معه وينمو بنموه ويموت عند موته، ومهما تكن قيمة ذلك المثل الأعلى فانه يمنح الشعب الذى يعتنقه منعة عظيمة ، وتكون هذه المنعة على نسبة تأثير المثل الأعلى وان كانت وعود هذا المثل قليلة ، نعم قد ندرك السر فى كون الشهيد يرى من خلال الموقد باب الجنة ، ولكن ما هى فائدة الجندى الرومانى أو جندى نابليون من طوافهِ فى أقطار الارض إن لم يكن القتل أو القرح ؟ فقد كان المثل الاعلى الذى استولى على شعبهِ من القوة والجبروت بحيث يلطف جذوة آلامهِ ، ومن مقتضياته أن يعد المرء أمر اللحاق بالأبطال سعادة أو فردوساً حاضراً يأخذ بمجامع الألباب .

الفصل الثالث

دوائر الحركات الحيوية والنفسية — الحياة الشاعرة والحياة اللاشاعرة

١ — دوائر الحركات الحيوية والنفسية

لما كانت غاية هذا الكتاب هى البحث عن تكوين الآراء والمعتقدات فمن الضرورى ان نعلم أولا البقعة التى تنبت فيها ، وقد زادت أهمية هذا البحث بنسبة ما أثبتته مبتكرات العلم الحديث من البطلان فى كتب علم النفس القديمة .

يمكننا أن نرجع حوادث ذوات الحياة الى ثلاثة أنواع تنضدت بعـد أن تم ظهورها واحداً بعد الآخر على مر القرون ، وهى : أولاً الحوادث الحيوية كالتغذية والتنفس الخ ، ثانيًا الحوادث العاطفية كالمشاعر والاطلاع الخ ، ثالثًا الحوادث العقلية

كالتأمل والتفكير الخ . والحوادث العقلية هى أحدثها ظهوراً فى تاريخ البشر ، والحياة العضوية والحياة العاطفية والحياة العقلية يؤثر بعضها فى البعض الآخر تأثيراً متصلاً على رغم كونها مختلفة منفصلة ، ولهذه العلة يستحيل إدراك الأخيرة من غير أن نبحث عن الأولى ، فلقد أخطأ علماء النفس بتركهم أمر البحث فى الحوادث الحيوية الى علماء وظائف الأعضاء وحدهم .

وسوف نثبت شأن الحوادث الحيوية عند ما نبحث فى جزء من هذا الكتاب عن الحوادث التى يهيمن المنطق الحيوى عليها ، وأما فى هذا الفصل فاننا لا نبحث الا عن المرحلة الأولى للحياة النفسية أى عن حركة النفس اللاشاعرة ، ولهذه المرحلة أهمية عظيمة ، إذ نرى جذور أفكارنا وسيرنا سائحة فيها .

٢ — النفسية اللاشاعرة ومصادر الالهام

المشاعر لا تنفذ دائرة الشعور إلا بعد أن تنضج فى منطقة اللاشعور نضجاً آليًا ، وبما أن الحوادث العقلية الشعورية هى أسهل إدراكا فان علم النفس لم يطلع على غيرها فى بدء أمره ، إلا أن العلم الحديث دل — مستعينًا بطرق صحيحة غير مباشرة — على أن الحوادث اللاشعورية تمثل فى الحياة دوراً هو فى الغالب أهم من الدور الذى تمثله الحوادث العقلية ، فيمكننا أن نقيس الحياة العقلية بالجزائر الصغيرة التى هي شماريخ جبال عظيمة مستترة بالماء ، وهذه الجبال هي اللاشعور .

معظم اللاشعور موروث عن الآباء ، وما قوته الا لكونه يمثل ميراث سلسلة طويلة من القرون التى زاد كل منها فيه شيئًا ، وقد أصبح شأنه الذى أغفل فى الماضى من الأهمية بحيث أن بعض الفلاسفة — وعلى الخصوص ويليام جيمس وبركسون — أخذوا يفسرون أكثر الحوادث النفسية به ، وبتأثير هؤلاء الفلاسفة ظهرت فى العالم حركة قوية ضد المذهب العقلى ، وقد غالى انصار المذهب الجديد فى التشيع فيه فطفقوا ينسون أن المنطق العقلى وحده يأتى بمبتكرات العلم والصناعة التي هي قوام حضارتنا .

ولم تنشأ المباحث التى منحت دائرة اللاشعور تلك الاهمية عن التأمل بل عن

تجارب أتى بهـا لغاية أخرى هي ليست ايجاد أدلة فلسفية ، وانى أذكر من تلك التجارب مباحث التنويم المغنطيسى وانحلال الذات والسير فى المنام واستخدام الارواح الخ ، غير أن علة المعلولات لا تزال مجهولة ، ففى علم النفس اللاشعورى كما فى علم النفس الشعورى يجب الاكتفاء فى الغالب بالتحقيق والمشاهدة .

والذى يسيرنا فى أكثر حوادث الحياة اليومية هو اللاشعور ، فلا تلبث ممارسة احدى الصنائع أن تصبح سهلة بعد أن يصير اللاشعور مديراً لها ، وما الأخلاق القويمة سوى لاشعور مثقف مهذب .

ويمكننا أن نقول إن اللاشعور هو عبارة عن مخزن مكتظ بالاحوال العاطفية والذهنية قد يتضعضع ولكنه لا يفنى أبداً ، ولو سلمنا بما نترصده من أعراض بعض الأمراض لقلنا ان العناصر التى تدخل فى عالم اللاشعور تبقى فيه زمناً طويلا ، بهذه الصورة وحـدها نفسر بعض الحوادث التى نشاهدها فى الوسطاء أو المرضى الذين يتكلمون لغات لم يتعلموها ولكنهم سمعوها فى ريعان شبابهم .

والالهام الذى هو أصل الدهاء والعبقرية يصدر عن اللاشعور الموروث وعن التربية الصحيحة ، نعم يلوح لنا أن إلهامات القائد الذى يدوخ البلاد ويتحكم فى القـدر ، والمتفنن الماهر الذى يبرز ما فى الأشياء من رونق وجمال ، والعالم الشهير الذى يستجلى الاسرار هي أمور غريزية ، ولكن اللاشعور الذى صدرت عنه هو الذى أنضجها مقداراً فمقداراً ، والمشاعر وان أمكن ان تظهر بتأثير بعض العوامل العقلية الا أنها تتكون فى عالم اللاشعور على كل حال ، وقد ينتهى نضجها التدريجى بأن تظهر للعيان فجأة كالانقلابات الدينية والسياسية .

والمشاعر التى نضجت فى عالم اللاشعور لا تنفذ دائرة الشعور الا بتأثير أحد المحرضات ، وهذا هو السر فى جهلنا أحياناً مشاعرنا الحقيقية نحو ما يحيط بنا من موجودات ، وما أكثر المرات التى تكون فيها مشاعرنا وما ينشأ عنها من آراء ومعتقدات خلاف مانظن ، وفى بعض الاوقات يكون الحب أو الحقد مستولياً على نفوسنا من غير أن نعلم ذلك ، وانما يبدو لنا ذلك عندما نرغم على العمل ، فالعمل

هو بالحقيقة مقياس المشاعر الذى لا ريب فيه ، وبه يعرف الانسان نفسه وتظل الآراء بدونه الفاظاً فارغة لا معنى لها .

٣ — اشكال اللاشعور : اللاشعور الذهنى واللاشعور العاطفى

يمكننا على ما أظن تفريق ثلاثة أنواع مختلفة فى عالم اللاشعور ، فالنوع الأول هو اللاشعور العضوى المسيطر على جميع أمور الحياة كالتنفس والدورة الدموية الخ ، فلما استتر أمره بتعاقب الوراثة فانه يقوم بوظائفه قياماً داعياً للعجب دون أن نعلم ذلك ، وهو يسير الحياة فيقودنا من الطفولة الى الهرم ومنه الى الموت من غير أن نقدر على إدراك عمله .

وفوق اللاشعور العضوى يوجد نوع آخر يقال له اللاشعور العاطفى ، فتكوين هذا اللاشعور تم بعد تكوين الأول ، ولذلك فانه أقل رسوخاً منه وإن كان على جانب عظيم من الرسوخ ، من أجل هذا الرسوخ الكبير ترانا لا نؤثر فى المشاعر الا قليلاً مع أننا نقدر على تبديل المواضيع التى نؤثر فيها بمشاعرنا .

وعلى رأس تلك السلسلة يوجد نوع يسمى اللاشعور الذهنى ، فلما كان ظهوره على مسرح الكون حديثاً فان جذور الوراثة ليست سائخة فيه كما يجب ، ومع أن أمر اللاشعور العضوى واللاشعور العاطفى قد أصبح من الثبات بحيث نشأت عنه غرائز تنتقل بالارث نرى أن اللاشعور الذهني لا يزال يبدو على شكل أهواء وأغراض ، والتربية هى التى تتدرج به الى الكمال فى كل جيل .

إن للتربية سلطاناً كبيراً على اللاشعور الذهنى لكونه أقل رسوخاً من ذينك النوعين ، وليس لهذا اللاشعور سوى تأثير ضئيل فى المشاعر التى هى قوام الخلق ، وأما اللاشعور العاطفى فانه يكون فى الغالب سيداً مهيمناً غير مبال بالمعقولات ، وهذا سبب كون كثير من الرجال الذين يكونون على جانب عظيم من الفطنة والصواب فى مؤلفاتهم وخطبهم يصبحون فى سيرهم آلات متحركة يقولون ما لا يودون أن يقولوه ويفعلون ما لا يريدون أن يفعلوه .

نستنتج من الايضاح السابق أن العقل ليس — كما ظن زمنًا طويلاً — أهم عامل فى الحياة النفسية ، فاللاشعور هو الذى يُنْضِجُ ولا تصل نتائج هذا النضج الى دائرة العقل الا تامة التكوين كالالفاظ التى تتدفق على شفتى الخطيب ، وتتجلى قوة اللاشعور فى كون جميع ما يتم به على جانب عظيم من الدقة والضبط ، فالتدرب على إحدى الصنائع لا يكمل إلا إذا صار العمل يُنْجَز بقوة التكرار على شكل لاشعورى ، ولذا عرفنا التربية فى كتاب آخر بأنها عبارة عن إدخال الشعور الى اللاشعور .

ومع أن علم الحياة الحديث أصاب فى نقضهِ مبدأ علة العلل فاننا نرى سلسلة الأشياء تبدو كأنها خاضعة لهذا المبدإ ، يؤيد ذلك كون الشروح العقلية التى أتى بها العلماء لم تقدر على حل كثير من الأمور الغامضة فى الكون ، على أننا لو نظرنا الى اللاشعور من حيث نتائجه لرأيناه يشتمل على شياطين لطيفة — هى سبب الاسباب الحديث — تسعى فى إعمائنا لنضحى بمنافعنا الشخصية فى سبيل منافع الجنس ، وما هذه الشياطين الا كناية عن ضرورات تأصلت فى النفوس بفعل الزمان .

والأمر مهما يكن فان اللاشعور يهيمن علينا فى الغالب ويعمى أبصارنا على الدوام ، ولا نأسف على ذلك ، لأن كشف المصير يجعل الحياة شقيَّة ، فالبقر لا يرعى الكلأ مطمئنًا إذا علم أن مصيره الى الذبح واكثر الموجودات تتقهقر جزعًا لو اطلعت على نصيبها .

الفصل الرابع

الذات العاطفة والذات العاقلة

---

١ — الذات العاطفة والذات العاقلة .

يرشدنا البحث عن العوامل التى هى سبب آرائنا ومعتقداتنا الى كون هذه الآراء والمعتقدات تابعة لأنواع المنطق المختلفة ، وقبل درس هذه الأنواع أقسم العناصر

النفسية تقسيماً أساسيًا هو أصل كل تقسيم ، فهذه العناصر النفسية قسمان : العناصر العاطفة والعناصر العاقلة ، وبهـذا يسهل فهم فصول كثيرة نبحث فيها عن أنواع المنطق المختلفة .

تميز المشاعر عن العقل أمر وقع حديثًا فى تاريخ البشر ، فقد كان أجدادنا الاقدمون يحسون ويتأثرون كثيراً ولكنهم كانوا لا يعقلون الا قليلاً ،غير أن الانسان لما بلغ شأواً بعيداً فى تطوره أخذ يتفلسف ويتحذق فظهر الفرق حينئذ بين المشاعر والعقل ، وأما العهد الذى ثبت فيه كون المشاعر تخضع لأحكام منطق خاص يختلف عن المنطق العقلى اختلافًا كبيراً فقريب الى الغاية .

وجهل هذا التفريق هو أحد أسباب الخطإ فى ظنوننا وأفكارنا ، فقد أرادت كنائب كثيرة من المشتغلين بالسياسة أن يقيموا بالعقل ما لا يتم أمره الا بالمشاعر ، وقد رأى كثير من المؤرخين الذين قل اطلاعهم على دقائق الأمور أن يشرحوا بالمنطق العقلى حوادث لم يملها العقل قط ، وهـذا هو السبب فى أن تكوين اكثر العوامل المهمة فى التاريخ — كنشوء المعتقدات وانتشارها — ظل معروفًا قليلاً .

وهنالك فلاسفة عظام خلطوا مخطئين المنطق العاطفى بالمنطق العقلى ، فقد حاول (كانت) تشييد دعائم عـلم الأخلاق على أساس العقل مع أنه لا شأن للعقل فى اكثر منابع الأخلاق ، ولا يزال اكثر علماء النفس يتمادون فى الضلال المذكور ، وقد أصاب (ريبو) فى إشارته الى ذلك حيث قال : « يريد علماء النفس بأوهامهم العقلية المتأصلة أن ينسبوا كل شىء الى العقل وأن يشرحوا به كل أمر جاهلين أن الحياة النباتية جاءت قبل الحياة الحيوانية وأن هذه تستند الى تلك وأن الحياة العاطفة أتت قبل الحياة العاقلة وأن هذه تستند الى تلك . »

ومن الضرورى أن أطنب فى البحث عن الفرق بين العاطفى والمعقول لأبلغ الغاية التى توخيتها فى هذا الكتاب ، إذ الغفلة عنه تقضى علينا بأن نجهل تكوين الآراء والمعتقدات ، ومع ذلك يصعب أن نفرق بين العاطفى والمعقول تفريقًا دقيقًا لأن التقسيمات اللازمة فى مباحث العلم تُفْضِى الى ما تجهله الطبيعة من قطع فى سلسلة الأشياء ، الا أن العلم لا يتكون إذا لم نعلم كيف نفصل ما اتصل .

إن انفصال العاطفى عن المعقول وقع فى دور بلغ فيه الانسان درجة راقية من درجات التطور ، ونظن أن المعقول نشأ عن العاطفى لكون العاطفى أقدم منه ثم ان الحيوان يكون فى الغالب ذا مشاعر نامية مثل مشاعرنا ، فالانسان لا يمتاز من الحيوان الا بتقدم عقله .

ومن صفات المشاعر كونها معلومة من قبل صاحبها مع انه يصعب تعريفها ، واذا عُبِّر عنها فبعبارات عقلية ، فبالعقل نعرف وبالمشاعر نشعر ، ولا يمكن الاعراب عن المعرفة والشعور بلسان واحد ، نعم قد استطاع العقل أن يجد له لسانًا متقنًا محكمًا ولكن لسان المشاعر لا يزال مبهمًا غير صريح .

ومع تأثير الذات العاطفة والذات العاقلة الواحدة فى الأخرى فان لهما كيانين مختلفين ، لأن الذات العاطفة تتطور على رغم أنفنا وكثيراً ما تتطور ضدنا ، وهذا سر ما فى الحياة من تناقض ، فاذا أمكن أن نزجر أحيانًا مشاعرنا فلا نقدر على ايجادها أو محوها .

اذاً ليس من الصواب أن نؤنب المرء إذا تغير ، ذلك لأن هذا التأنيب ينم على المبدإ الباطل القائل إن العقل يستطيع أن يهيمن على المشاعر ، فمتى ينقلب الحب الى ضده فان العقل يلاحظ هذا الانقلاب فقط دون أن يكون علته ، ولا علاقة للأسباب التى يتخيلها العقل عند ما يفسر مثل ذلك الانقلاب بالاسباب الأصلية التي نجهلها ، وفى الغالب لا نعرف مشاعرنا الحقيقية اكثر من أن نعرف العوامل الموجبة لها . قال ريبو : « كثيراً ما يتصور المرء أنه يشعر بحبه لآخر حبًا جمًا ، فالغياب أو ضرورة انقطاع أخرى قد يثبت لنا أن هذا الحب سريع العطب كما أنه قد يثبت لنا صدق حب لا يكون باديًا بتأثير العادة . »

وعلى ما تقدم يتعذر إدراك سير الذات العاطفة عن طريق الذات العاقلة كما لاحظ المؤلف المشار اليه أيضًا ، ومع ما بين الحياة العاطفة والحياة العاقلة من تباين واختلاف فاننا لا نبالى فى سلوكنا بالفرق بين المشاعر والذكاء ، يؤيد هذا القول طرق تربيتنا اللاتينية . فمن أباطيل جامعاتنا الخطرة هو اعتقادها أن إنماء الذكاء بالتعليم يؤدى الى نمو المشاعر التى هى أساس الخلق ، وهى فى ذلك على خلاف

التربيـة الانكليزية التى أدركت منذ زمن طويل أن تهذيب الخلق لا يتم بمزاولة الكتب .

وبما أن الذات العاطفة تختلف عن الذات العاقلة فاننا لا ندهش إذا سمعنا أن رجلاً ذا ذكاء عال قد يكون نذلاً في أخلاقه[1] . لا ريب فى أن الذكاء والتعليم — باثباتهما أن عدم الاستقامة يضرّ الانسان اكثر ممّا يفيده — يجعلاننا لا نصادف سوى قليل من المتعلمين يتخذون اللصوصية مهنة ، ولكن اذا وجدت فى المتعلم روح لص فانه يتمسك بها على رغم ما ناله من الشهادات العلمية وبها يستعين فى أعماله غير الشريفة .

والفرق بين الذات العاطفة والذات العاقلة الذى يشاهد فى اكثر الأفراد يشاهد أيضًا فى بعض الشعوب ، فقد أشارت (مدام دوستائيل) الى انه لا ارتباط بين المشاعر والذكاء فى الالمان ، ويشاهد هذا الفرق فى الجماعات الموقتـة على وجه اكثر وضوحًا ، لأن العناصر التى تملى على الجموع أمر حركتها هى المشاعر لا الذكاء وقد بينت عالى ذلك فى كتاب آخر ، فلنتذكر أن الذكاء الذى يختلف باختلاف الاشخاص ولا ينتقل كالمشاعر بالعـدوى النفسية لا يكون ذا شكل جموعى أصلاً ، وأما الأشخاص الذين ينتسبون الى عرق واحد فهم ذوو مشاعر متجانسة لا تلبث أن تتحد عند ما يصبحون جماعة

والعنصر الأساسى فى الانسان هو الذات العاطفـة ، فلما تم نضج هذه الذات ببطء على مر الأجيال فانها تتطور فى الأفراد والشعوب بسرعة أقل من السرعة التى

---

(١) نذكر من بين الأمثلة الكثيرة التى حكى عنها التاريخ مثال الوزير (بيكن) البارز : لم يكن فى زمن هذا الوزير من يدانيه ذكاء ، ولكن لم يكن ايضاً من أبدى مثله دناءة ، فقد كانت باكورة أعماله فى الحياة أن خان (الكونت ديسكس) الذى أحسن اليـه اكثر من كل انسان فأوجب قطع رأسـه طمعاً فى نيل منصب عند الملكة (اليصابات) ، وبعد أن جلس الملك جاك الأول على العرش نال منصب نائب عام ثم منصب وزير بناء على رجاء الدوك دوبكنغام الذى خانه أيضاً ، وفى أيام وزارته بلغت جرأته على سرقة بيت المال والناس مبلغاً جعل القضاء يتتبعه ، وقد حاول عبثاً أن يستعطف قلب القضاة باعترافه كتابة بذنوبه ، اذ حكموا عليه بالسجن مؤبداً .

يتطور بها الذكاء ، نعم يظهر أول وهلة أن التاريخ يناقض هذا الفكر ، لأن التاريخ يدلنا على أن مشاعر جديدة تتولد مختلفة عن التى جاءت قبلها اختلافاً عظيماً ، فالأمة التى ظهرت فى وقت بمظهر المحب للحرب لا تلبث أن تصبح مسالمة ، وكثيراً ما تجيء الحاجة الى المساواة بعد الحاجة الى التفاوت ، وطوراً تحل الزندقة مكان الايمان ، إلا أن تحليل هذه الأمور يثبت لنا أن تطور تلك المشاعر ليس إلا ظاهرياً ، فالحقيقة هى أن المشاعر لا تبدل سوى توازنها ، وعلة هذا التبدل هو كون الانسان فى المجتمع يضطر الى تكييف مشاعره حسب مقتضيات الوقت التى يلجيء اليها تعاقب الأحوال ، فتستولى حينئذ بعض المشاعر التى كانت مزجورة على البعض الآخر

وقد يبدو لنا أحياناً أن المشاعر تغيرت مع أن هذا التغير لم يكن إلا موضعياً ، فالأمل الجاذب الذى يقود العامل فى الوقت الحاضر الى الحانات حيث يعده رسل الانجيل الجديد بجنة مقبلة هو عين المشاعر التى كانت تسوق آباءنا الى الكنائس حيث كان يتراءى لهم من بخار لُبانها تفتحُ أبواب السعادة الأبدية .

٢ — مظاهر الحياة العاطفة : الانفعالات والمشاعر والحرص

يطلق المؤلفون على مظاهر الحياة العاطفة اسم الانفعالات أو اسم المشاعر ، وعندى أن وصف تلك المظاهر يتطلب تقسيمها الى ثلاثة أنواع : الانفعالات والمشاعر والحرص ، فاما الانفعالات فهى مشاعر موقتة غير ثابتة وهى تنشأ عن احدى الحادثات الفجائية كالنازلة والمنعاة والوعيد والشتيمة ، ونعد الغضب والخوف والهول من فصيلة الانفعالات ، وأما المشاعر فهى حال عاطفية مستمرة كالحلم والرفق والدماثة الخ ، وأما الحرص فصادر عن مشاعر شديدة قادرة على إبطال تأثير الأخرى كالحقد والحب الخ.

ويقابل هذه الأحوال النفسية تغير فى وظائف الأعضاء مع اننا لا نعرف سوى بضع نتائج دالة على وقوع تلك التغيرات كاحمرار الوجه واضطراب الدورة الدموية الخ ، فما يقع فى الخليات العصبية من تبدل طبيعى أو كيماوى وما ينشأ عن هذا التبدل من مشاعر يثبتان لنا وجود صلة بين الطرفين لا نعرف عنها شيئاً سوى طورها النهائى ،

ومما يتعذر علينا فى الوقت الحاضر هو أن نبين كيف ينقلب تطور خليات الاعضاء تطوراً كيماوياً الى مشاعر .

وقد تختلف المشاعر والانفعالات باختلاف ما يطرأ على الاعضاء من أحوال صادرة عن بعض المهيجات كشرب القهوة والمسكرات الخ

وأبسط المشاعر هو كثير التعقيد بالحقيقة ، ولكن عند ما نعجز عن تحليله نصفه بالبسيط تقريباً للذهن ، فنحن فى ذلك كالكيماوى الذى يعتبر بعض الاجسام بسيطة حين لا يقدر على تحليلها .

ويبحث علماء النفس أحياناً عن المشاعر الذهنية ، فقد قال (ريبو) ان هذا التعبير « يدل على أحوال عاطفية طيبة أو ذات لغوب هى من عمل الذكاء » ، إننى لا أرضى بهذه النظرية التى لا تفرق بين العلة ومعلولها ، فأحد المشاعر وإن جاز أن يحدث بتأثير طعام شهى إلا أنه يبقى من نوع المشاعر على الدوام .

ومتى زادت المشاعر قوة واستعصت تصبح حرصاً كما بينا ذلك آنفاً ، ولم يستطع علماء النفس أن يُعَرِّفوا المشاعر ويصنفوها ، فقد قسمها (سبينوزا) الى الرغبة والفرح والحزن واستخرج من هذه الاقسام بقية المشاعر ، واما (ديكارت) فقد قال بوجود ستة أنواع أصلية هى العجب والحب والحقد والرغبة والفرح والحزن ، فهذه التقسيمات إن هى إلا أوضاع لغوية لا توضح شيئاً ولا تقف أمام سلطان النقد .

قد يتكون الحرص كالصاعقة فجأة وقد يتكون على مهل ، وعند ما يتم نشوءه يستولى على الذهن أوالعاطفة دون أن يكون للعقل الذى يخضع لحكمه تأثير فيه ، والحرص الكبير يندر وقوعه ، فلما كان الحرص الذى يقع فى الغالب موقتا فانه لا يلبث أن يزول بعد أن ينال صاحبه مبتغاه ، وهذه قاعدة ثابتة فى مسائل الحب ، فابطال الحب الشديد هم على الاكثر أناس تحول الاحوال دون التقائهم كثيراً ، والحرص الذى يستمر زمناً طويلاً هو الذى يضطرم على الدوام كالاحقاد السياسية مثلاً ، ويغيب الحرص فى أغلب الاوقات منطفئاً وفى أقلها متبدلاً ، وحينئذ تتحول الآراء التى كانت سبب ظهوره ، قال ريبو : « قد ينقلب حب الانسان من حب بشرى الى حب الهى وقد يتحول التعصب الدينى الى تعصب سياسى أو اجتماعى والعكس

بالعكس ، مثال ذلك (ايغناس دولويولا) الذى عدل عن خدمة أحد الملوك الى خدمة المسيح مؤسساً طريقة اليسوعيين »

والعقل لا يؤثر فى الحرص الا بعد أن يطرأ على الحرص ضعف ، وأما تأثيره فيكون بتسليطه أحد المشاعر على الآخر ، وما يقع وقتئذ من عراك فبين المشاعر لا بين المشاعر والعقل .

٣ — ذاكرة المشاعر

المشاعر ذاكرة كذاكرة العقل وان كانت أدنى منها كثيراً ، فهى لا تلبث أن تهن بفعل الزمان ، وأما ذاكرة العقل فهى على جانب عظيم من الثبات عند ما يستعان بها حتى أن آثاراً كبيرة ككتب الهندوس المقدسة المسماة (ڤيدا) وأغاني (هوميروس) انتقلت الينا جيلاً بعد جيل عن طريق ذاكرة العقل ، وقد كان طلاب العلم فى القرن الثالث عشر — حيث كانت الكتب نادرة ثمينة — يحفظون عن ظهر القلب ما يملى عليهم من الدروس . قال (اتكينسون) : « إن كتب الصين التقليدية لو محقت فى هذه الايام لاستطاع أكثر من مليون صينى أن يجمعوها بفضل ذاكرتهم »

ولو كانت ذاكرة المشاعر كذاكرة العقل ثباتاً لجعل ما نحفظه من آلام حياتنا لا تُطاق ، غير أنه يعترض على عدم رسوخ ذاكرة المشاعر بدوام احقاد الطبقات والشعوب دواماً مستمراً مع تعاقب السنين ، نجيب عن هذا الاعتراض قائلين إن ذلك الاستمرار الظاهرى لم ينشأ الا عن علل واحدة تكررت تكراراً متصلاً . حقاً إن الحقد اذا لم يُنَبَّه لا يدوم أبداً ، فلولا الصحف الألمانية التى كانت توقد نار الحقد فى قلوب الألمان ضد الافرنسيين إيقاداً غير منقطع لزال ذلك الحقد ، واذا بقى الكره يغلي فى صدور الهولنديين للانكليز الذين سلبوهم فى الماضى مستعمراتهم فذلك لأن حوادث كثيرة كحرب الترنسفال أحيت ذلك الكره ولأن هولندا تعتقد على الدوام أن انكلترا تهددها ، وتثبت المحالفة الروسية والائتلاف الفرنسوى الانكليزى كيف أن شعوباً متعادية فى الماضى لا تلبث ان تنسى احقادها اذا لم

تحافظ عليها ، واغرب ما فى ذلك هو أن انكلترا أصبحت صديقتنا فى وقت غير بعيد من حدوث مذلة (فاشودا) .

يوضح المبدأ القائل بقلة استمرار ذاكرة المشاعر كثيراً من الحوادث الماسة لحياة الشعوب ، فيجب ان لايُعتمد على شكرها كما أنه يقتضى ان لا يُفْزَعَ من حقدها .

٤ — اشتراك المشاعر واشتراك الأفكار

سنبحث عن بعض عناصر الذكاء الأساسية فى الفصل الذى خصصناه فى هذا الكتاب لفحص المنطق العقلى ، واذا أشرنا هنا الى تلك العناصر فذلك لبيان كيفية اشتراك العناصر العقلية والعناصر العاطفية وتأثير بعضها فى البعض الآخر .

ان صفة الذكاء البارزة هى التأمل والتعقل أى إدراك علائق الأشياء الظاهرة والمستترة حسب بعض القواعد والسنن ، وكذلك المنطق العاطفى فله قواعده وسننه ولما كانت منطقة اللاشعور مرتع هذه السنن فانها لا تبدو للشعور الا كمعلولات .

بينا أن حياتنا النفسية تتألف من مشاعر ومعقولات ، فكيف يؤثر أحد هذين الطرفين فى الآخر ؟ نعلم من نظريات علم النفس أن الأفكار تشترك على وجهين : اشتراك بفعل المحاكاة والمشابهة واشتراك بفعل الاتصال والملاصقة ، فاما الاشتراك بفعل المحاكاة والمشابهة فهو أن يذكرنا الانطباع الحاضر بانطباعات سابقة متشابهة ، وأما الاشتراك بفعل الاتصال والملاصقة فهو أن يذكرنا الانطباع الحاضر بانطباعات أخرى وقعت معًا دون أن يكون بينها وجه شبه ، ويظهر لنا أن المشاعر تشترك كما تشترك الأفكار ، وقد يشترك الطرفان بالسوية بحيث نتذكر باحدهما الطرف الثانى .

والفرق بين اشتراك المشاعر واشتراك الأفكار هو أن الأول يقع فى الغالب على وجه لاشعورى بعيد من تأثيرنا ، وسنرى على رغم هذا الفرق أن الذات العاطفة والذات العاقلة قد تؤثر أحداهما فى الأخرى بفعل الاشتراك الذى أشرنا اليه فى هذا المطلب .

الفصل الخامس

عناصر الذات ، امتزاج المشاعر التى يتألف الخلق منها

١ — عناصر الخلق

يتألف الخلق من تكتل عناصر عاطفية ينضم اليها بضعة عناصر عقلية تمتزج بالأولى قليلاً جداً ، فمن العناصر العاطفية تشتق شخصية الانسان الحقيقية ، وبما أن هذه العناصر كثيرة الى الغاية فانه ينشأ عن اشتراكها اخلاق متنوعة أى أخلاق نشيطة وأخلاق متبصرة وأخلاق جامدة وأخلاق حساسة الخ ، وكل من هذه الأخلاق يعمل عمله المختلف بتأثير المحرّضات الواحدة .

وقد يكون الملاط بين عناصر الخلق وثيقاً وقد يكون واهناً ، فمن العناصر ذات الملاط المتين تتألف شخصيات قوية تظل ثابتة على رغم تغير البيئة والأحوال ، ومن العناصر ذات الملاط الضعيف تتألف شخصيات رخوة مذبذبة متقلبة تتبدل بتأثير أخف المؤثرات إذا لم تعين مقتضيات الحياة اليومية وجهتها كما تعين ضفتا النهر مجراه ، غير أن الخلق مهما يكن ثابتاً فإنه يبقى مربوطاً بأحوالنا العضوية ، فالألم العصبى أو الرئية أو المغص يحول الفرح الى غم والصلاح الى خبث والعزم الى خنث ، ولذلك لم يكن نابليونُ المريضُ فى (واترلو) نابليون المعهود ، ولو كان (يوليوس قيصر) ذا تخمة لما عبر نهر (الروبيكون) ، وكذلك العوامل الأدبية فانها تؤثر فى الخلق أو تعين وجهته على الأقل ، فمتى يعتنق المرء ايماناً فان حبه للدنيا ينقلب الى حب الله ، وقد يصبح الكاهن المتعصب الظالم ملحداً ولكنه يصير مؤذياً متعصباً لالحاده .

لقد بينت أن الخلق والعقل ليسا متآزرين فى نموهما ، فعلى نسبة ميل الخلق الى الوهن ينمو العقل ، فالذى أوجب تداعى مدنيات عظيمة هو شدة العزم فى الشعوب ذات العقل الصغير ، إذ إن أرباب النفوس ذات الحزم والاقدام لا تقف أمام

ما ينصبه العقل من الموانع ، ولا تلبث السلطة فى المجتمعات الزاهرة النضرة التى ضعفت الارادة فيها أن تنتهى فى الغالب الى أولى الجرأة من محدودى العقل والذكاء ، وهذا ما يجعلنى أشاطر مختاراً رأى (فاكيه) القائل متى يسود السلم أوروبا فان « الشعب الذى يبقى مسلحاً يفتتحها » وسيستعبد هذا الشعب شعوب أوروبا ويرغم المسالمين من أصحاب الذكاء العاطلين من النشاط والعزم على العمل الذى يستفيد منه

٢ — أخلاق الشعب الجامعة

لكل شعب اخلاق جامعة مشتركة بين أكثر أفراده ، فتلك الأخلاق تحدث فى الشعب آراء متشابهة فى بضعة مواضيع جوهرية ، ولا حاجة لاخلاق الشعب الاساسية أن تكون عديدة ، إذ الاستقرار فى أخلاق الشعب لا عددها هو الذى يهيمن على مصيره ، فلو أخذنا الانكليز مثلاً لرأينا أن العوامل التى تقود تاريخهم هى من القلة بحيث يمكن تلخيصها فى بضعة أسطر واليكها : عبادة المجهود الثابت المستمر الذى يمنع المرء من التقهقر أمام أى مانع والذى يجعله يعتبر كل كارثة أمراً لا يُرْتَق فتقه ، احترام العادات وكلّ ما أثبته الزمان احتراماً دينياً ، الحاجة الى العمل وازدراء تأملات الفكر العقيمة ، احتقار الضعف ، حب الواجب ، اعتبار ردع الرجل نفسه بنفسه صفة أصلية يجب على التربية أن تعتنى بها اعتناء خاصاً .

وهنالك نقائص خلقية لا تطاق فى الأفراد ولكنها تصبح فضائل عندما تخص المجتمع كالفخر مثلاً ، فالفخر الشعبى يحرض الأمم على الحركة والعمل ، وبفضله كان الجندى الرومانى يجد ثواباً كافياً بانتسابه الى أمة دوخت العالم ، وما الشجاعة الخارقة التى أبداها اليابانيون فى حربهم الأخيرة مع الروس الا صادرة عن مثل ذلك الفخر ، ثم إن الفخر أساس الرقى ، فمتى شعرت الأمة بافضليتها على الأمم الأخرى فانها تبذل جهدها للمحافظة على تلك الأفضلية .

بالخلق لا بالذكاء تفترق الشعوب وتتحاب وتتباغض ، وما بينها من تباين فبالأخلاق لا بالذكاء الذى هو من نوع واحد عند جميعها ، ولما كان تأثير الشىء الواحد فى الشعوب يختلف باختلافها فان سير هذه الشعوب يتباين بحكم الطبيعة حتى

فى الأحوال التى يظهر أنها واحدة ، وسواء أنظرنا الى الشعوب أم نظرنا الى الأفراد فان الاختلاف بين البشر يكون باختلاف الاخلاق اكثر منه بالمنافع والذكاء .

٣ — تطور عناصر الخلق

بما أن لحمة الخلق تتألف من مشاعر أساسية فان تطور المشاعر المذكورة يقع ببطء على مر القرون كما يؤيد ذلك ثبات الأخلاق القومية ، فالعناصر النفسية التى هى مصدر هـذه المشاعر راسخة رسوخ العناصر التشريحية ، ولكن يوجد حول الأخلاق الأصلية أخلاق ثانوية تستطيع أن تتغير حسب الزمان والبيئة .

والذى يتبدل على الخصوص هو الموضوع الذى تطبق عليه المشاعر ، فما حب الأسرة ثم القبيلة ثم المدينة ثم الوطن الا تطبيق مشاعر واحدة على جموع مختلفة ، ونعد المذهب الأممى والمذهب السلمى عبارة عن انتشار جديد لتلك المشاعر ، كانت الحمية الوطنية قبل قرن مجهولة فى المانيا على وجه التقريب ، فقد كانت المانيا منقسمة الى دويلات متنافسة ، وإذا عُدَّ حب الاتحاد بعدئذ فى المانيا فضيلة فان هذه الفضيلة ليست سوى ذيوع مشاعر قديمة بين طبقات جديدة .

الأحوال العاطفية هى من الثبات بحيث يتطلب تطبيقها على مواضيع جديدة جهوداً عظيمة ، فقد أوجب نيل شىء من التسامح قتل ألوف من الشهداء وسيل الدماء كالنهر فى حومة الوغى كما قال الموسيو (لافيس) .

ومن الأمور الخطرة فى حياة الشعب هو أن يسعى هذا الشعب مستعيناً بالعقل فى إيجاد مشاعر مناقضة للمشاعر التى رسخت فيه بفعل الطبيعة ، فها نحن نعانى نتائج ثورتنا الكبرى حتى الآن ، إذ أفضت هذه الثورة الى انتشار الاشتراكية التى تزعم أن من الممكنات تغيير مجرى الأشياء الطبيعى وتجديد روح الأمم .

ولا يعترض على المبدإ القائل بثبات المشاعر كوننا نشاهد فى بعض الأحيان تقلبات فجائية فى شخصية الانسان كانقلاب الاسراف الى بخل والحب الى حقد والتعصب الدينى الى تعصب للالحاد الخ ، فهـذه التقلبات لم تكن الا تطبيقاً للمشاعر الواحدة على مواضيع مختلفة .

ويوجد عوامل متنوعة — كمقتضيات الاقتصاد مثلاً — قادرة على نقل مكان مشاعرنا دون أن تبدل شيئاً فيها ، ونذكر من بين مقتضيات الاقتصاد كون انتشار الملكية بين كثير من الناس يؤدى الى تناقص عدد المواليد ، فلو أصبح جميع أبناء البلاد مُلاَّكاً لقل عدد السكان اكثر من ذى قبل على ما يحتمل .

لا تبدل المشاعر التى هى أساس الخلق وجهتها من غير أن تنقلب حياة المجتمع رأساً على عقب ، فما مصدر الحروب الدينية والحروب الصليبية والثورات إلا ذلك التبدل ، والذى يجعلنا فى الوقت الحاضر نرى جو المستقبل مكفهراً هو أن مشاعر طبقات الشعب اخذت تحول وجهتها ، فقد أصبح كل واحد — بفعل أوهام المذهب الاشتراكى — ساخطاً على نصيبه معتقداً أنه يستحق نصيباً آخر اطيب منه ، وقد صار العامل يظن أن الطبقات القائدة مستغلة ،ولذا صار يحلم بالاستيلاء على أموالها عنوة.

الفصل السادس

انحلال الخلق وتقلبات الذات

---

١ — التوازن بين عناصر الخلق

بينّا أن عناصر الخلق راسخة رسوخ العناصر التشريحية ، والآن نقول إنه قد يصيب الاولى ما يصيب الثانيــة من أمراض مختلفة حتى الانحلال التام ، فلهذه الأحوال تأثير عظيم فى تكوين الآراء والمعتقدات ، ويظل إدراك بعض الحوادث التاريخية ممتنعاً إذا لم نقف على ما يقع فى الخلق من تبدل عرضى .

وسوف نرى في فصل آخر أن العوامل التى تصدر عنها آراؤنا ومعتقداتنا وأفعالنا هى مثل العيارات الموضوعة على كفتى الميزان ، فالكفة التى تثقل عياراتها تهبط ، غير أن الامور لا تجرى تماماً على هذا الوجه البسيط ، فقد تزيف العوامل التى اتخذنا العيارات رمزاً لها بتأثير بعض المعكرات ، حينئذ يتغير الاحساس وينتقل مقياس القيم ويتحول اتجاه الحياة فتتجدد الذات .

تشاهد تلك التقلبات على الخصوص عند ما يطرأ اختلال عظيم على ما بين البيئة الاجتماعية التي تغيرت فجأة و بين المشاعر من توازن ، والوقوف على التوازن بين البيئة التى تكتنفنا والعناصر التى نتألف منهـا انما هو على جانب عظيم من الأهمية ، فهذا التوازن لا يختص بعلم النفس وحده بل يتناول علم الكيميا وعلم الطبيعة وعلم الحياة أيضًا ، فالجسم — سواء أكان جماداً أم كان من ذوات الحياة — ينشأ عن توازن بينه و بين بيئتهِ ، و يتبدل هذا الجسم بتبدل البيئة ، فقـد يمكن سبيكة الفولاذ أن تصبح بخاراً خفيفًا إذا كانت فى بيئة ملائمة .

وكذلك فان اقطاب السياسة يقدرون عند الحاجة على تغيير ما بين عناصر الخلق القومى من توازن وذلك بجعلهم ما هو ملائم منها لمقتضيات الزمن يتغلب على الأخرى.

٢ — تقلبات الذات

تبين من الملاحظات السابقة أن الذات قد تتحول ، وتشتق هذه الذات كما رأينا من عاملين لازمين هما الموجود نفسه ثم بيئتهُ،والقول بأن ذات الانسان متحولة لا يلائم الافكار التقليدية التى تزعم ثبات الذات ووحدتها .

حقًا إن ذات الإنسان تتألف من خليات لا يحصى عديدها ، فكل خلية تشترك فى تكوين وحدة الذات اشتراك الجندى فى تكوين وحدة الجيش ، والتجانس الواقع بين الألوف من الرجال الذين يتألف الجيش منهم ناشىء عن اتحاد حركتهم الذى قد تقضى عليه علل كثيرة .

ولا طائل تحت الادعاء بأن الذات تظهر ثابتة على وجه العموم ، فالذات إذا لم تتغير فذلك لعدم تحول البيئة الاجتماعية،ولو تحولت البيئة فجأة — كما يقع أيام الفتن — لتبدل الاشخاص أنفسهم تمامًا ، فقـد شوهد فى دور الهول الاكبر رجال من أبناء الطبقات الوسطى اشتهروا فى الماضى بدماثة أخلاقهم ولين طبائعهم قد اصبحوا سفاكين متعصبين ، وعندما هدأت الزوبعة وعادت البيئة السابقة رجعت الى أولئك الرجال شخصيتهم السامية ، ولقد فصلت هذه النظرية منذ زمن بعيد فأثبت أن حياة رجال الثورة الفرنسوية تظل سراً غامضًا بدونها .

وما هى عناصر الذات التى تتركب شخصية الانسان من مجموعها ؟ لا يزال علم النفس غير مجيب عن هذا السؤال ؛ وأما نحن فنقول إن عناصر الذات تنشأ عن شخصيات موروثة تكونت بتعاقب القرون ، فالذات هى كما ذكرت مؤلفة من ملايين من محاى خلوية ، ومن هذه المَحَايى تتكون اطوار كثيرة .

فبعض المهيجات الشديدة أو بعض الامراض كالتى تشاهد فى الوسطاء والمُنَوَّمين الخ تحول تلك الاطوار وتولد ولو موقتًا فى الرجل نفسه شخصية أخرى أرفع أو أدنى من شخصيته المعتادة ، فنحن نشتمل على ممكنات خلفية هى أعظم مما نطبقه عادة وتحركها فينا بعض الحوادث والأحوال .

٣ — عناصر الثبات فى الذات

تتألف من البقايا والفضلات التى تنتقل الينا بالوراثة طبقة خلقية عميقة ثابتة ، وبهذه البقايا الارثية يختلف الانكليزى عن الفرنسوى أو الصينى اختلافًا كبيراً ، إلا أنه ينضم الى هذه الموروثات عناصر مصدرها التربية والبيئة الاجتماعية كالطائفة والقبيلة والمهنة وغيرها من المؤثرات الكثيرة ، فهذه العناصر هى التى تعين وجهة الانسان تعيينًا ثابتًا .

واكثر العناصر التى تتكون الذات من مجموعها فعلاً — بعد العرق — هى التى تتعرف بها الجماعة التى ننتسب اليها ، فاما صُبَّت افراد هذه الجماعة عسكرية كانت أم قضائية أم كهنوتية أم نوتية الخ فى قالب واحد من الافكار والآراء والسلوك فإنهم يكونون ذوى أخلاق متجانسة . وإذا تقاربت آراء هؤلاء وأحكامهم بوجه عام فذلك لأن زمرتهم الاجتماعية بتسويتها بينهم جعلت شذوذ اىّ واحد منهم أمراً لا يطاق ، فمن يريد أن يمتاز من جماعته تناصبه هذه الجماعة العداء برمتها .

ولا يخلو استبداد الطبقات الاجتماعية من فائدة كما سنبين ذلك ، فأين يجد أكثر الناس انتحاءهم النفسى الضرورى إذا لم تكن آراء الجماعة التى هم منها وسيرها دليلاً لهم ؟ إنهم بفضل الزمرة التى ينتسبون اليها يملكون طرزاً فى السير والدفع على

شيء من الثبات ، وبفضل هذه الزمرة أيضًا نرى لأرباب الطبائع الهينة وجهة وقراراً فى الحياة .

ويحتوى الناس بانتمائهم الى احدى الجماعات على قدرة لا يحلم بها الرجل وهو منفرد أبداً ، فلم تكن مذابح الثورة الفرنسوية الهائلة صادرة عن أعمال فردية ، وإنما أتى بهـا مقترفوها — من جيروندیين ودانطونيين وهيبريين وروبسبيريين — وهم على شكل جماعات تطاحنت تطاحنًا تجلى فيه ما هو خاص بالجماعات من تعصب أعمى ووحشية شديدة .

٤ — صعوبة التنبؤ بما ينشأ عن الخلق من سير وحركة .

لا يدعينَّ أحدٌ أنه يعرف ذاتًا غير متقلبة اولا تؤثر فيها الاحوال ، وانما الذى يمكنه أن يقوله هو أن الأحوال إذا لم تتغير فان سير الشخص الذى اختبره لا يتغير أبداً ، لا ريب فى أن رئيس القلم الذى أنشأ تقارير صادقة فى عشرين سنة يستمر على إنشاء مثلها بصدقه المعهود ، ولكن يجدر بنا أن لا نؤكد هذا القول كثيراً ،إذ قد تحدث أحوال جديدة — كحرص شديد يستولى على بصيرته أو خطر يهدد شرف أهله أو وطنه — فيصبح مجرمًا أو بطلاً .

وتشاهد تقلبات الذات فى منطقة المشاعر وحدها على وجه التقريب ، وأما فى منطقة الذكاء والعقل فالتقلب ضعيف الى الغاية . فالسخيف يبقى سخيفًا على الدوام ، وتقلبات الذات التى تمنعنا من معرفة أمثالنا معرفة حقيقية أساسية تمنعنا من معرفة أنفسنا أيضًا ، ولذلك كانت حكمة قدماء الفلاسفة القائلة « اعرف نفسك بنفسك » نصيحة يتعذر تحقيقها ،فالذات الظاهرة تكون عادةً ذاتًا خادعة كاذبة ، ليس لان المرء يعزو إلى نفسه كثيراً من الصفات الحسنة دون أن يعترف بأية نقيصة فيـه فقط بل لان الذات وان اشتملت على قسط قليل من العناصر الشاعرة فان اكثرها يتألف من عناصر لاشعورية يمتنع اختبارها .

والطريقة التى يكتشف بها الرجل أمر نفسه هى الفعل والحركة ، فهو لا يعرف نفسه الا بعد ان يختبر سيره فى أحوال معينة ، والقول بأننا نعلم مقدمًا كيف

نسير فى احدى الاحوال المقبلة ليس الا زعماً وهمياً . فعند ما اقسم المرشال (ناى) للويس الثامن عشر أنه سيأتى بنابليون أسيراً فى قفص من حديد كان صادقاً فى يمينه ، ولكن نظرة من سيده نابليون جعلته ينقض عهدهُ ، وقد كانت عاقبة هـذا القائد المنكود الحظ أن أعدم رمياً بالرصاص جزاء جهله حقيقة نفسه ، ولو كان لويس الثامن عشر ذا اطلاع على نواميس علم النفس لعفا عنه على ما يحتمل .

تظهر نظريات الخلق التى شرحناها فى هذا الكتاب متناقضة ، فلقد قلنا مؤكدين إن المشاعر التى يتألف منها الخلق هى على جانب عظيم من الرسوخ والثبات ، ثم اشرنا الى إمكان تقلب الذات ، الا أن هذا التناقض يزول إذا تذكرنا الأمور الآتية وهى :

أولاً : إن الاخلاق تتألف من عناصر عاطفية أساسية لا تتبدل على وجه التقريب ، وينضم اليهـا عناصر أخرى ثانوية تتغير بسهولة كتغير العناصر التى يوجهها مربى الحيوانات فى النوع دون أن يغير صفاته الجوهرية .

ثانياً : إن الانواع النفسية كالانواع التشريحية تخضع للبيئة خضوعاً تاماً ، فهى مضطرة الى ملاءمة مع تقلبات هذه البيئة إذا كانت هـذه التقلبات غير عظيمة أو غير فجائية .

ثالثاً : قد يلوح لنا أن المشاعر نفسها تغيرت عند تطبيقها على مواضيع مختلفة ، مع أن الواقع هو كون طبيعة هـذه المشاعر لا تتغير أبداً ، فاذا انقلب حب الدنيا الى حب الله فى بعض الاحوال فان المشاعر تكون قد بدلت اسمها لا طبيعتها .

ولهذه الملاحظات فائدة عملية ، فهى تعتبر قاعدة لكثير من المسائل المهمة فى الوقت الحاضر كمسئلة التربية مثلاً . لقد شوهد أن التربية تغير الذكاء أو المعرفة الشخصية فاستُنْتِجَ أنهـا تغير المشاعر أيضاً ، فدل ذلك على الجهل بأن الاحوال العاطفية والاحوال الذهنية لا تتطور تطوراً متساوياً ، وبتوغلنا فى الموضوع نرى أن شأن التربية والانظمة السياسية ضعيف فى مصير الافراد والامم .

يظهر أن هذا الرأى المخالف لمعتقداتنا الديموقراطية يناقض ما نشاهده من أحوال بعض الامم الحديثة أيضاً ، وذلك ما يمنع من الاقبال عليهِ بسهولة .

يعترض البارون (موتونو) — سفير اليابان فى بطرسبرغ وأحد اقطاب السياسة

فى الشرق الاقصى المشهورين — علىّ فى مقدمة كتبى المترجمة الى اللغة اليابانية قائلاً إنه طرأ بتأثير الافكار الاوروبية على النفسية اليابانية تبدلات كثيرة ، إننى لا أظن أن تلك الافكار أثرت تأثيراً حقيقياً فى نفسية اليابانيين و إنما تسربت الأفكار المذكورة فى ثنايا الروح اليابانية الموروثة من غير أن تغير شيئاً فى اجزائها الجوهرية ، فإقامة المدفع مكان المخذفة أو المقلاع يحول مصير الامة تحويلاً تاماً ولكنه لا يغير اخلاقها القومية أبداً .

نستنتج من هذا الفصل أن الآراء والحركة لما كانت تنشأ عن علل بعيدة من الارداة والاختيار فان تأثيرنا فيها محدود الى الغاية ، ومع ذلك فسوف نرى أن مكافحة المقادير المستولية على مشاعرنا وأفكارنا أمر ممكن .

الباب الثالث

أنواع المنطق المسيرة لآرائنا ومعتقداتنا

الفصل الأول

تقسيم المنطق

١ — هل للمنطق اشكال متنوعة ؟

لقد اعتبرُ المنطق حتى اليوم فنًا للتعقل والبرهنة ، إلا أن الحياة هى السير وليس البرهان هو المسير ، وسوف نثبت فى هذا الفصل والفصول الآتية أن ما عددناه آنفًا من حدود ودوائر للحياة والنفس خاضع لأنواع منطقية مختلفة ، فلما رأينا أن العمل والحركة هما مقياس المنطق الوحيـد فاننا نعتبر أن المنطق يختلف باختلاف ما يفضى اليه من نتائج متباينة .

فى أى أمر كان يجب على العالم النفسى أن لا يبحث بحثًا منفرداً عن غايته المبتغاة وحدها أوالوسائل التى اتخذت لنيلها أو النجاح بها أو الاخفاق فيها ، إذ الذى يهـم ذلك العالم هو العوامل الموجدة لذلك الأمر ، فاذا وجدت أعمال صالحة أو أثيمة فليس منها ما هو غير منطق ، وانما صدرت هذه الأعمال عن أنواع منطقية مختلفة لا يسد أحدها مسد الآخر ، خذ المنطق العقلى مثلاً تر أنه يختلف فى تفسيره أو اكتناهه للأعمال المذكورة عن المنطق الدينى والمنطق العاطفى ومنطق الجموع .

٢ — أنواع المنطق الخمسة

للمنطق خمسة أنواع على ما أعتقد وهى : منطق الحياة والمنطق العاطفى ومنطق

الجموع والمنطق الدينى والمنطق العقلى ، وسأكتفى الآن باجمالها على أن أخصص بعدئذ فصلاً لكل واحد منها .

منطق الحياة — سنبين الأسباب التى دفعتنا الى وضع هذا النوع من المنطق فى الفصل الذى خصصناه للبحث عنه ، وانما نقول الآن ان منطق الحياة الذى يسيطر على بقاء الأنواع وأشكالها يجرى حكمه بعيداً من تأثير إرادتنا ويأتى بمطابقات تسير بفعل قوى لا نعرف من أمرها شيئاً ، ويظهر أن القوى المذكورة تسير كأنها مالكة لعقل اسمى من عقلنا وأنها غير آلية لاختلاف تأثيرها فى كل آن بحسب الغاية التى ترمى اليها ، فضم منطق الحياة الى ما يهيمن عليه من أنواع المنطق الأخرى يملأ فراغاً أخفته نظريات ما بعد الطبيعة عن العيان .

المنطق العاطفى — لم يعرف علماء النفس فى الماضى سوى المنطق العقلى ، وقد أخذوا فى هذا الوقت يضيفون اليه المنطق العاطفى أو منطق المشاعر الذى يختلف عنه اختلافاً كلياً ، ووجه التباين بين المنطقين هو أن اشتراك الأفكار والمعقولات يكون شعورياً مع أن اشتراك المشاعر هو غير شعورى ، ثم ان المنطق العاطفى يقودنا فى أكثر أعمالنا .

منطق الجموع — يجب أن لا يخلط هذا المنطق بالمنطق العقلى ، فلقد أثبتنا منذ كثير من السنين أن المرء وهو جزء من الجماعة يكون فى سيره غيره وهو منفرد ، وهذا ما يجعلنا نقول انه مسير وهو فى الجماعة بمنطق خاص يتضمن ما يشاهد فى الجموع وحدها من أصول ومبادىء .

المنطق الدينى — المنطق الدينى نتيجة لما فى الانسان من روح دينية ، وهذه الروح التى كانت عامة بين الناس فى القرون الغابرة لا تزال منتشرة على ما يظهر ، ولا أهمية لارتباط الأشياء والحوادث بعضها ببعض عند اولى النفوس الدينية ، فالارتباط المذكور فى نظر هؤلاء ان هو الا أمر يختص بموجودات علوية نعانى عزائمها فقط ، ولا يختلف المنطق الدينى عن المنطق العاطفى بكونه شعورياً اختيارياً فقط بل بتسببه أعمالاً تناقض أعمال المنطق العاطفى مناقضة تامة .

المنطق العقلى — هذا المنطق هو فن التأليف بين الأفكار والتمييز بين ما تشابه

وما اختلف منها ، وعنه وحده على وجه التقريب بحث علماء النفس منذ (اريسطوطاليس) فوضعوا فيه كتبًا عديدة .

٣ — اقتران أنواع المنطق

أنواع المنطق قد تتنضد أو تتحد أو تتعارك فى الأشخاص أنفسهم ، وقد يتغلب أحدها على الأنواع الأخرى بحسب الزمان والشعوب أحيانًا من غير أن يبطل عملها تمامًا .

كان المنطق العاطفي يسوق القائد فى أثينا الى شهر الحرب على خصومه ، وكان المنطق الدينى يدفعه الى استشارة الآلهة فى الزمن المناسب لاجراء حركاته ، وكان المنطق العقلى يملى عليه خططه ، وفى أثناء جميع ذلك كان منطق الحياة يعيّشه .

وستتجلى لنا أوصاف أنواع المنطق فى مباحثنا الآتيـة ، ولـكن لا يطمعن القارىء باكتشاف كنهها فى المباحث المذكورة ، فهذا الـكنه لا يزال مجهولاً حتى كنه المنطق العقلى الذى بحث عنه أكثر من سواه . حقًا اننا لم نستدل على وجود أنواع للمنطق الا بنتائجها . وليس هذا شأنها وحدها بل ان أكثر العلوم دقة كالعلوم الطبيعية مجبورة على الاستناد الى فرضيات ومزاعم تحولت الى حقائق محتملة عند ما اقتضت الضرورة ذلك .

ان مباحث الضياء والنور والحرارة والكهرباء وكل مباحث علم الطبيعة قائمة على « فرضية الأثير » وقد اقتضت الضرورة أن يسند الى هـذا الجوهر المجهول خصائص يتعذر إدراكها والتوفيق بينها كالزعم بأنه اقسى من الفولاذ مع أن الاجسام المادية تسير فيه دون أن تلق صعوبة ، فبعد أن كان علماء الطبيعة يعدون كثافة «الأثير» ألطف من كثافة الغاز كثيراً اضطروا لايضاح احدى الحادثات الجديدة الى القول بأنه ذو ثقل أشد من ثقل المعادن بملايين من المرات .

فاذا كانت العـلوم التى هى على جانب كبير من الصحة كعلم الطبيعة تستعين بفرضيات فاننا لا نعجب من سيرنا على مثل هذا النهج فى علم كعلم النفس أشد تعقيداً من العلوم الأخرى ، فعلماء الطبيعة لا يجزمون بوجود « الأثير » ، وانما يقولون ان

الامور تجرى كما لو كان « الأثير » موجوداً . فلولا الزعم بوجود « الأثير » لاستحال تفسير الحادثات ، ونحن كذلك فاننا لا نجزم بوجود أنواع منطقية ذات كينونات منفصلة ، ولكننا نقول ان الحوادث تجرى كأن هذه الكينونات موجودة فى الحقيقة .

الفصل الثانى

منطق الحيـــاة

---

١ — شأن منطق الحياة

أبسط حوادث الحياة فى الظاهر كالتى تشاهد فى الخلية الواحدة هى على جانب كبير من التعقيد ، فمظاهر هذه الحوادث ارتباط وثيق يشبه ارتباط العناصر العقلية الذى نسميه المنطق ، ولذلك ليس ما يمنعنا من اطلاق اسم المنطق عليها أيضاً

ويسيطر منطق الحياة على جميع الحوادث الجثمانية ، فما تأتى به خليات الجسم من أفعال لم يكن آلياً ويتحول بحسب مقتضيات الزمن ، فكأن هذه الأفعال مقودة من عقل خاص يختلف عن عقلنـــا اختلافاً كلياً . ولاثبات ذلك نكتفى بنقل هذه العبارات التى جاءت فى كتابى المسمى « تطور المادة » واليكها :

« تأتى البُنَى الذَّرِّيَّة التى تصنع الخليات بأعمال نطاسية لا نقدر على الاتيـــان بمثلها بل ولا بمثل هو دونها فى مختبراتنا ، فهى تقدر على تحليل أمتن الأجسام وأصلبها كالكلورور دوسوديوم ، واستخراج الأزوت من الاملاح الأمونياكية والفوسفور من الفوسفات الخ ، تدير هذه الأفعال الغريبة المتجهة نحو أحد المقاصد قوى مجهولة تسير كأنها ذات ذكاء أرفع من ذكائنا ، وما تنجزه القوى المذكورة فى أدوار الحياة من عمل فأسنى جداً مما يقدر أرقى العلوم على فعله ، وسيعتبر العالم الذى يستطيع

أن يحلل بذكائه وسعة عقله ما تقدر خليات أحقر الموجودات على تحليله كالله لسموه على باقي البشر . »

تؤيد أفعال الحياة الجثمانية أنها مضطرة الى التحول حيثما وجدت ، فاذا دخل فى تركيب الموجود شيء غير نافع فانه لا يلبث أن يُزال أو يُنْبَذ ، وأما الشيء المفيد فانه يرسَل الى الاعضاء فيتحول هنالك تحولاً عجيباً ، وتشتبك هذه الأفعال التى لا يحصيها عد من غير أن تتضرر ، ذلك لأنها تسير سيراً هو غاية فى الاتقان والاحكام ، ومتى تقف حركة المنطق الدقيق الذى يدير المراكز العصبية فان الموت يقع لا محالة .

وعليه يجوز تسمية تلك المراكز العصبية « مراكز الادراك الجثمانى » فهى تسير الحياة وتحرسها لايجادها حسب الأحوال عناصر دفاع عن الحياة مختلفة وهى كما قال الدكتور بونيه : « تعلم أحسن من أى عالم من علماء وظائف الأعضاء أو من أى طبيب ماذا يلائم العضو الضعيف من دواء ، وليس شأن العلم الراقى سوى تحريكها عند فتورها . »

ومتى تتطور الخلية على شكل معين أو متى يعتاض الحيوان عن العضو الأبتر عضواً آخر مستعيناً بأعصاب وعضلات وأوعية شريانية فاننا نشاهد منطق الحياة يهيء لمثل ذلك الطارىء الفجائى من الحوادث ما يعجز المنطق العقلى عن تقليده وادراك أمره ، وأيضاً فان منطق الحياة هو الذى يعلم الطائر كيف يطير وكيف يقلب طيرانه حسب الأحوال ، فقد اقتضى مر عصور عديدة على الانسان حتى استطاع بمنطقه العقلى أن يقلد الطائر قليلاً .

وما في أعمال الحياة من ضبط وإحكام وما تفعله كل يوم من التئام بالاحوال ذات التقلب المستمر وما فيها من استعداد للدفاع عن الجسم ضد عوارض العالم الخارجي الفجائية يجعلنا نعد تعبير « منطق الحياة » تعبيراً ضرورياً .

ومنطق الحياة هو الذى ينظم ديمومة الفرد والنوع الذى ينتسب اليه ، فحياة الفرد زائلة ، وحياة النوع وان كانت أطول الا أنها ليست مؤبدة ؛ إذ تدلنا بقايا

الأنواع الجيولوجية على أن هذه الانواع لم تظل باقية حتى اليوم ، بل سبقتها أنواع وعقبتها أخرى ذات دوام محدود .

يظهر أن الأنواع تزول حينما تثقل وطأة ما ورثته عن الأجداد من خصائص فلا تقدر على ملاءمة تقلبات البيئة ، هـذا هو تاريخ عالم النبات وعالم الحيوان كما انهُ تاريخ كثير من الشعوب ، فالنوع أو الفرد أو الشعب فى دور الطفولة يمتاز بمرونة عظيمة يستطيع بها أن يلائم أى تحول فى البيئة ، وأما فى دور شيخوخته فيكون ذا صلابة تمنعه من الالتئام ، وهذا هو السر فى كون أحد الموجودات فى مقتبل العمر يلائم تقلبات البيئـة مع أن هذه التقلبات تقضى عليـه فى دور انحطاطه ، وكذلك فان هذا يوضح لنا لماذا تغيب الشعوب الشائخة عن التاريخ عند ما لا تقدر على التحول .

ولو اقتصر منطق الحياة على تنظيم وظائف الحياة لأغفلنا أمر البحث فيه ، ولكن ما العمل وهو مسيطر على عوامل مهمـة للآراء والمعتقدات والسير والحركة ، ثم لما كانت الحياة دعامة المشاعر فاننا قد نتصور أن منطق الحياة ليس ذا تأثير فى المنطق العاطفى فقط بل أن احد هذين المنطقين مختلط بالآخر ، نقول ذلك ونحن نرى أن المنطقين المذكورين منفصلان وانما منطق الحيـاة هو البقعة التى ينبت عليها المنطق العاطفى .

إذاً ليس عندنا إيضاح كاشف نعالل به سبب انكار منطق الحياة من قبل علماء النفس ، فهذا المنطق هو أهم أنواع المنطق الأخرى لهيمنته عليها فمتى يأمرها تجيبه طائعة .

٢ — الغرائز ومنطق الحياة .

إن (بركسون) وان أصاب فى تفريقه بين الغريزة والعقـل لـكنه لم يصب كبد الحقيقة تمامًا ، إذ يوجد كثير من الغرائز هى عادات عقليـة أو عاطفية تراكمت بالوراثة ، وأما التفريق بين حوادث الحياة بسيطة كانت — كالجوع والحب — أم معقدة — كالتى تشاهد فى الحشرات — وبين الذكاء فصحيح .

والبحث عن بعض الغرائز كثير الصعوبة ولا يتم استقراؤها على شيء من الوضوح الا بترك جميع ما فى كتب علم النفس المزاولة من أفكار ، حقاً يقتضى التسليم بأن الموجودات الدنيا تسير فى بعض الأحوال كما يسير الانسان المسوس من عقل عال وذلك حسب طرق نجهل كنهها ولكننا لا نجحدها لمشاهدتنا لها،ولا تظهر هذه الدراية فى الموجودات التى هى على شيء من التقدم كالحشرات مثلاً بل تشاهد ايضاً فى الموجودات الأولية كالخليات التى لا شكل ولا جنس لها والتى تدل على بزوغ فجر الحياة ، فالخلية المائية أى الكرية التى تكونت بذاتها من حُبَيْبات حية هى بعزمها على مسك قنيصة تأتى بأعمال تناسب غايتها وتتحول بحسب الأحوال كأنها ذات تمييز وإدراك ، وقد صرح (داروين) عندما حقق سعى بعض الحشرات الدقيق فى المحافظة على البُيَيْضَات التى تخرج الديدان منها على شكل غير شكلها « أن التأمل فى هذا الموضوع عقيم » لا شك فى أن نواميس منطق الحياة وقواعده متعذر إدراكها ولكنه يجب علينا ان نحقق نتائجها بضبط ودقة كى نثبت أن هذه النتائج غير صادرة عن قدرة عمياء يعبر عنها بالغريزة

وليس ما هو اكثر بصيرة وحذقاً من سلسلة منطق الحياة ، وكنه هذا المنطق مع كونه لا يزال مجهولاً إلا أن تعيين وجهته سهل هين ، فغايته أن يوجد فى الشخص وسائل ضرورية سواء لبقائه بالتناسل أو لملاءمته الأحوال الخارجية ، والوسائل المذكورة هى من الاتقان والاحكام بحيث لا تبلغها الآمال والهمم ، فقد بين كثير من علماء الطبيعة مثل (بلانشار) و (فابر) الخ دقة أعمال الحشرات وقوة التمييز فيها واستعدادها لتغيير سيرها حسب الأحوال فقالوا إنها تعلم كيف تحول خواص المواد الغذائية التى هيأتها لدوادها حسبما تكون ذكراً أو أنثى ،وأنه يوجد أنواع من الحشرات غير ضارية ولكن لما كان دُوادها لا يعيش الا من الفرائس الحية فانها تشلها على وجه لا تنفسخ فيه حتى تنقب الدُواد البيضَ فتخرج منها وتفترسها ثم يعترف (فابر) بأنه يوجد فى الحشرة — عدا غريزتها التى تدير أعمالها النوعية الثابتة — شيء من الشعور والاستعداد للكمال ، غير أنه لم يجرؤ على تسمية هذا الاستعداد الأولى بالذكاء فأطلق عليه اسم « قوة التمييز » ، ويصدر عما يوصفه (فابر) بكلمة التمييز نتائج يتعذر

على أمهر العلماء وأكثرهم براعة أن يفعل مثليا ، ولذلك قال مستنتجًا : « إن الحشرة بصحوها تلقى العجب والدهش فينا . »

ومثل هذه الحوادث العديدة التى شاهدها العالم (غاستون بونيه) أحد أعضاء المجمع العلمى فى النمـل والنحل جعله يسند الى الحشرات صفة سماها « إدراك الجمع » فقد أبان أن النحل تطيع أوامر « لجنة القفير المدبرة » وتتغير هـذه الأوامر حسب معلومات الباحثين عن طبائع النحل الذين يرودون كل صباح الضواحى والارباض ، ومتى تغادر النحلة القفير فانها تنفذ الأمر تمامًا ، فاذا أرسلتها اللجنة الى تفقد الماء فى حوض وكان يُرش على جانب هذا الحوض شراب أو عسل هدراً فان النحلة لا تلتفت الى ذلك الشراب أو العسل ، والنحل الذى فُوِّض اليه أمر اجتناء رب النبات لا يعبأ بالطلع واللقاح الخ .

وكيان هذه الحشرات الصغيرة الاجتماعى منظم الى الغاية ، قال المؤلف المذكور : « مثل القفير فى نظامه كمثل نظام الاشتراكية الحكوميـة المسوية حيث لا حب ولا إخلاص ولا رحمة ولا إحسان فكل واحد مرغم على الزوح تحت أثقال العمل المتواصل فى سبيل المجتمع »

تلقى تلك الحوادث التى كثرت مشاهدتها بلبلة فى أنصار علم النفس العقلى القديم ، لأن الحوادث المذكورة وإن كانت توضح سابقًا بكلمة الغريزة الا أن التحقيق أثبت أنه ينطوى تحت هذا اللفظ المبتذل سلسلة من الحوادث المجهولة جهلا تامًا ، كانت الغريزة تعتبر فيما مضى صفة ثابتة أنعمت بها الطبيعة على الحيوانات يوم تكوينهـا كى تسيرها فى أدوار الحيـاة كما يقود الراعى قطيعه ، وقد عد (ديكارت) الحيوانات آلات متحركة ، فعلى مافى حركة هذه الآلات من أمر غريب عجيب بدت له كشىء بسيط جداً .

ولكن لما تعمق العلماء فى مباحثهم اعترفوا بتحول الغرائز التى كان يظن أنها ثابتة لا تتحول ، خذ النحل مثلاً تر أنه يقدر على تغيير قفيره عندما تدفعه الضرورة الى ذلك ، وقد جاء فى مذكرة للمسيو (روبو) عرضها سنة ١٩٠٨ على مجمع العـلوم وبحث فيها عن تقـدم الغريزة فى زنابير افريقيا « أن ما بين أنواع تلك الزنابير من

فروق يُمكّننا من أن نستقرىء سلسلة تطور غريزتها التى تتجه — بادئة من الزنابير المنفردة — نحو الزنابير الاجتماعية . »

ومما لاحظناه من حوادث الحشرات نلاحظ مثله فى الحيوانات العليا ، فهذه الحيوانات تستطيع أن تأتى بأفعال يتألف من تدوينها علم راق لو كان المنطق العقلى هو الذى أملاها ، ونعد من تلك الأفعال إدخار الحيوان مايحتاج اليه من قوة شديدة ليطير فى الهواء من غير عناء كما يشاهد فى الصقور والخطاطيف الخ ، فالطيور المذكورة تهبط من ارتفاع كبير مطاردة طرائدها ، ولأجل ذلك تطوى أجنحتها فتنزل الى الأرض على شكل منحنٍ ، وهى تستفيد من القوة الحادة التى نالتها فى أثناء هبوطها عند صعودها ثانية فى الهواء ، ومما يقدر عليه الطير أيضًا هو أن ينال برشاقة ما فى منحدر مجارى الهواء من قوة يلائم بها على الفور تقلبات الجو الفجائية

لا ريب فى أن تعبير منطق الحياة الذى أوجدناه لا يؤدى الآن الى ايضاح حقائق الأمور إيضاحًا كاشفًا ، ولكنه يفيدنا على الأقل باثباته أن جميع أفعال الحيوان التى زُعم أنها غريزية هى بالحقيقة غير ناشئة عن الغريزة العمياء التى حاول العلماء حتى الآن أن يسندوها اليها ، فالعدول عن الشروح الآلية كالتى أتى بها (ديكارت) هو فى الواقع تسليم بوجود عالم نفسي واسع مجهول نكاد لا نبصر منه سوى وميض خفيف .

ومع أن البيان السابق يبتعد قليلاً من مقاصد هذا الكتاب فاننا نعده شيئًا جوهريًا لامناص من الالماع اليه فيه ، فلا يذهب عن بالنا عند البحث فى علل آرائنا ومعتقداتنا أنه يستتر تحت سطح الحوادث الخارجى قوى لم تدركها الأبصار وهى أقوى من عقولنا المسيرة بها فى الغالب .

نلخص هذا الفصل بالكلمات الآتية وهى : إن ظهور منطق الحياة قد تم قبل ظهور أنواع المنطق الأخرى وأنه لاحياة بدونه ، فلو توقف عمله لصارت الأرض بلقعًا كالحًا تتحكم فيه قوى الطبيعة العمياء أى القوى التى ليست عضوية

الفصل الثالث

المنطق العاطفى ومنطق الجموع

---

١ — المنطق العاطفى

قد ميز العلماء منذ وقت بعيد دائرتين فى روح البشر وهما دائرة المشاعر ودائرة العقل ، وأما القول بوجود منطق للمشاعر فقد وقع فى زمن قريب ، وقبل أن نفرق بين المنطق العقلى ومنطق المشاعر نعترف بأن للحياة العاطفية كيانًا مستقلاً عن كيان الحياة العقلية ، فظهور الحياة العقلية قريب فى تاريخ العالم مع أن الحياة العاطفية وما تضمنته من منطق قد سير ذوات الحياة منذ الأجيال الجيولوجيـــة ، وقد عاشت الحيوانات وبلغت غايتها على ما يرام بفعل منطق الحياة والمنطق العاطفى فقط ، خذ الدجاجة مثلاً ترأنها تعرف بعاطفتها كيف تربى فراريجها وتقودها وتعلمها الاقتيات وتكف أذى عدوها عنها .

أيام كان الناس لا يعرفون غير المنطق العقلى كانوا يرون أن العقل هو مصدر مافيهم من ظنون وأفكار ، والواقع أن العقل أصل المسائل العلمية ، وهو قلما يكون سبب الأمور الاعتيادية التى تحدث فى أثناء الحياة اليومية ، فالمنطق العاطفى هو فى الغالب مصدرها ، وكلما أمعنا فى تفهم ما للمبادىء العاطفية من تأثير نتوثق من صحة هذا القول الأساسى ، حينئذ نرى أن أدلاء العاطفة هى غير أدلاء العقل وأن حوادث المنطق العاطفى يرتبط بعضها ببعض حسب قواعد وثيقة بعيدة من المنطق العقلى .

وسيكون شأن المنطق العاطفى الذى استأثرت به أهواء الكتاب الروائيين والشعراء حتى الآن عظيماً فى علم النفس القادم ، فشأن المؤثرات العاطفية فى الحياة هو فى الدرجة الأولى كما قال (ريبو) ، وليست المعرفة رَبَّةً بل أمَةً كما قال هذا الفيلسوف أيضاً .

٢ — مقايسة بين المنطق العاطفى والمنطق العقلى

تبدو أوصاف المنطق العقلى والمنطق العاطفى بالمقايسة بينهما ، فالمنطق العقلى يدير دائرة الشعور ، وأما المنطق العاطفى فانه مستولٍ على دائرة اللاشعور ، وبما أن سلسلة المنطق العاطفى لاشعورية فاننا لا ندرك تطور مشاعرنا الا قليلاً ، فنحن نقود حياتنا العقلية ، ولكن لا سلطان لنا على حياتنا العاطفية .

والمنطق العاطفى والمنطق العقلى كلاهما من الاختلاف بحيث يتعذر إيجاد مقياس مشترك بينهما ، ولذلك يستحيل أن نعبر عن المشاعر بكلمات مصدرها العقل ، وليس المنطق العقلى بمستطيع أن يفهم أو يفسر أو يزن ما يمليه منطق المشاعر من أعمال ، وأما الكلمات التى نحاول أن نشرح المشاعر بها فانها توضح هذه المشاعر ايضاحًا رديئًا ، وإذا تَمَكَّنَتْ من ذلك قليلاً فحسب ناموس الاشتراك النفسى ، فمن تعود ربط المشاعر ببعض الألفاظ تتذكر عند خروج تلك الألفاظ بعض هواجس نفسية عاطفية ، والموسيقى التى هى لسان المشاعر الصادق تذكرنا بالمشاعر أحسن مما تذكرنا بها الألفاظ والكلمات ، ولكن نظراً لخلوها من الضبط فانها لا تكون واسطة ارتباط بين مشاعر الناس الاعلى وجه مبهم .

ويجهل المنطق العاطفى المنطق العقلى ، ولذلك يبتُّ فى الأمور قبل أن يتم الثانى تفكيره ، فهو لا يبالى كالمنطق العقلى بالمعقولات والمتناقضات والأصول والمبادىء .

ويستند المنطق العقلى الى مبادىء مادية مستنبطة من التجربة والاختبار ، فالحوادث الصريحة المجردة التى يسهل قياسها هى قوام تلك المبادىء ، وأما المنطق العاطفى فلا دعامة له سوى مبادىء معنوية أدبية يتعذر قياسها وتقديرها على وجه الضبط والصحة ، وهذا هو السر فى كون هواجس النفس الشعورية الصادرة عن المنطق العاطفى تظل مبهمة غير صريحة على الدوام .

وتشترك الأفكار فى المنطق العقلى حسب قواعد عامة معلومة ، وأما المشاعر فى المنطق العاطفى فانها تجتمع فى الغالب على شكل غير إرادى وبمقتضى نظام دقيق لم نعلم منه سوى شىء يسير . وفضلاً عن ذلك نقول إن بعض المشاعر تولد مشاعر

أخرى لا تلبث أن تمتزج بها ، فالألم يوجب الغم والحب يورث السرور والغضب يولد الميل الى الإنتقام الخ .

ولكون قواعد المنطق العقلى مادية فانها تطبق على صورة واحدة من قبل جميع الرجال الذين بلغوا شأواً من الرقى ، وهذا هو سبب اتفاق هؤلاء الرجال على جميع المواضيع العلمية ، وأما المنطق العاطفى فانه بالعكس يختلف باختلاف الناس ، إذ الناس متباينون فى مشاعرهم ، ولذلك تعذر الاتفاق على جميع المسائل التى تمس المشاعر كالمعتقدات الدينية والأخلاقية والسياسية الخ .

ولما كانت قواعد المنطق العاطفى غير عامة كقواعد المنطق العقلى فان الرسالة التى تؤلف فى منطق أحد الناس العاطفى لا تطبق على الباقين ، وأما رسالة المنطق العقلى فانها ثابتة تشمل الناس قاطبة .

تبين من الملاحظات السابقة أن الأمور الواحدة تختلف بحكم الضرورة عند النظر اليها من خلال المنطق العقلى أو المنطق العاطفى ، فمن الخطإ أن نحكم بالعقل حوادث أملاها منطق المشاعر .

وعلى رغم قلة اطلاعنا على سنن المنطق العاطفى فان الاستقراء يدلنا على بضع قواعد يستعملها أعاظم الخطباء فى أغلب الأوقات ، فبدلاً من أن يقضى اولئك الخطباء أوقاتهم فى تنظيم الأدلة وتنميق البراهين التى هى إن أقنعت لا تؤثر فى السامعين فانهم يحركون بالتدريج ساكن هؤلاء السامعين بضروب المؤثرات التى يتفنون فى تنويعها لعلمهم أن ما يوجبه أحد المحرضات من تأثير لا يلبث أن يهن و ينفد ، وهم باستدراج لبق وكلمات ساحرة وصوت عذب يكوّنون جواً عاطفياً ملائماً لقبول استنتاجاتهم .

والمشاعر لأنها العامل الحقيقى فى أفعالنا فمن الطبيعى أن يقودنا منطقها ، إذ الناس متى هاجت عواطفهم يغيرون سيرهم ومتى كُسِبت قلوبهم يُغلبون على أمرهم ، وأما استفادة الخطيب من المنطق العقلى فهى أنه يرسم به خططاً يرتب بها خطبه .

والمبادىء العاطفية تؤثر فى الصورة التى نتصور بها العالم ، وهى أساس أفكارنا الخلقية والدينية والسياسية والاجتماعية ، وكذلك الحقائق العلمية فان نظرياتها مشبعة من تلك المبادىء

ومن حسن الحظ كون المنطق العاطفى لا يديرنا على الدوام ، فسوف نرى أن المنطق العقلى يقدر أحيانًا على زجر اندفاعاته ، إلا أن هذا الزجر لا يتم بسهولة ، لأن المنطق العقلى لا يزال ضعيفًا على رغم نموه بتعاقب القرون ، ومع ذلك فإن الطريق الطويلة التى قطعها المنطق العقلى تبدو لنا عند البحث عن الهمج الذين استحوذت عليهم المشاعر الخالصة ، إذ تسير هؤلاء الفطريين الذين ليس للمنطق العقلى سلطان عليهم اندفاعاتهم ، فمتى يعضهم الجوع يتدهورون على فريستهم ، ومتى يحتدون على عدوهم ينقضون عليه كالوحوش ، هكذا كان يعيش رجال القرون الخالية الذين عدهم فلاسفة الثورة الفرنسية نماذج يُقتدى بها .

٢ — منطق الجموع

المنطق العاطفى هو إحدى الدعائم التى يستند اليها منطق الجموع ، ولا نبحث الآن عن هذا المنطق ، فسندرسه فى فصل آراء الجموع ومعتقداتها ، وإنما ننبه هنا إلى أنه لا يمكن خلط المنطق العاطفى بمنطق الجموع الذى لا يتجلى الا فى الجماعات والذى قد يؤدى الى أفعال تناقض التى تصدر عن المنطق العاطفى ، وسوف نرى أنه يتألف من روح الجموع مركب خاص لا يعرف المستحيل ولا التبصر وتكون المشاعر فيه مفرطة وفيه يبطل عمل المنطق العقلى .

بيّنا فى هذا الفصل أن المنطق العاطفى — مع المنطق الدينى الذى سنبحث عنه الآن — هو مصدر الحركة فينا ، فالحركة لا تكون الا بالحس ، ومتى نحس يبرز حكم المنطق المذكور ، حقًا لقد سيطر هذا المنطق على جميع الأجيال ، وما تخلص الانسان قليلاً من ربقته الا فى دور قريب ، فالساعة التى يهيمن فيها المنطق العقلى على المنطق العاطفى بدلاً من أن يهيمن هذا على ذلك لم تدق بعد .

الفصل الرابع
المنطق الدينى

---

١ — أوصاف المنطق الدينى

المنطق العقلى هو منطق شعورى يعلم الانسان التعقل والتفكير والبرهنة والاختراع ، والمنطق العاطفى هو منطق لا شعورى يصدر عنه سيرنا ، ولا تأثير للعقل والذكاء فى حلقاته فى الغالب ، وأما المنطق الديني الذى ندرسه الآن فطبقته أعلى من طبقة المنطق العاطفى ، فالحيوانات لا تعرف المنطق الدينى مع أنها ذات مشاعر كثيرة

والمنطق الدينى على رغم كونه أدنى من المنطق العقلى — الذى ينم على درجة راقية فى التطور — مثّلَ بما ولده من معتقدات دوراً عظيما فى تاريخ الامم ، وهو مصدر التأويل والتفسير اللذين — مع أنهما غريبان عن العقل — هما ذوا سلطان على الحركة. ولو حل المنطق العقلى فى الماضى مكان المنطق الدينى لكان سير التاريخ خلاف ماوقع.

والمنطق الدينىّ يرضى كالمنطق العاطفى بالمتناقضات ، ولكنه ليس كالثانى لا شعوريًا ، وكثيراً ما يتضمن شيئًا من التأمل والتفكير ، وبالحركة التى هى مقياس أنواع المنطق يظهر لنا الفرق بين المنطق الدينى والمنطق العاطفى ظهوراً واضحًا ، فالمنطق الدينى يسوق الانسان الى مالا يسوقه اليه المنطق العاطفى من أعمال تناقض اكثر منافعه صراحة ، ومن يتصفح تاريخ الامم السياسى أو الدينى ير أمثلة كثيرة على ذلك.

قد يعترض عند مطالعة تاريخ الحوادث المذكورة التى أدت الى اختفاء كثير من الأحوال العاطفية كالحياء وحب الأبناء بأن يقال ان هذا الاختفاء ينشأ عن حلول مشاعر مكان أخرى ، ولكن ما هى علة هذا الحلول ؟ يقتضى أن لا يبحث عنها فى المنطق العقلى لأن العقل لا يشير علينا بان نفعل تلك الأعمال ، وكذلك يجب أن لا يبحث عنها فى المنطق العاطفى ، إذاً تلجئنا الضرورة الى الاستعانة بمنطق آخر يسمى المنطق الدينى ، وما بين المنطق الدينى والمنطق العاطفى من فروق سيتجلى لنا على وجه أوضح من ذى قبل عندما نفحص شأن المنطق الدينى فى تاريخ الحضارة .

ويقوم فى المنطق الدينى مقام العلل الطبيعية — التى سلم بها المنطق العقلى — عزائم موجودات أو قوى علوية تجب خشيتها ومداراتها لأنهـا ذات أهواء وتأثير فى جميع أفعالنا ، وتشاهد قوة المنطق الدينى على الخصوص عنـد أولى النفوس التى أصيب فى تسميتها بالنفوس الدينية ، فالنفسية الدينية تتجلى فى الشخص باسناده قدرة سحرية لا تأثير للعقل فيها الى موجود أو شىء معين أو قوة مجهولة ، وتختلف نتائج هذه النفسية بحسب النفوس ، فهى عند بعضهم دعامة لمعتقدات دينية معلومة تتراءى لهم أنها صادرة عن شىء يقال له ألوهيات ، والقوى العلوية هى عند آخرين أمر مبهم ولكنها ذات سلطان وقدرة ، وحينئذ تبدو روح التدين فى هؤلاء على شكل احدى الخرافات أو الاساطير ، ولذلك نقول ان الملحد متدين كالتقى الورع وفى الغالب يكون أشد تديناً منه.

يستدل على الروح الدينية في الانسان بعزوه الى تميمة أو تعويذة أو عدد أو ماء أو حجر أو ذخيرة خصائص خارقة للمادة ، ويستدل عليها أيضاً بأسناده الى الانظمة السياسية أو الاجتماعية قوة قادرة على تحويل الرجال ، وخلق التدين وإن كان على الدوام يتبدل شكلاً الا أنه لا يغير شيئاً من جوهره الذى ينسب به شأناً عظيما الى بعض القوى الحافلة بالاسرار ، فاذا تغير موضوع التدين بفعل الزمان فان خلق التدين لا يتبدل أبداً .

ولا يبالى خلق التدين بالنقد مهما يكن صائباً ، ولذا يورث فى النفس سذاجة لاحد لها ، فالذين يلقبون أنفسهم بأحرار الفكر لنبذهم قواعد الدين يعتقدون الشعور بالأمور قبل وقوعها أو يعتقدون الفؤول والطوالع أو يعتقدون ما فى حبل المصلوب من قدرة سحرية أو يعتقدون شؤم العدد الثالث عشر ، فالعالم في نظرهم يشتمل على كثير من الاشياء التى تحمل معها سعادة أو شقاء ، وليس بين الناس مقامر لا يؤمن بهذا المبدإ ايماناً قاطعاً .

ولما كان ايمان المعتقد لا نهاية له فان المستحيلات العقلية لا تؤثر فيه ولا يخرق العقل والتجربة والاختبار حجابه أبداً ، وكذلك حبوط الآمال لا يضعضعه لجعله المرء يعتقد أن القوى الخارقة ذات الاهواء والأغراض لا تسير حسب ناموس معين ، وكلما تقـدم الانسان فى سلم الحضارة تتحدد روح التدين العامة عند الهمج

بالتدريج وتنحصر فى بضعة مواضيع يؤمن بها الرجل المتمدن ايمان الرجل الفطرى أى ايماناً لا تزعزعه الأدلة والبراهين العلمية ، وبهذا الامر المشاهد ندرك السبب فى تسليم بعض أفاضل العلماء بعقائد صادرة عن السحر والتنجيم .

ولا ريب فى أن مبتكرات العقل تعجز عن زلزلة خلق التدين لالتجاء هذا الخلق على الدوام بعالم الآخرة الذى يتعذر على العلم أن يقتحمه ، ولذا كان عدد الذين يرغبون فى الآخرة عظيماً الى الغاية .

٢ — خلق التدين أساس المعتقدات

خلق التدين هو البقعة التى تنبت فيها المعتقدات الدينية والسياسية وغيرها ، وتشاهد نتائج هذا الخلق على الخصوص عند الهمج ، فلما كان لا علم لهؤلاء بسنن الكون فانهم يعيشون فى عالم مفعم بالأرواح التى تجب قراءة العزائم عليها بدون انقطاع ، ويتوهمون على الدوام أنه يوجد خلف كل حقيقة ظاهرة قدرة خفية تسببها ، وأما الرجل المتمدن فذو معتقدات أرقى من تلك ، لأنه مشبع بتأثير التربية من المبدإ القائل بوجود نواميس ضرورية فى عالم الطبيعة لا يستطيع ان ينكرها ، الا أنه يعتقد أنه بصلواته يتمكن من جعل قوى ما بعد الطبيعة توقف عمل تلك النواميس ، فعلى هذا الوجه يجتمع المنطق الدينى والمنطق العقلى أحياناً فى نفس واحد من غير أن يؤثر أحدهما فى الآخر .

وما فى المؤمن الحقيقى من سرعة التصديق فلا حد له بوجه عام ، وأعظم المعجزات لا تلقى فى قلبه حيرة ، إذ لا نهاية لما يعزوه الى الله من قدرة .

يُرى فى كنيسة (اوڤيدو) صندوق يقول الاعلان الذى وُزّع على زائريها انه جيء به بغتة من مدينة القدس بواسطة الرياح وانه يحتوى على « لبن من لبن أم يسوع المسيح وشعرات مسحت بها القديسة هيلانة رجلى مُخَلِّص العالم والعصا التى فلق بها موسى البحر الأحمر وجفير القديس بطرس الخ » فهذه الوثيقة التى هى واحدة من ألوف من الوثائق المماثلة تثبت لنا كيف أن العقيدة الدينية شديدة التأثير ، ونعد من نوع الوثيقة المذكورة بقية جسد أحد القديسين الموضوعة فى صندوق ذهب محفوظ فى احدى الكنائس العظيمة وحبل المصلوب ، فعلينا أن ننظر الى تلك الوثائق بعين

مغضية وقلب سمح ، ذلك لانها وليدة آمال السعادة أولاً ولكونها صادرة عماقى النفس من احتياجات متأصلة ثانياً .

واذا نظرنا الى المنطق الدينى من خلال جميع عناصر الحياة الاجتماعية فاننا نراه ذا تأثير فى الفنون والآداب والسياسية وصنعة الشفاء ، فما الدور الوائى الا أحد مظاهره ، وليس عند أرباب الفن سوى عقائد دينية تجعلهم لا يعبأون بطرق التحليل العقلى ، ويتجلى تأثير الروح الدينيـة فى عالم السياسة على الخصوص ، فالأحزاب الرديكالية واللاإكليروسية والمتطرفة تعيش على جانب عظيم من التدين .

ولا تزال البقاع التى ارتادها العلم محدودة الى الغاية مع أنه لاحدّ لرغباتنا. ولاشك فى أن سيطرة المنطق الدينى على البشر ستمتد زمناً طويلا بعد ، فهو بايجاده القوانين والعادات والاديان قد ولد جميع الأوهام التى سيرت النوع الانسانى حتى يومنا هذا ، وهو من القوة بحيث يقدر على جعل الخيال حقيقة . وبتأثيره عرف ملايين من الرجال الفرح أو الالم ، وما فى العالم من مثل عليا فصادر عنه .

الفصل الخامس

المنطق العقلى

١ — عناصر المنطق العقلى الأساسية

قد أُلِّفت للبحث عن المنطق العقلى مؤلفات كثيرة ذات فائدة قليلة ، والذى يجعلنا نتكلم عنه فى هـذا الكتاب هو أولاً إنه يمثل أحياناً فى تكوين الآراء دوراً لا بأس فيه ، وثانياً لبيان وجه الفرق بينه وبين أنواع المنطق الأخرى التى بحثنا عنها فى الفصول السابقة ، وسنباشر بيان بعض العناصر التى يستند اليها المنطق العقلى فى عمله وهى : الارادة والدقة والتأمل .

الارادة — الارادة هى صفة يعزم بها الانسان على الاتيان بعمـل ولها ثلاثة أطوار : التفكير والقصد والتنفيذ . واذا انعمنا النظر فيها نرى أنها تصدر عن العقل

والعاطفة معاً ، فهى تنشأ عن العاطفة لأن جوهر بواعث العمل فى الانسان هوالعاطفة وهى تنشأ عن العقل لأننا بفضل الدقة والتأمل نمزج فى روحنا صوراً نفسية يقدر بعضها على ابطال عمل البعض الآخر .

وخلافاً لما جاء فى كتب علم النفس نقول ان الارادة قد تكون شعورية وقد تكون لاشعورية ، وأقوى العزائم واشدها هى اللاشعورية ، فهى التى لا يملك الحيوان وأكثر الناس سواها ، واذا صعب علينا مشاهدة شكل الارادة اللاشعورية فذلك لأن العقل يتدخل على الفور كى يوضح ما تنجزه تلك الارادة من أعمال ايضاحاً يجعلنا نتصور أنه هو الذى سبب تلك الاعمال .

ويرى (ديكارت) — وقد شاطره كثير من الفلاسفة فى الوقت الحاضر رأيه — أن للارادة كياناً غير كيان العقل هو أصل معتقداتنا ، فالاعتقاد عند (ديكارت) هو ارادة التسليم بمبدإ يمليه العقل أو انكار ذلك المبدإ ، وسوف انقض هذه النظرية التى لايزال أكثر الفلاسفة يناضلون عنها فى هذا الكتاب بأن أثبت أن المعتقد لايكون ارادياً أصلاً .

ويقترب (اريسطوطاليس) من المبادىء المشروحة هنا أكثر من (ديكارت) ذلك لأنه بنى نظريته فى علم النفس على التمييز بين الصفات العاطفية والصفات العقلية ، ثم قال ان الارادة تظهر من مزج هذين الطرفين أحدهما بالآخر ، فعلى هذا الوجه تكون الارادة معلولة لا علة ويكون (اريسطوطاليس) اقام العاطفة أمام العقل مع أن (ديكارت) اقام الارادة أمامها .

الدقة — الدقة هى أن يحصر المرء ذهنه فى شىء واحد أو فى شكل هذا الشىء الواحد أو فى ما ينشأ عنه من بوادر فيجرد منه الموضوع الذى يهمه .

وقد عَدَّ كثيرٌ من المؤلفين الدقة وجهاً من وجوه الارادة ، فهى على رغم كونها خاضعةً للارادة ليست متحدة بها ذاتاً ومعنى ، وكذلك لا يجوز خلط الدقة بالعقل الذى لم تكن الدقة سوى عنصر يستعين به .

تطبع الأشياء التى تحيط بنا طابعها على حواسنا ، فلو تم شعورنا بجميعها شعوراً متساوياً كآلة الفوطوغراف مثلا لاشتمل دماغنا على صور كثيرة لا فائدة فيها ،

ولكننا بفضل دقتنا لا ندرك الأشياء الا بنسبة احتياجنا ، وذلك بأن نحصر ذهننا فى أحد المواضيع .

ويتصف الحيوان بالدقة أيضًا ، ولكن دقته غير ارادية مع أنها قد تكون فى الانسان ارادية ، وينشأ عن نمو الدقة فى الرجل زيادة فى قدرته العقلية ، وعلى نسبة الدقة فى المرء يعظم عقله ، فلولا دقة (نيوطن) العظيمة لما ذاع صيت (نيوطن) واذا تجلت عبقرية هذا الرجل بغتة فذلك بعد دقة صابرة وتأمل مديد .

التأمل — التأمل يورث التعقل فى الانسان ، وهو عبارة عن قدرة الانسان على أن يستحضر — مستعينًا بفعل الدقة — الصور النفسية المشتقة من الاحساسات أو الألفاظ التى تنم على تلك الصور ، حينئذ يمكن مزجها والمقايسة بينها واستخلاص احكام منها ، وبالطريقة المذكورة لا نعلم الأشياء ذاتها بل نقف على ما بين هذه الاشياء من علائق ، الامر الذى هو غاية ما يسعى اليه العلم ، وقابلية التأمل تتضمن قابلية الدقة ، فضعف هذه يستلزم ضعف تلك ، وبالتأمل يتعقل الانسان كما ينبغى بشرط أن لا يتدخل المنطق العاطفى والمنطق الدينى فى الامر ، فمتى يتناول المعتقد المواضيع التى يراد تعقلها فان التأمل يخسر ما فيه من استعداد للنقد

٢ — شأن المنطق العقلى

العمل الأساسى للمنطق العقلى هو أن يؤلف هذا المنطق — مستعينًا بالتأمل وبالطريقة المشروحة آنفًا — بين الصور النفسية أو الكلمات التى تعبر عنها وقد عُدَّ أساس معتقداتنا زمنًا طويلاً مع أننا نرى أنه لم يكن سبب أى معتقد منها، وانما الشأن الذى قد يكون له هو أنه يُتمُّ زعزعة المعتقدات بعد أن يكون الدهر قد أكَلَّ قواها ، وعلى ما للمنطق العقلى من شأن هو كالمعدوم فى تكوين المعتقد فانه ذو شأن كبير فى تأليف المعرفة ، فهو الذى أقام صرح العلوم واليه تستند الصناعات الحديثة فى تقدمها .

إذاً لا يجوز لنا أن نبالغ فى بيان قدرته ، ولكن يجب أن نعلم الحدود التى لم يتجاوزها بعد ، فهو ليس ذا سلطان على حوادث الحياة والخواطر ، ولم يضىء من هذه الحوادث ذات الجرى والانصباب سوى شىء قليل مشكوك فيه ، وقد انحصرت دائرة عمله فى المادة التى استقرت موقتًا بفعل الموت أو الوقت .

ولما رأى العلماء أنهُ لا شريك للعلم فى سيطرته على دائرة المعرفة ظنوا منذ أمد بعيد أن المنطق العقلى الذى هو مصدر العلم ينفع لايضاح تكوين المعتقدات وتطورها، وقد استمر علم النفس على هذا الضلال قروناً عديدة ، الا أنه الآن على وشك الخروج من ضلاله ، فقد دل الاختبار على أن الموجودات تتحرك وتسير قبل أن تعقل وتدرك ، ولذلك فهى مقودة فى أعمالها بأنواع منطقية أخرى ، وكلما أمعنا فى هذه الحقيقة التى أرجع اليها فى الغالب لحداثة ظهورها نرى أن شأن المنطق العقلى ثانوى فى حياة الأفراد والأمم .

لم يكن التعقل والإدراك أمرين ضروريين للسير والحركة ، فأدنى الحشرات تسير كما يقتضى من غير أن تهتم بمنطقنا ، والعقل والادراك هما فاعلان فى الموجودات مستقلان عن فاعل السير ، وكثيراً ما يزجران هذا الفاعل عن العمل بدلالتهما على أخطاره .

وبفضل ما فى الناس من اندفاعات عاطفية ودينية يسيرون غير مطلعين على كيفية تكوين أعمالهم ، ومن العبث أن نؤثر فيهم بقوة الدليل العقلى ، إذ إنهم لما فيهم من إدراك قليل يسخرون من كل من ليس على طريقهم ، وما مثل الذى يحاول أن يُدخل الى قلوبهم شيئاً من الأفكار العقلية الا كمثل الطفل الذى يسعى فى إدخال عضو كبير فى قمع الخياط ، فعلى من يود أن يلزم الأفراد والشعوب ببعض الحقائق العقلية أن يزن قبل ذلك كفاءتهم الدماغية .

وشأن المنطق العقلى فى سياسة الشعوب ضئيل جداً ، ولا يتجلى هذا الشأن الا فى الخطب ، فالمشاعر لا العقل هى التى تسير الأمم وتقيمها وتقعدها ، وسوف نرى فى باب آخر أن المنطق العاطفى هو الذى يخرج على الدوام ظافراً فى الصراع بينه وبين المنطق العقلى . قال ريبو : «القول إن الفكر المجرد الجاف العارى من مسحة عاطفة كالقضية الهندسية ذو تأثير فى سير الناس هو زعم نفسى عقيم باطل . » فالوقت الذى تستولى فيه براهين الفلسفة على العالم لا يزال بعيداً ، وانما المعتقدات التى يستخف بها المنطق العقلى هى التى قلبت العالم مرات كثيرة دون أن يقدر هذا المنطق على مقاومتها

٣ — ظهور المنطق العقلى متأخراً بفعل الانسان ضد الطبيعة .

أشرت سابقاً الى أن المنطق العقلى هو آخر أنواع المنطق ظهوراً وأن هذه الأنواع كفت لقيادة الموجودات والأجيال الجيولوجية حتى الوقت الحاضر على وجه التقريب .

ليس المنطق العقلى من عمل الطبيعة بل من عمل الانسان ضد الطبيعة ، فلايجاد الانسان ذكاءه وعقله فى شخصه قد أخذ بالتدريج يعانى قوى الكون أقل من ذى قبل ويستعبد هذه القوى كل يوم ، ومن كان فى ريب من كون الانسان لا الطبيعة موجدَ المنطق العقلى فليلاحظ أن ما يبذله من مجهود فلمقاتلة حوادث الطبيعة على الخصوص .

والطبيعة لا تبالى بمصير الفرد أبداً ، وانما تعتني ببقاء النوع ، فجميع الموجودات عندها سواء ، وما تبذله من همة فى المحافظة على أشد المكروبات إيذاءً هو كالعناية التى تبذلها للمحافظة على اكثر الناس عبقرية ، فبالمنطق العقلى الذى اكتسبناه استطعنا أن نكافح سنن الكون الجائرة وكثيراً ما تم لنا النصر فى هذا الكفاح ، وقد انحصرت معاناتنا لتلك السنن فى الأمور التى توقفت معرفتنا عند حدها ، فاليوم الذى نكتنه فيه منطق الحياة والمنطق العاطفى هو اليوم الذى نتغلب فيه على هذين المنطقين ، وحينئذٍ يملك الانسان ما يعزوه الى آلهته القديمة من قدرة وسلطان .

والعلم لا يزال بعيداً من تحقيق تلك الأمنية ، فمع دنوه كل يوم من قدرة الطبيعة المقدرة فانه مرغم على معاناة هذه القدرة بملاءمتها ، ولربما كانت هذه القدرة الكبيرة أعظم مما يظنه العلم ، فنحن نخضع لحكم الطبيعة ، ولكن ألا تخضع الطبيعة نفسها لوجوب ينظم القدر وتذعن له الآلهة ؟ لم تكن الفلسفة من الرقى بحيث تجيب عن هذا السؤال .

الباب الرابع
العراك بين انواع المنطق

الفصل الأول

التصادم بين المبادىء العاطفية والمبادىء الدينية والمبادىء العقلية

١ — العراك بين أنواع المنطق فى الحياة اليومية

عبرنا عن عوامل الآراء والمعتقدات بأنواع المنطق المختلفة وقد بينا أوصافها فى الفصول السابقة ، ونظراً لما بين هذه الأنواع من الاختلاف فانها فى الغالب تعترك ، فكيف يُفصل هذا العراك ؟

لا يبدو العراك المذكور فى الواقع الاَّ على وجه استثنائى ، إذ يوجد فى الحياة اليومية توازن بين ما تناقض من اندفاعات أنواع المنطق ، ويرضي مزاجنا النفسى بأن يسيطر عليه أحد تلك الأنواع بحسب الوقت والبيئة والأحوال ، وليس هذا التوازن اندماجًا لانواع المنطق بعضها فى بعض ، بل هو عبارة عن تنضدها على أن يحافظ كل منها على تأثيره وعمله .

و بتراصف أنواع المنطق المختلفة فى المرء نفسه نجيب عن سؤال مهم وهو كيف أن أرباب العقول النيرة الذين تعودوا أساليب العلم وطرقه الدقيقة يؤمنون بمعتقدات دينية أو سياسية أو سحرية أو غيرها من المعتقدات التى ينهزم جيشها أمام المنطق العقلى الخالص ؟ حقًا يسهل الجواب عن ذلك ، فالمنطق العقلي هو دليل هؤلاء الارباب فى مبادئهم العلمية ، وأما فى معتقداتهم فانهم ينقادون لقواعد المنطق الدينى أو المنطق العاطفى : والعالم ينتقل من دائرة المعرفة الى دائرة المعتقد كما ينتقل من

مسكن الى آخر ، واذا ذهب فى الغالب ضحية الخطإ فذلك لمحاولته أن يطبق فى تفسير مظاهر المنطق الدينى أو العاطفى من معتقد وغيره تفسيراً علمياً مناهج المنطق العقلى .

ومتى ينقطع التوازن بين أنواع المنطق فانها تعترك ، ويندر أن يغلب المنطق العقلى فى ذلك العراك ، إذ يسهل التنكيل به واستعباده من قبل بعض المبادىء الصبيانية ، وهذا هو السبب فى كون الدليل العقلى لا ينفع فى أمر المعتقد دينياً كان أم سياسياً أم اخلاقياً ، ولا تفعل اقامة الحجة العقلية على رأى مصدره العاطفة أو التدين سوى استفزاز رب الرأى المذكور وتهييجه ، وكذلك المرء لا يستطيع بعقله أن يتغلب على رأى فيه ناشىء عن المشاعر والعقيدة الا اذا بلغ هذا الرأى من البلى والدروس مبلغاً ذهب بقوته .

ولا تتجلى لنا نتائج العراك بين المنطق الدينى والمنطق العقلى الا بالمثل الذى ضربه (باسكال) وفحصناه تفصيلاً فى فصل آخر ، فمن العبث أن نطنب الآن فيها

وسنقتصر فى ما يلى على البحث فى تصادم المنطق العاطفى والمنطق العقلى ، فأيضاً هذان الطرفان ليسا متكافئين قوة ، وانما يستطيع العقل فى أثناء ذلك التصادم أن يسلط بعض المشاعر على الأخرى متذرعاً بأنواع الحيل كى يتمكن من التغلب على التي يود قهرها .

٢ — التصادم بين المبادىء العاطفية والمبادىء العقلية . تأثير الافكار فى المشاعر

تؤثر المشاعر التي تقود الانسان فى أفكاره كثيراً مع أن هذه لا تؤثر فى تلك الا قليلاً ، وليس الفكر سوى نتيجة أحد المشاعر التي تطورت تطوراً غير شعورى مجهول لدينا .

وعلة كون العقل لا يؤثر فى المشاعر هى أن حياة المشاعر خافية علينا ، واذا أردنا أن نعرف درجة تطور مشاعرنا على وجه لا تأثير لارادتنا فيه فلننعم النظر فى أنفسنا ، حينئذ نرى أنها تنبت نباتاً ريّاً متباطئاً كالنبات الذى أجاد فى وصفه الشاعر الفيلسوف (سوللى برودوم) فى قصيدته المشهورة التي عنوانها « الاناء الكسير » .

فالكلمة أو الاشارة الواحدة التي لا أهمية لها عند صدورها تستطيع على مر الأيام أن تحول الصداقة الى ضدها .

وشأن العقل فى المشاعر التي يتكون الخلق منها هو أن يفصلها بعضها عن بعض وأن يحركها باحدى الصور النفسية وأن يجعلها على هـذا الوجه قادرة على كبح شيء من اندفاعاتنا ، وهو بذلك يرفع الرجل ولو موقتاً الى درجة أعلى من درجته .

اذاً يقـدر العقل بتأليفه بين المشاعر والمعقولات أن ينتفع بالمشاعر انتفاع البناء بالحجارة التي يعرف أن يقيم بها نفسها مباني شتي ، وليس تأثير العقل فى المشاعر لا حد له بل يظهر أنه محصور ، لأن الاختبار يدلنا على أن العقل يفقد سلطانه عند ما تكون المشاعر شديدة ، وقد تصل بعض المشاعر فى قوتها الى حد لا يستطيع العقل وأكثر منافع المرء وضوحاً أن يؤثرا معه فيها ، وسنورد أمثلة كثيرة على هذا الامر فى فصل المعتقدات .

لا تتحول المشاعر مباشرة الى أفكار ولكنها تولد أفكاراً لا تلبث أن تستدعى مشاعر ، فكلا الطرفين مع محافظتهما على استقلالهما يؤثر أحدهما فى الآخر تأثيراً متواليًا ، وعلى ذلك فان الافكار ذات تأثير لا يسعنا انكاره فى حياتنا الفردية والاجتماعية ، وهذا التأثير لا يتم أمره الا اذا استندت الافكار الى دعائم عاطفية .

ولما كانت المشاعر مصدراً للافكار فان ما يقع بين الافكار من عراك هو بالحقيقة يقع بين المشاعر ، والشعوب التي يظهر أنها تتقاتل من أجل بعض الافكار هى تتقاتل فى الواقع من أجل بعض المشاعر التي تشتق منها تلك الافكار .

وتفقد أحوال الانسان العاطفية قوتها لا ذاتها إذا لم تسمح له الفرص باظهارها كما تفقد الاعضاء قوتها لعدم تمرينها ، على هذه الصورة توارت فى انكلترا وفرنسا صفات الاشراف الخلقية التي كانت ضرورية للقيام ببعض الوظائف عند ما أُلغيت هذه الوظائف ، وإذ لم تنم تلك الطبقات التي خسرت صفاتها الخلقية ذكاءها أصبحت دون ما كانت سائدة له من طبقات أخرى ، ويظهر أن هـذا الناموس الذى يجهله مربُّونا كثيراً والقائل ان المشاعر التي لم تمرن تنفصم لناموس عام ، فتاريخ الامم حافل

بالامثلة المؤيدة له ، ومن تلك الامثلة كون غرائزنا الحربية التي نمت كثيراً أيام الثورة الفرنسوية وفى الدور الامبراطورى لم تلبث بعد هذين الدورين أن أخذت تتقلص فاسحة مجالاً لمذهب سلمى داع الى نزع السلاح منتشر كل يوم بين الجموع حتى بين العقلاء ، وقد نشأ عن ذلك التضادُ الآتى وهو : كلما صارت الشعوب سلمية أمعنت حكوماتها فى التسليح .

وسبب هذا الشذوذ الظاهرى هو أن الافراد يخضعون لحكم أثرتهم الشخصية مع أن الحكومات مرغمة على الاهتمام بمصالح المجتمع ، فالحكومات بما نالته من تجارب واختبارات متتابعة تعلم أكثر من الجموع وخطباؤها أن الامم التى تهن لا تلبث الامم المجاورة لها [1] أن تغزوها وتستولى عليها وهذه سُنَّة قد أجرت حكمها على جميع الامم حديثة كانت أم قديمة ، فالبولونيون والمصريون والترك والصرب الخ لم يتجنبوا ما ينتج عن غزوات الشعوب الاخرى من تخريب الا بتنزلهم عن جميع أراضيهم أو عن جزء منها .

يحدث تطور المشاعر الذى أشرنا الى بعض نتائجه بفعل كثير من المؤثرات ، ونعدّ من هذه المؤثرات البيئة على الخصوص ، فالانسان كى يلائم البيئة مكره على تنويم قسم من مشاعره والانتفاع بقسم آخر يجعله التمرين قوياً متيناً ، والتمرين المذكور لا يكون إلا بالتربية التي تهتم بانماء صفات الخلق الاساسية ولا سيما ملكة الاستنباط والشجاعة والارادة وغيرها من الصفات التى تعارضها مشاعر أخرى ، فالخوف من التبعة يلاشى ملكة الاقدام ، ويزول الاخلاص لمنافع المجتمع فى الحال اذا قُيِّدَ بالأثرة الشخصية الخ .

---

(١) لقد أوضح رئيس الوزارة الالمانية هذه الحقيقة فى خطبة ألقاها فى شهر مارس سنة ١٩١١ أمام (الرخستاغ) واليك بعضها :

« ان مسئلة نزع السلاح هى عند كل خبير مجرب مشكلة يتعذر حلها مادام الانسان انساناً والدول دولا ، فهما يفعل الضعاف فانهم سيكونون فريسة الأقوياء لا محالة ، والشعب الذى لا يريد أن ينفق على تسليح نفسه ينزل الى الدرجة الثانية كى يحل مكانه شعب أقوى منه »

٣ — تنازع المشاعر . العوامل الزاجرة

جميع من هم على الفطرة من همج وحيوان يميلون الى السير بغرائزهم ، ولكن متى عاش الهمج فى قبيلة واصبح الحيوان داجنًا فان الضرورة تلجئهم الى زجر بعض تلك الغرائز ، ولا يكون هذا الزجر الا بجعل بعض مشاعرهم القوية — كالخوف من العقاب والطمع في الأجر — تقاتل مشاعرهم الأخرى المندفعة ، والقدرة على قهر الاندفاعات العاطفية هى عنصر أساسي للحضارة ، فلولا هذا العنصر الذي هو ركن الاخلاق الركين لكانت الحياة الاجتماعية مستحيلة .

وليست العوامل الزاجرة التي تثبت العاداتُ وعلمُ الأخلاق والقوانينُ أمرها كناية عن عراك بين المشاعر والعقل بل هى كما بينتُ آنفًا عبارة عن صراع بين ما يتقابل من المشاعر بفعل العقل ، ولم يكن للقوانين المدنية او الدينية غاية سوى التأثير فى مظاهر بعض المشاعر تأثيراً رادعًا

وكل حضارة تتضمن ضغطًا وقسراً ، فالفطرى عند ما تعلم بتأثير ناموس العقود الاجتماعية الأولى كيف يرد جماح اندفاعاته قليلاً تحرر من طور الحيوانية ودخل فى طور انسانى متأخر ، ولما أكره على ردع نفسه أكثر من ذى قبل دخل فى طور الحضارة التى لا تقوم إلا بكبح الانسان نفسه .

ويتطلب الضغط المذكور سعيًا مستمراً ، ويتعذر استمرار هذا السعي إذا لم يسهل أمره كأن يصير لا شعوريًا بفعل العادة التى ثبّتتها التربية ، ومتى أصبح الوازع النفسى على شيء من التقدم فانه يحل مكان الوازع الخارجى ، ولكن إذا لم يستطع الرجل أن يجعل لشخصه وازعًا نفسيًا فعليه أن يذعن للوازع الثانى ، فلو تجرد الانسان من هذين الوازعين لرجع الى طور الهمجية الأولى ، نعم ان المشاعر هى التى تقودنا غير أن المجتمعات لا تعيش إذا لم يتعلم أفرادها الحدود التى يجب على مشاعرهم أن تقف عندها والتى يؤدى تجاوزها الى الفوضى والانقراض .

ولا تقل ان المشاعر التى ردعتها مقتضيات الاجتماع المدونة فى القوانين عفا أثرها ودرس رسمها ، فمتى تفلت هذه المشاعر ذات الاندفاع من ربقة الزواجر تظهر من عالم الخفاء ، وهذا هو سر المظالم التى تقترف أيام الثورات حيث يصبح المتمدن متوحشًا

الفصل الثانى

المراك بين أنواع المنطق فى حياة الأمم

١ — نتائج كسر الزواجر الرادعة للمشاعر فى الحياة الاجتماعية

إن وجوب زجر المشاعر التى تضر المجتمع بمشاعر أخرى ثبت أمرها بالتربية وعلم الأخلاق والقوانين هو مبدأ الحياة العامة الأساسى كما ذكرنا ، ولا تتحرر المشاعر التى عانت البيئة الاجتماعية فى ردعها ما عانته من المصاعب من غير أن ينشأ عن ذلك فوضى ، ومن العلائم الاولى لهذه الفوضى هى كثرة اقتراف الجرائم كما نشاهده الآن فى فرنسا ، والذى يساعد على زيادة اقتراف الجرائم على الخصوص هو انتشار مذهب الانسانية الذى يشل حركة إنزال العقاب ويسير بالناس الى كسر جميع الروادع .

ويقاسى نظامنا الديموقراطى الحاضر بالتدريج نتائج إبطال تلك الروادع التى هى وحدها تقاوم ما فينا من مشاعر منافيـة للاجتماع ، فالحقد على الافضليات والحسد اللذان هما أشد ما أصيب به ذلك النظام من آفات يشتقان من هذه المشاعر المضرة الخطرة التى لا تموت فى الانسان أبداً وإن صعب ظهورها فى مجتمعات الماضى ذات المراتب المتسلسلة .

والمشاعر المذكورة التى أخذت تنتشر فى الوقت الحاضر بتحريض بعض الساسة الطامعين فى نيل حظوة عند الجمهور وخريجى الجامعات الساخطين على نصيبهم تجرى حكمها المخرب ذا الجبروت اجراء مستمراً ، فلولا انحلال الزواجر التى رسخت بالوراثة لما حدثت أمور كتمرد موظفى البريد والمعدنين والفتنة التى وقعت فى كثير من مدن احدى المديريات الكبيرة ، ومن العوامل التى جعلت هـذا الانحلال الاجتماعى أمراً ممكناً هى هبات ولاة الامور الذين أورثهم الخوف ضعفاً فى قلوبهم ، وبالتدريج نشأ عن عجز القوانين المبدأ القائل إن الوعيـد والايقاع هما اصدق الوسائل لخرق حرمة القوانين ذات الكرامة الحصينة فى الماضى .

والذى جعل ولاة الامور يمنحون تلك الهبات الدالة على نذالة فيهم هو إنكارهم بضعة مبادىء نفسية يجب على جميع أولى الحل والعقد أن يعلموها كما علمها اولو الامر المتقدمون ، ومن بين هـذه المبادىء نذكر واحداً أساسيًا وهو : إن المجتمع يعيش بالمحافظة على الاعتقاد الموروث الذى يأمر باحترام القوانين القائم عليها بناء ذلك المجتمع احترامًا دينيًا .

وما فى القوانين من قدرة تجعل الناس يحترمونها فأدبى معنوى ، إذ ليس فى العالم قوة مادية قادرة على إلزام الناس احترام قانون يهتكون جميعهم ستره .

وإذا أراد شيطان شرير أن يقضى على مجتمع فى بضعة أيام فما عليه إلا أن يغرّ أفراده كى يمتنعوا عن إطاعة القوانين ، حينئذ تكون البلية أعظم من غزو العدو واستيلائه ، لأن الفاتح يكتفى على العموم بتبديل اسماء القابضين على زمام الأمور ، ومن مصلحته أن يحافظ باعتناء على العوامل الاجتماعية التى لها من تأثير شاف ما ليس للجيوش الجرارة ،

والسعى فى تقويض معتقد الأمة فى سبيل المحافظة على نفوذ القوانين هو استعداد لثورة أدبية أشد خطراً من أية ثورة مادية ، فالمبانى التى تخربها الثورة المادية إن أمكن تجديدها بسرعة فان تجديد روح الأمة يتطلب فى الغالب قرونًا طويلة ، وقد عاينا مثل ذلك الانحلال النفسى الأدبى فى أجيال كثيرة من تاريخنا ، واليك ما جاء فى كتاب (هانوتو) الذى بحث فيه عن (جان دارك) مشيراً الى الأمر المذكور :

« متى تزول سلسلة المراتب فى الأمة ومتى تخسر القيادة نفوذها ومتى يتداعى حصن الحرمة ومتى ينقضّ البناء الاجتماعى ينفسح المجال لأعمال الفرد فكلٌ يسعى وقتئذ فى إنماء عمله حسب نواميس الطبيعة على أنقاض الانظمة المنهدمة ذات الرطوبة » .

وما علم أنصار البدع — الذين يحاربون التقاليد باسم التجدد والذين يحلمون بأن يقوضوا دعائم المجتمع ليقضوا على ما فيه من مال ونشب كما حلم (آتيلا) بأن ينهب روما — أن حياتهم عبارة عن نسيج حاكته الوراثة وأن لا بقاء بغيره ، ولا نجهل ماذا تؤدى اليه تجاربهم من تخريب ، إلا أنه يقتضى مكابدتها مرة أخرى ، لان التجارب المكررة وحدها هى التى تثقف الناس ، وما الحقائق المبثوثة فى الكتب سوى كلمات فارغة لا تنفذ روح الشعب الا إذا دعمتها النيران وقصف المدافع .

٢ — المبادىء الدينية والمبادىء العاطفية في حياة الامم .

إن تأثير المنطق العقلى العظيم فى تقدم العلوم وفى تطور حياة الأفراد أحياناً هو ضعيف الى الغاية فى حياة الأمم ، ولكن لو نظرنا الى ظواهر الأمور دون أن نكتشف عللها الخفية والقينا السمع الى ما فى كتب التاريخ من قصص لرأينا خلاف ذلك ، ألم يلتجىء المؤرخون فى شروحهم الى العقل ؟ أولا نشاهد أن الناس مجمعون تقريباً على أن سبب الثورة الفرنسوية هو ما جاء فى كتب فلاسفة القرن الثامن عشر من المباحث وأن غاية تلك الثورة هى نصر مبادىء العقل ؟

لم يستشهد بالعقل كما استُشهد به فى أثناء الثورة المذكورة حتى ان الناس أقاموا له تمثالاً فى أيامها ، والواقع لم يكن ذا تأثير ضئيل مثله فى ذلك الدور ، ستبدو لنا هذه الحقيقة عندما نتخلص من نير أفكارنا المنتقلة لنا عن الآباء فنقدر على تدوين كتاب يبحث عن روح الثورة الفرنسوية .

والمسير لتلك الثورة فى جميع أطوارها حتى فى بداءتها هو مبدأ عاطفى ، فالذى دفع أبناء الطبقات الوسطى — الذين هم أول من أثارها — الى إيقادها هو الحسد الشديد الذى كان يغلى فى صدورهم ضد طبقة اعتقدوا أنهم مساوون لأبنائها ، لا شك فى أن الشعب لم يطمع أول وهلة فى بعض المناصب العالية التى كان لا أمل له فى نيلها ، وعلى رغم هذا فقد استقبل نشوب الثورة الفرنسوية بحماسة ذلك لأن تحطيم الروادع الاجتماعية والوعود الخلابة التى وعدوه بها جعلته يرغب فى المساواة بينه و بين سادته السابقين وفى ضبط أموالهم ، ولم يستهوه شىء من الشعار الثورى الذى نُقش على النقود وعلى مقدم الابنية كما استهوته كلمة « المساواة » التى استمر تأثيرها حتى يومنا ، فالناس لا يأخذون الآن كلمة الاخاء على أفواههم نظراً لأن مبدأ تنازع الطبقات أصبح شعار الوقت الحاضر ، وأما مبدأ الحرية فان الجموع لم تفقه معناه فى أى زمن وقد أنكرته على الدوام .

و إذا كانت الثورات تخلب الشعوب فذلك لأن المشاعر تتحرر بهـا من ربقة الزواجر التى أوجبتها مقتضيات الاجتماع ، وقد بينت فى فصل سابق تأثير الزواجر

المذكورة فى المشاعر . فهذه الزواجر تكون ضرورية للشعوب المتقلبة ذات الاندفاعات الشديدة ؛ وعندما لا تمكن التربية والتقاليد والقوانين هذه الاندفاعات فان الشعب الذى هى فيه لا يصبح فريسة لزعماء الفتن وحدهم بل يكون معرضاً لغزو الشعوب المعادية التى تعلم كيف تستغل قوة الحس والانفعال فيه ، ويثبت ذلك ما ورد فى التاريخ من الأمثلة العديدة التى نعدمنها حرب سنة ١٨٧٠ ، كان امبراطور فرنسا المريض وملك بروسيا الطاعن فى السن يريدان اجتناب الحرب مهما يكلفهما ذلك ، ولكى يمنع ملك بروسيا شهرها عدل عن ترشيح قريبه لعرش اسبانيا ، ولكنه كان يوجد خلف هذين الرجلين المترددين صاحبى الارادة الضعيفة رجل ذو دماغ قدير وعزم كبير قابض على زمام المصير ، فقد استطاع هذا الرجل الحازم بحذفه بضع كلمات من إحدى البرقيات أن يثير غضب أمة شديدة الحس ويكرهها وهى غير مستعدة على شهر الحرب على أعداء اخذو للحرب أهبتها منذ زمن بعيد ، ثم شرع بعدئذ يلعب فى مشاعر كل أمة حتى توصل الى جعلها جميعها محايدة ، ومن هذه الأمم الانكليز الذين أعمتهم مشاعرهم بعد أن أثر فيها ذلك الرجل النفسى المحنك فامتنعوا عن الاشتراك فى وضع لائحة تكون أساساً لمؤتمر غير مدركين ماذا يكلفهم فى المستقبل تكوين دولة حربية عظيمة ، وعليه فان من يعرف كيف يتصرف بمشاعر الناس لا يلبث أن يصبح سيدهم .

٣ — التوازن وعدمه بين أنواع المنطق فى حياة الأمم .

تبين لنا من الايضاحات السابقة أن اندفاعات الفرد الصادرة عن أنواع مختلفة للمنطق تكون فى حال الاعتدال متوازنة ، والأمر كذلك فى حياة الأمم ، ومتى يطرأ شىء على ذلك التوازن بفعل بعض المؤثرات تقع اضطرابات عميقة فتقرب الأمة من القيام بثورة ، فالثورة فى الغالب عبارة عن داء نفسى مصدره عدم التوازن بين الاندفاعات الناشئة عن أنواع المنطق المختلفة التى يصبح أحدها متغلباً .

وغلبة المنطق الدينى على الخصوص هى التى تؤدى الى حدوث انقلابات عظيمة فى حياة البشر ونورد الحروب الصليبية والحروب الدينية والثورة الفرنسوية أمثلة على

ذلك ، فمثل هذه الحوادث عنوان لأزمات تقع فى خلق التدين المتين الذى لا تستطيع الأفراد والشعوب أن تتخلص من حكمه .

وتنشأ تقلبات التاريخ عما بين أنواع المنطق المختلفة من تصادم ، فمتى يتغلب المنطق الدينى فانه يعقب ذلك حروب دينية وما تؤدى اليه من قسوة متجبرة ، ومتى تتم الغلبة للمنطق العاطفى فاننا نشاهد حسب الأحوال إما تأهبًا للحرب وإمَّا بالعكس انتشاراً للمذهب الانسانى أو مبدإ السلم اللذين لا يكونان أقل سفكاً للدماء من حيث النتيجة ، ومتى يزعم المنطق العقلى أنه تدخل فى حياة أمة فلا ينشأ عن ذلك انقلابات اخف من تلك ، إذ لا يكون العقل وقتئذ سوى لباس يستر تحته اندفاعات عاطفية أو دينية .

وظلت الجموع وزعماؤها كما أوضحت مشبعة مثل الأجداد من خلق التدين ، فقد ورث بعض الالفاظ والصيغ المؤثرة فى الجماعات ما للآلهة القديمة التى عبدها الآباء من قدرة سحرية ، وهكذا بقى الامل الوهمى فى الجنَّات التى تخلب الألباب حيًا .

أساس خلق التدين ثابت ، ولكن أشكاله هى التى تتغير ، والمظهر العقلى الحاضر هو الشكل الأخير لذلك الخلق ، فباسم العقل النظرى يود رسل المعتقدات الحديثة تجديد المجتمعات والبشر ، ويسهل ايضاح ما يُسند الآن الى العقل من قوة قادرة على تحويل المجتمع ، فلما كانت مبتكرات العلوم التى هو سببها عظيمة الى الغاية فقد أصبح من الطبيعي ان يعد قادراً على تغيير المجتمعات ونشر السعادة باساليبه المعهودة .

غير أن تقدم علم النفس أوجب اطلاعنا على أن المجتمعات لا تتطور بتأثير العقل بل بتأثير اندفاعات العاطفة وخلق التدين التى لا سلطان للعقل عليها ، وما على قادة الشعوب الآن أن يأتوا به من مجهود صعب فهو أن يؤلفوا بين اندفاعات أنواع المنطق التى تسيرهم وبين اندفاعات المنطق العقلى التى ترغب فى أن تسيطر عليهم سيطرة تامة ، وقد أخذت انكلترا مع كونها مملكة التقاليد تعانى أمر ذلك العراك ، إذ صارت نظمها السياسية التى هى سر عظمتها عرضة لهجمات المبادىء العقلية التى تسعى الأحزاب المتطرفة أن تجدد بها بنيان البلاد الاجتماعى .

ان التصادم بين أنواع المنطق المختلفة لا يستمر أبداً ، فقد رأينا آنفًا أن هذه الأنواع تميل الى التوازن ، نعم يدوم التباين بينها ، ولكن من غير أن نشعر بذلك ، لأن العنصر العقلى فى الغالب يخضع لحكم المؤثرات العاطفية والدينية وان لم يعترف بهزيمته ، وبهذا نوضح علة اقلاعنا عن المناقشة فى عواطفنا ومعتقداتنا على الدوام .

ظهر من الملاحظات السابقة أن لكل من المبادىء الدينية والمبادىء العاطفية نواميس خاصة ، ولذلك تبقى فى النفس مصدراً لسير الأفراد والشعوب ، وعلى مابين اندفاعات المرء من تناقض فانها لا تلبث أن تتوازن إذالم يُعكر صفاؤها ولم يحاول أن يوفق بينها توفيقًا مستحيلا ، فالحقائق العاطفية والحقائق الدينية والحقائق العقلية هى بناتٌ مختلفة لأنواع من المنطق يتعذر اتحادها .

الفصل الثالث

ميزان العلل

١ — الميزان النفسى — السير والحركة

ان ما بين أنواع المنطق المختلفة من اندفاعات متناقضة يجعلنا فى الغالب نتردد فى الطريقة التى يجب أن نتبعها ، وبما أن الحياة تقتضى السير فعلينا أن نختار أحد السبل ولكن كيف نختار ؟ يتجلى لنا أمر هذا الاختيار بالمثال الآتى :

لنضع أشياء فى كفتى ميزان ، فاذا كان ما وضع فى كل من الكفتين متساويًا فان عقرب الميزان يبقى عموديًا مذبذبًا ، والا فانه يميل الى احدى الجهتين ، وعدا الموازين المادية يوجد موازين نفسية مماثلة لها ، فعلل السير هى عيارات هذه الموازين النفسية ، وأما عقربها فهو العمل الذى ينشأ عن وجود الكفة فى إحدى أحوالها .

وقد يكون العقل أحيانًا علة السير ، ولكنه ينضم فى الغالب الى العلل العقلية الشاعرة علل لاشاعرة تثقل وطأتها على إحدى الكفتين ، أى ان العلل جميعها

تتقاتل والغلبة فى العراك تكون لأقواها ، فمتى تكون العلل المتقاتلة ذات قوى متكافئة فان الكفتين تهتزان وقتًا طويلا قبل أن تميل احداهما الى جهة وهنالك التردد والتذبذب فى الأخلاق ، وعند ما تكون العلل المعتركة متفاوتة فى قوتها فان احدى الكفتين تميل لتستقر وهنالك يبت الانسان فى سيره وحركته .

٢ — شأن الارادة فى ميزان العلل

تقدر فى الغالب على التصرف فى عيارات الميزان النفسى بأن نزيدها أو نقللها فلا ريب فى أن الأبطال ذوى الجرأة والأقدام الذين قطعوا جبال الألب وعبروا بحر المانش طائرين أول مرّة فى الهواء حذفوا من كفتى الميزان بعض العلل العقلية التى قد تثبط عزائمهم فى أمور خطرة كهذه لم يجرؤ أحد قبلهم على اقتحامها ، ومع ذلك فان الارادة لا تكلف نفسها على الدوام أمر وضع العيارات فى ميزان العلل ، إذ ان عناصر الحياة العاطفية أو الدينية تقوم بهذا الأمر من تلقاء نفسها ، وذلك مثل ما يقع فى أثناء بعض الحوادث الفجائية كقذف الرجل نفسه الى الماء أيام الشتاء كى ينقذ شخصاً مجهولاً ، فلو كان للتأمل عمل فى الأمر لوازن بينه وبين عناصر العاطفة وغيَّر ميل عقرب الميزان ، ومن هنا يتضح لنا السبب فى كون حوادث البطولة العظيمة الغريزية كثيرة مع أن حوادث البطولة الصغيرة اليومية المستمرة قليلة العدد كأن يحرم الانسان نفسه ملاذ الحياة فى سبيل قريبه المريض العاجز .

وعلى ما تقدم فان الارادة الشاعرة قد تؤثر فى ميزان العلل ، ولكن إذا كانت هذه الارادة غير شعورية — كما فى أمر المعتقد — فان عملها يكون لاغيًا ، حينئذٍ يجرى المنطق الدينى حكمه مستقلاً عنا ، وعند الحاجة على رغم أنفنا او ضدنا .

وأما إزاء المنطق العاطفى وحده فقوتنا اكثر مقاومة ممَّا هى إزاء المنطق الدينى ، لأن المشاعر إذا لم تكن غاية فى الشدة فان العقل يقدر على التصرف في بعض العيارات اى العلل ، ولا نأسف كثيراً على ضعفنا أمام اندفاعات المنطق العاطفى ، لان هذه الاندفاعات وإن كانت فى الغالب ذات نتائج مضرة إلاَّ انها قد تأتى احيانًا بأعمال مفيدة للبشر .

ومتى يعلم الانسان أن يوفق بين اندفاعاته العاطفية والدينية و بين مبتكرات العقل فان نطاق الممكنات يتسع فى نظره .

وفى توازن العلل حيث تتكون الآراء والمعتقدات كثير من العلل والعوامل التى لا تأثير لنا فيها ،ولو استمر عدم تأثيرنا لقلنا كما قال كثير من المذاهب الفلسفية إن القدر هو الذى يسيرنا ،والقدر بالحقيقة قد استولى على تاريخ البشر زمنًا طويلاً ، لان الناس لما ظلوا عاجزين دوراً مديداً عن قيادة أنفسهم خضعوا لسنن ما اختلف من انواع المنطق التى لا صلة بينها و بين العقل خضوعًا مقدراً .

٣ — كيف يؤثر المنطق العقلى في ميزان العلل .

لقد ظهرت بظهور المنطق العقلى البطيء قوة جديدة فى العالم ، و بهذه القوة يؤثر الانسان فى الغالب فى كفتى ميزان العلل ، وقد بينا عند ما بحثنا فى كتاب آخر عن انحلال المقادير كيف يصير المنطق العقلى عاملاً كبيراً فى هذا الانحلال فبفضل ما فى المنطق المذكور من قدرة يستطيع الانسان أن يؤثر فى مجرى الامور ، وهو لعدوله بالتدريج عن الانقياد للمؤثرات اللاشعورية التى كانت تقوده فيما مضى قد أخذ يتعلم كل يوم كيف يهيمن عليها ويقبض على زمامها .

وإذا كان المنطق العقلى – والارادة تدعمه – لا يزال عاجزاً عن تقرير المصير فذلك لأننا نجهل حتى الآن اكثر علل الحوادث ولأن كثيراً من أعمالنا ذو نتائج لا تتحقق الا فى مستقبل مفعم بالطوارىء ، فهذه الطوارىء ذات أخطار ، وبها ينضم الى ميزان العلل عيارات ذات قيم مجهولة .

نستدل على ذلك بكون دهاة البشر الحقيقيين –القابضين على مصير الأمم والذين لا يظهر منهم فى كل عصر سوى عدد قليل– مع علمهم فى الغالب كيف يجعلون الكفة راجحة فأنهم يخاطرون بالامور كثيراً ، وهـذه المخاطرة تتجلى لنا على شكل واضح عند النظر الى (بسمارك) الذى استشهدنا به مرات عديدة نظراً لنفسيته التى يفيد درسها ، فقد كان المسير لهـذا السياسى المحنك هو المبدأ القائل بالوحدة الالمانية ، ولـكن ما اكثر المهالك التى تعرض لها والأحوال التى عاكسته والموانع التى عاناها فى

سبيل ذلك ، كان عليه فى أول الأمر أن يقضى على النمسا الحربية ذات النفوذ الذى اتفق لها بفعل ماضيها المجيد ، وما ناله سنة ١٨٦٦ من نصر فى معركة (صادوا) فبعناء ولعجز متناه فى قائد العدو ، ثم كان عليه بعد ذلك أن يحارب نابليون الثالث الذى كان الناس يعدون جيوشه لا تُغلب ، نعم يقدر الرجل العظيم على الاستعداد لجميع تلك الامور ولكن من غير أن يضمن النجاح ، وبالخلق المقدام والذكاء الواسع الخارق وحدهما تُقتحم مثل تلك المخاطر .

والمنطق العاطفى على الخصوص هو الذى يقذف بالانسان الى المخاطرة ، وهو الدعامة الأولى التى يستند اليها فى القيام بمشروع يسوق اليه المنطق العقلى أيضًا ، نعم كان يوجد فى اجتياز جبال الألب وعبور بحر المانش بواسطة الطيارة خطر عظيم ، ولكن المنطق العقلى قد دَعَمَ إرادةً مشبعة من حب المجد ومن الميل الى اقتحام المصاعب وغيره من العناصر ذات المصدر العاطفى فوقع ذلك الاجتياز والعبور ، فالسبب فى عظمة رجال التاريخ وأفاضل العلماء وأكابر المفكرين ومشاهير الربابنة هو كونهم علموا كيف ينتفعون بجميع أنواع المنطق المسيطرة على الانسان ويتصرفون فى ميزان العلل الذى يتقرر فيه أمر المستقبل .

ولا تتقدم الحضارات بالجموع التى هى لُعَبٌ تُسَيرها الغرائز بل بصفوة الرجال التى تفكر لأجل الجموع وتقودها ، ولم يفعل الساسة بمحاولتهم تسخير المنطق العقلى لمنطق الجموع كى يبرر اندفاعاته سوى إحداث فوضى عميقة .

نلخص هذا الفصل والفصول التى تقدمته بالكلمات الآتية وهى : إن حوادث التاريخ تنشأ عن توازن أنواع المنطق المختلفة وتصادمها . ولكل من هذه الأنواع فى ميزان العلل الذى توزن فيه مقاديرنا شأنه الخاص ، فأذا هيمن أحدها على الآخر فان مصير الناس يتبدل .

والمنطق العاطفى يجعل الانسان يسير غير متأمل وراء اندفاعات مشؤومة ، والمنطق الدينى يولد الأديان التى تلجىء الانسان الى الاهتمام بنجاته الأبدية ، ومنطق الجماعات يوجب جلوس طبقات الشعب الدنيا على منصة الحكم ويرجع بهذا الشعب الى الهمجية ، والمنطق العقلى يلقى الشكوك والريب فى قلب الانسان ويدفعه إلى البطالة .

الباب الخامس

آراء الافراد ومعتقداتهم

الفصل الأول

العلل الباطنية للآراء والمعتقدات :

« الخلق ، المثل الأعلى ، الاحتياجات ، المنفعة ، الحرص »

١ — تأثير علل الآراء والمعتقدات .

جاء فى جريدة (الكومانتر) الانكليزية — بمناسبة كتابى المسمى روح السياسة — ما يأتى : « لربما يظهر يومًا ما كتاب غريب فى فن الاقناع ، فلو فرضنا أن علم النفس يصل فى المستقبل الى درجة راقيــة كعلم الهندسة والميكانيك لأمكننا أن ننبىء بتأثير الدليل والبرهان فى روح الانسان كما ننبىء بخسوف القمر ، وسيكون لعلم النفس الذى يبلغ تلك الدرجة قواعد نحول بها الرجل الى أى رأى فتصبح روحه حينئذ كالآلة الكاتبة حيث يكفى ضغط زر منها ليظهر الحرف المطلوب حالاً » .

قد نسلم نظريًا باحداث ذلك العلم — الذى عرف أقطاب السياسة وزعماء الشعوب منه بضع نبذ — فى المستقبل ، ولكن ايجاده كاملاً يتطلب ذكاء فى البشر اسمى من ذكائه الحاضر كثيراً ، وسبب ذلك جلى واضح : إن من أشد مسائل علــم الفلك صعوبة المسئلة التى لم يحل منها العلماء حتى الآن سوى جزء على رغم ما بذلوه من الجهود العظيمة والتى هى عبارة عن تعيين المواضع لثلاثة أجسام مختلفة جرمًا وسرعة مؤثر بعضها فى البعض الآخر فى آن واحد ، والعناصر النفسية التى يقتضى تعيينها هى أكثر عدداً ويختلف تأثيرها باختلاف قوة الحس والشعور فى الاشخاص .

على أن التنبؤ فى سير الناس ليس مستحيلاً على الدوام ، وبيان ذلك أنه يوجد فى تركيب المشاعر المعقد — الذى يتألف الخلق منه — عناصر راجحة تعين وجهة الأخرى كعناصر البخل والأثرة وحب الذات والعجب الخ ، فالذى تغلبت عليه هذه المشاعر تسهل قيادته إذ يُعلم حينئذٍ ما هو وتره العاطفى الذى يُضرب عليه ، وأما الرجل الذى توازنت فيه المشاعر دون أن يستحوذ بعضها على البعض الآخر فيصعب اكتناهه وتسييره .

ولا شأن للعوامل كلها فى تكوين الرأى ، فالذى يؤثر منها فى رجل لا يؤثر فى الآخر ، والذى يوقد نار الحرص فى شعب لا يحرك ساكن شعب مجاور .

والحقيقة هى أن تكوين اكثر الآراء والمعتقدات لا يستلزم سوى قليل من العوامل ، فعوامل العرق والبيئة والعـدوى تكفى لانشاء المعتقدات العظيمة وعاملا الانفعال والمنفعة الشخصية يكفيان لتكوين الآراء اليومية ، ومع ذلك فانك ترانا مكرهين على البحث فى عوامل أخرى ، ذلك لأن هذه العوامل إذا لم تكن ذات تأثير على الدوام فانه ليس فيها ما هو غير مؤثر فى أحد الأوقات .

٢ — الخلق

يوجد بجانب أخلاق العرق العامة اخلاق الفرد المتقلبة ، وشأن الأخلاق فى تكوين الآراء والمعتقدات عظيم الى الغاية ، فأعقل الحكماء لا يقدر على التخلص من تأثيرها ، وما فى مبادئه الفلسفية من تفاؤل او تطير فناشيء عن خلقه اكثر منه عن ذكائه ، وعليه فقد أصاب (ويليام جيمس) حيث قال : « إن تاريخ الفلسفة هو تاريخ التصادم بين الأمزجة البشرية ، وهذا الاختلاف بين الامزجة له أيضًا شأنه فى ميدان الأدب والفن والحكومة والطبائع ، فاذا نظرنا الى الطبائع نرى من الناس من يبدو عليه التكلف ومنهم من لا يبدو عليه ، وإذا نظرنا الى الحكومة نرى بين اعضائها من هو محب للسلطة ومن هو فوضوى ، وإذا نظرنا الى الأدب نرى بين حملة لوائه من هو لغوى مفرط او مغالٍ فى الاسلوب ومن هو مبالغ فى تصوير الاشياء كما هى . »

وإذا طبقنا تأثير الخلق الشخصى فى الآراء نعلم لماذا بعض الناس محافظون وبعضهم ثوريُّون ، فالثوريُّون يميلون بفعل مزاجهم الى الثورة ضد جميع ما يحيط بهم غير مبالين بنظام الأمور نفسه ، وتتألف كتائبهم على العموم من الذين انحلت أخلاقهم الثابتة الارثية بتأثير مختلف العوامل فصاروا لا يلتئمون بالبيئة التى يعيشون فيها ، ونعتبر كثيرين منهم من فصيلة المنحطّين ذوى الأمراض والعاهات الذين لم يلتئموا بالمجتمع فأصبحوا حاقدين عليه بحكم الطبيعة كما يحقد الهمجى على مدنية أكره على الخضوع لمبادئها .

وجيش الثوريّين فى الوقت الحاضر يتكون على الخصوص من المنحلين الذين ضاقت المدن الكبيرة بأمراضهم الكحولية والافرنجية والحُمّيَّة والسميَّة ذرعًا ، وعلى نسبة تقدم الحضارة يزداد عدد هذا الجيش وسيكون إنقاذ المجتمعات من هجماته العنيفة من أشد مشاكل المستقبل خطراً

فى بعض الأحيان يكون شأن اولئك العديمى الالتئام فى التاريخ عظيماً ، ذلك لأنهم ذوو قدرة عظيمة على الاقناع يؤثرون بها فى روح الشعوب ، فالمتهوسون أمثال بطرس الراهب ولوثر قلبوا العالم رأساً على عقب .

٣ — المثل الأعلى

مثل الأمة الأعلى يدل على كثير من آرائها ومعتقداتها ، فهو خلاصة رغائبها العامة واحتياجاتها وأمانيها ، والناظم لهذه الخلاصة هو العرق وماضيه وغير ذلك من العوامل التى لا أبحث عنها الآن ، وقد بيّنت فى كتاب آخر قوة المثل الأعلى فأثبت أنه لا يتزعزع من غير أن يتزلزل دعائم البنيان الاجتماعى الذى يقوم عليه ، وإذا كان كثير من الناس يترددون اليوم فى آرائهم ومعتقداتهم ويسيرون طائعين خلف اندفاعات كثيرة التناقض فذلك لأنهم ذوو مثل أعلى ضعيف على رغم ما يتصفون به أحيانًا من ذكاء هو غاية من السمو والرقى .

وما فى المتعصبين من قوة فيشتق من خضوعهم لمثلهم الأعلى الخطِر خضوعًا

تاماً ، واليوم نشاهد ذلك فى الاشتراكيين الذين سحرهم مثلهم الأعلى ، فقد ثقلت وطأة هذا المثل على حياتنا القومية وهو السبب فى سن قوانين مبددة لنمو هذه الحياة .

إذاً لم يكن المثل الأعلى مبدأ نظرياً يمكننا أن نتغاضى عن تأثيره ، فمتى يعم أمره فانه يكون ذا تأثير عظيم فى أدق شؤون الحياة ، حتى إن الذين ينكرون نفوذه يعانون هذا النفوذ على رغم أنوفهم .

والمعتقدات دينية كانت أم اجتماعية أم سياسية لا تكون ذات قوة الا إذا أصبحت مثلاً أعلى مقبولاً بوجه عام ، وعندما يلتئم المثل الأعلى المذكور مع مقتضيات الزمن وممكناته فانه يسبب عظمة الأمة التى تعتنقه ، ولكن حينما يكون مناقضاً لسير الأمور الطبيعى فانه يؤدى الى انقراض تلك الأمة .

٤ — الاحتياجات

الاحتياجات هى من أكبر العوامل فى تكوين الرأى وكل تطور اجتماعى ، ونعد الجوع اكثرها شدة ، فهو الذى ساق أجدادنا الأولين من الكهوف والمغاور الى سلم الحضارة ، وهو الذى تسعى لقضائه اكثرية البشر ، ولولاه لما ترك البرابرة أرضهم البور وغيروا مجرى التاريخ بتدهورهم على روما ، وليس شأنه اليوم بأقل منه فى الماضى ، فلقد أصاب من قال إن الاشتراكية هى مسئلة معِدِ .

وكلما تقدمت الحضارة فانه يضاف الى قائمة الاحتياجات القديمة احتياجات جديدة ، وما الاحتياج الى الأكل والى التناسل واللباس والدين والأمور الأدبية والكمال سوى عناوين لمقتضيات الحياة والعاطفة التى تقودنا والتى تنشأ عن علتى الحركة فى الموجودات أعنى اللذة والألم ، ويؤدى ايجاد احتياجات جديدة فى الجموع الى ظهور آراء حديثة ، ويعرف اقطاب السياسة أن يحدثوا احتياجات تفيد بلادهم ، فما الاحتياج الى الاتحاد فى المانيا ثم الى إنشاء اسطول حربى قوى سوى احتياجين مصنوعين أُكرِهت البلاد عليهما .

وقد أوجب تطور الصناعة العلمىُّ حدوث احتياجات جديدة كالخطوط الحديدية والتلفون ، ومن سوء الحظ أن بلغت هذه الاحتياجات من النمو مبلغاً زاد

على الوسائل الضرورية لقضائها ، فصارت مصدراً للاستياء الذى هو عامل قوى فى انتشار الاشتراكية .

والاحتياجات هى أيضاً سبب التسايح المؤدى إلى الافلاس فى اوروبا ، لانهُ لما عظمت الاحتياجات كثيراً فى اوروبا واصبح تنازع البقاء فيها أشد منه فى الماضى صارت كل دولة فيها تطمع فى الاغتناء على حساب الدول المجاورة لها ، فالالمانى الذى كان منذ خمسين سنة قانعاً بأكل الكرنب كان سلمياً لقلة احتياجاته ، ولكن عند ما زادت احتياجاته بغتةً أصبح محارباً متوعداً ، ثم لما كان الالمان يزدادون عدداً وأوشكوا أن يكونوا من الكثرة بحيث لا تكفى بلادهم لإطعامهم فان الوقت الذى تتعلل فيه المانيا باحدى العلل الواهية كى تستولى على الأمم المجاورة وتشاركها فى أمر معيشتها قد قرب ، وهذا السبب وحده هو الذى يدفعها الآن الى بذل نفقات باهظة فى سبيل جيشها وبحريتها .

٥ — المنفعة .

ليس من الضرورى أن نطنب فى بيان تأثير المنفعة فى تكوين آرائنا ، ذلك لأن هذا الأمر شىء مسلم به ، ويمكننا أن نعتبر اكثر الأشياء من عدة وجوه أى من حيث المنفعة العامة أو من حيث المنفعة الخاصة .

وللمنفعة ما للحرص من قدرة على تحويل ما يلائمها الى حقيقة ، ولذلك فهى فى الغالب أقوى من العقل حتى فى المسائل التى يظهر أن العقل هو المهيمن عليها ، خذ الاقتصاد السياسى مثلاً تر أن مبادئه المختلفة مشبعة من البحث فى المنفعة الشخصية بحيث نستطيع أن نقدّر بها مقدماً ميل الرجل ذى المهنة المعينة الى نظام حرية المبادلة أو نظام الحماية .

وتقلباتُ الرأى تتبع تقلباتِ المنفعة بحكم الضرورة ، فالمنفعة الشخصية هى العامل الأصلى فى الأمور السياسية ، فالنائب الذى انتقد ضريبة الدخل بما اوتى من قوة لا يلبث أن يدافع عنها بعزم لا يقل عن السابق عند ما يأمل أن يصير وزيراً ، وكذلك الاشتراكيون فانهم يصبحون محافظين بعد أن يغتنوا .

ولا يقتصر أمر المنفعة على تكوين الآراء بل إنها بعد أن تستفزها الاحتياجات تضعف أدب الانسان وحسن سيرته ، فالقاضى الذى يطمع فى الرق والجراحى الذى يعمل عملية جراحية لا تفيد والمحامى الذى يزيد الدعوى تعقيداً تنحط أخلاقهم اكثر من ذى قبل عند ما يحرك احتياجُهم الى النفائس منفعتهم .

وشأن المنفعة الادبية هو كشأن المنفعة المادية فى تكوين الآراء ، فاذا أوردنا عزة النفس المكلومة مثلاً نرى أنها تولد أحقاداً شديدة وما ينشأ عن هذه الاحقاد من آراء ، فمصدر حقد أبناء الطبقة الوسطى على الأشراف وانتقامهم منهم أيام الثورة الفرنسوية هو على الخصوص ازدراء هؤلاء لاؤلئك فى العهد السابق ، ولو أدرك (مارا) — الذى انتقم لنفسه من سادته السابقين — و (هبرت) — الذى أوجب قطع كثير من الرؤوس بعد أن كان ملكيًا متحمساً — دور الامبراطورية ونالا فيه وظائف وألقاباً لأصبحا كخصومهما من المحافظين المتأججين .

٦ — الحرص .

إن المشاعر الثابتة الموصوفة بالحرص هى أيضاً مصدر الآراء والمعتقدات والحركة ، وبما أن بعض أنواع الحرص تنتقل بالعدوى فانه يسهل عليها أن تتسرب فى الجموع حيث تصبح ذات تأثير لا يُقاوَم ، وما أكثر المرات التى تدهورت فيها بعض الأمم بفعل الحرص على البعض الآخر فى غضون أجيال التاريخ .

وقد يحرك الحرص نشاط الانسان ، ولكنه فى الغالب يفسد سداد الرأى ويمنع الانسان من أن يرى الأمور كما هى وأن يفهم صورة تكوينها ، وسبب كثرة الاغلاط فى كتب التاريخ أنّ الحرص هو الذى أملى أنباءها

نرى مما تقدم أن الحرص ذو تأثير عظيم فى آرائنا وفى تكوين الحوادث ، ومن دواعى الأسف أنّ أنواع الحرص ذات التأثير الكبير هى التى ليست محلاً للاعتناء والاعتبار ، فلقد حقق (كانت) ما لهذه الأنواع الرديئة من الشأن الاجتماعى العظيم حيث بين أن الخبث هو عامل كبير فى رقىّ البشر ، ويظهر أن الناس لو اتبعوا مبدأ الانجيل القائل « لِيُحِبَّ بعضكم بعضًا » بدلاً من أن يتبعوا مبدأ الطبيعة الذى يشير عليهم بأن يقتتلوا لظلوا عائشين فى الكهوف .

الفصل الثانى

العوامل الخارجية للآراء والمعتقدات

التلقين، الانطباعات الأولى . الاحتياج الى التفسير، الالفاظ ، الصور ، الأوهام، الضرورة

---

١ — التلقين

اكثر آرائنا ومعتقداتنا سياسية كانت أم دينية أم اجتماعية نتيجة التلقين ، قال (جيمس) : « ان التلقين عبارة عن القوة التى تؤثر بها الافكار فى المعتقدات والسير » وعندى أن هذا التعريف غير صحيح ، فالتلقين هو بالحقيقة كناية عن قوة الاقناع ليس بالأفكار وحدها بل بأى عامل آخر كالتوكيد والنفوذ الخ ، ولو نظرنا الى الأفكار دون غيرها لرأيناها ذات تأثير ضعيف .

وللتلقين مناهج كثيرة نعد منها البيئة والكتب والجرائد والخطب والعمل الشخصى الخ ، والكلام من أكثر هذه المناهج تأثيراً ، وتوكيد الكلام يزيده قوة ونفوذاً .

وشدة التلقين تختلف باختلاف العوامل ، فهذه الشدة تبتدىء من التأثير الضئيل للبائع الذى يحاول أن يحملنا على ابتياع شىء من سلعه وتنتهى الى التأثير الذى يؤثر به المُنَوِّم فى المصاب بمرض الأعصاب حيث يجعله سليب الارادة ، وفى عالم السياسة يكون الزعيم ذو النفوذ العظيم هو المنوِّم .

وتكون نتائج التلقين بحسب حالة الملقَّن النفسية ، فالملقَّن يصبح بتأثير احد المحرضات — كالحقد والحب — التى تضيِّق دائرة شعوره اكثر انفعالاً فيسهل تحويل آرائه .

ولا يتخلص اولو الفضل من سلطان التلقين ، فلقد بين (جول لوميتر) فى محاضرته عن (فينيلون) أن هذا الحبر الشهير أصبح مقوداً من (مدام كويون) ذات المرض العصبى بعد أن اتخذته مرشداً لها ، إذ استطاعت أن تقنعه بصحة آرائها

فى المذهب الصوفى الداعى الى عدم المبالاة بالنجاة الأبدية وبالأعمال . وقد بلغ تأثيرها فيه مبلغًا جعله يعرض ذلك المذهب على مؤتمر من الاساقفة برآسة (بوسويه) الذى لم يلبث أن اكتشف تلقين (مدام كويون) للحبر المشار اليه فقال : « أنصاع مبهوتًا من رؤيتى امرأةً ذات بصيرة محدودة قليلة الفضل كثيرةَ الوهم تؤثر فى رجل ذى روح عالية . » غير أن الذين يطلعون على التاريخ الحديث لا يعتريهم الدهش كما اعترى (بوسويه) لأن كثيراً من الحوادث (كمسئلة هومبرت ومسئلة دوبرى دولاماهيرى الخ) أثبتت لهم أن عدداً كبيراً من الصيارفة الماهرين والمحامين القديرين والقادة المدبرين تركوا ثروتهم بين أيدى أناس محتالين معدودين من الرُقاة المشعوذين .

وما الشعوذة سوى نوع من التلقين ، والانسان يعانى أمرها كما يعانى الطير شعوذة الثعبان ، ومما لا ريب فيه أن بعض الناس النادرين يؤثرون فى الحيوان بما يتخذونه من ضروب الرقية كما يشاهد ذلك مربو الحيوانات ، وما اكثر الجرائم التى اقتُرفت بفعل الشعوذة والرقية ، فما لقيت كونتة (تارنوسكا) صعوبة فى جعل عشاقها يقتلون رجالاً كثيراً ، وقد اصبحت من النفوذ والتأثير بحيث كان يجب تبديل فرسانها وحرس سجنها تبديلاً مستمراً .

ويوجد شبه بين الأمثلة المذكورة وبين أعمال الوسطاء أو الدراويش الذين يلقنون من يحيط بهم فيجعلونهم يعتقدون أموراً لا أساس لها . على هذا الوجه ذهب كثير من مشاهير العلماء ضحية تلقين الوسيطة المشهورة المسماة (اوزابيا) كما سأبين ذلك فى فصل آخر .

وبما أن شأن الجماعات يزيد بالتدريج وكان التلقين هو المؤثر فيها فان نفوذ الزعماء يعظم يومًا فيومًا ، وما الحكومات الشعبية إلا حكومات بعض زعماء يتجلى استبدادهم فى كل آن ، لأن الزعماء هم الذين يأمرون بالاعتصابات ويكرهون الوزراء على إطاعتهم ويسببون وضع قوانين عقيمة مخالفة للعقل والصواب .

قدرة الزعماء على التلقين كبيرة جداً ، وبها يرغمون الجموع على الخضوع والانقياد ، فلقد بين مدير شركة (اورليان) فى عيد هذه الشركة السنوى أن موظفيها اعتصبوا

فى زمان اضطر فيه الى التسليم بجميع مطالبهم ، ثم قال : « إن سبب هذا الاعتصاب هو بضعة محرضين التجأوا فى تحريضهم إلى إقامة الوعيد والسب والشتم مكان الدليل والبرهان » ، ولو كان عند ذلك المدير اطلاع كاف على سنن النفس لعلم أن إبطال تلقين اولئك المحركين يتم باخراجهم من الشركة ، فالتلقين لا يقاوم إلا بالتلقين ، ولا يؤدى الإذعان لما يقترحه الزعماء سوى زيادة نفوذهم .

٢ — الانطباعات الاولى

الانطباعات الأولى هى أول ما يشعر به المرء عند مصاقبته اول مرة ما جهله سابقاً من رجل أو حادثة أو شىء آخر ، وحيث أن التدقيق فى الأمر متعب شاق فان الناس يكتفون على العموم بالانطباعات الأولى .

والانطباعات فى بعض عناصر الحياة الاجتماعية تسير أحياناً هى والبرهان ، ولكن يوجد عناصر أخرى تظل فيها انطباعاتنا الأولى وحدها دليلاً ، ونعد من هذه العناصر الفنون والآداب على الخصوص ، ولما كانت الانطباعات تابعة لمشاعر متبدلة فان ما تولدُ فى النفوس من صور وآراء يتحول بسهولة ، وهذا هو سر اختلافها باختلاف الأزمنة والاشخاص والشعوب ، فالانطباعات الأولى التى تورثها الاشياء نفسها فى أمير اقطاعى أوأسقف من أشياع (كالفين) أو رجل متعلم أو عامى أو عالم لا تكون واحدة ، وأما مسائل العلم التى لا تأثير للعاطفة فيها فانه قلما يشاهد فيها مثل هذا الاختلاف ، وعلة ذلك كون أقوالنا ومبادئنا فيها لا تتم بتأثير الانطباعات الأولى .

وأحياناً تزول الانطباعات الأولى بغتةً بتأثير انطباعات أخرى مناقضة لها ، ولكنها قد تكون قوية لا تتلاشى الا شيئاً فشيئاً بفعل البلى والدثور

ويقتضى اعتبار الانطباعات الأولى دلائل مبهمة وعلائم غير صحيحة يجب نقدها والبحث عن حقيقتها على الدوام ، والا فان عدم تمحيصها — كما يفعل الناس فى الغالب — يؤدى الى وقوع المرء فى الضلال مدة حياته ، ذلك لأنه ليس لها دعامة تستند اليها سوى العواطف والكراهة الغريزية التى لا يرشدها أى عقل ولأن مبادئنا

فى العدل والظلم والخير والشر والصواب والخطإ تقوم فى أكثر الاحيان على هذه الأسس الواهية .

٣ — الاحتياج الى التفسير

الاحتياج الى التفسير كالاحتياج الى الاعتقاد يلازم الانسان من المهد الى اللحد ، وقد ساعد على تكوين الآلهة ويساعد على ظهور عدد غير قليل من الآراء ، ويسهل قضاؤه ، فأبسط الأجوبة تكفيه ، وهذه السهولة هى مصدر كثير من الأغلاط

وبما أن روح البشر مولعة بالقضايا القاطعة فانها تحافظ على آرائها الباطلة الصادرة عن الاحتياج الى التفسير زمناً طويلاً معتبرة كل من يحارب هذه الآراء عدواً مقلقاً للراحة ، والمحذور الاساسى للآراء القائمة على تفاسير باطلة هو ان الانسان بعد أن يعدها جازمة لا يسعى فى البحث عن غيرها ، فلقد أوجب جهلنا جهل أنفسنا تأخر العلوم قروناً كثيرة وتضييق دائرتها فى الوقت الحاضر .

والتعطش الى التفسير يتناول على الدوام أموراً لا تُدْرَك ، فالنفس تسلم بأن (المشترى) هو الذى يرسل الرعد والصواعق عوضاً عن أن تعترف بأنها تجهل العلل التى تسببها ، والعلم نفسه بدلا من أن يقر بجهله بعض المواضيع فانه يكتفى فى الغالب بمثل هذا التفسير لايضاحها .

٤ — الالفاظ والصيغ والصور

الألفاظ والصيغ من اكثر العوامل توليداً للآراء والمعتقدات ، وهى لما فيها من قدرة رهيبة قد أوجبت هلاك أناس اكثر من الذين قتلتهم المدافع ، وما فى الالفاظ من قدرة فناشىء عن أنها توقظ فى المرء مشاعر دالة عليها ، وقد بينت فى مؤلفات أخرى مالها من الشأن فى أمور السياسة (١)

---

(١) قالت جريدة الطان فى عددها الصادر فى ٢٩ كانون الثاني سنة ١٩١١ مايأتي :

« لقد أجاد الدكتور غوستاف لوبون — فى كتابه الذى بحث فيه عن روح السياسة والاجتماع بحثاً عميقاً — عند ما أشار بحذقه النادر وبصيرته الثاقبة الى تأثير الالفاظ السحرى فى الجماعات والمجالس نيابية كانت أم غير نيابية ، فقد أتى مجلسنا النيابي بعمل يؤيد صحة نظره ، اذ أن هذا المجلس أصبح منذ بضعة أيام مسحوراً من لائحة « اللامركزية » .

إن قوة الصيغ عظيمة فى المجالس ، فبها يحرك رجال السياسة مشاعر السامعين ، ولم يلبث رئيس الوزارة الفرنسوية الموسيو (كاميانسو) أن سقط بغتة بتأثير لفظ واحد أيقظ فى أعضاء البرلمان مشاعر الحزى التى تكونت أيام حادثة (فاشودا) ، وكذلك خلفه فانه سقط للعلة نفسها ، وللفظين الآتيين اللذين تلوكهما أفواه المشتغلين بالسياسة مثل ذلك التأثير وهما : النمول والصعلكة .

وقد تبلغ الألفاظ فى فعلها مبلغًا يجعلها تؤثر أحيانًا فى أكثر الرجال تأملا ، وعند ما تكون النفس إزاء حادثة يتعذر اكتناهها فانها تكتفى بايجاد صيغة ، فلما جهل العلماء أسرار الحياة وعجزوا عن بيان السبب فى تحول حبة البلوط الى سنديانة وعن بيان الكيفية التى تتطور بها ذوات الحياة اكتفوا بصيغ تقوم مقام التفسير والايضاح

والالفاظ توقظ فى المرء صوراً نفسية ، ولكن الصور المرسومة أجلب للانسان ، وإنى ذكرت فى كتابى المسمى (روح السياسة) مقدار ما أوجبته الاعلانات المصورة من تأثير كبير فى الانتخابات الاخيرة التى وقعت فى انكلترا ، وقد أدرك أرباب الصناعة والطباعة هذا الأمر فتفننوا فى استعمال الاعلانات المصورة ترويجًا لسلعهم .

وولاة الامور أنفسهم قد اطلعوا على شأن الصور فى تكوين الآراء ، فبعدما قل الاكتتاب الاختيارى فى كتائب الفرسان فكر منذ بضع سنين أحد رجال الحرب الواقفين على سنن النفس فى تعليق إعلانات مصورة تمثل فرسانًا نشيطين يقومون بانواع التمرينات ، وعلى رأس الاعلانات أشير الى الفوائد التى يناها المتطوعون ، وقد كانت نتيجة ذلك أن استغنت اكثر الكتائب فكفت عن قبول اكتتابات جديدة

٥ — الاوهام

تكتنفنا الاوهام منذ عهد الطفولة حتى الموت ، فنحن لا نعيش الا بالأوهام ولا نتبع سوى الاوهام ، و باوهام الحب والحقد والحرص والفخر نحافظ على قوة السير والحركة فينا غافلين عن قسوة المصير

والاوهام العقلية هى قليلة بالنسبة الى الاوهام العاطفية ، واذا كانت تنمو فذلك لأننا نود على الدوام أن نشرح بالعقل مشاعر هى فى الغالب مطمورة فى دياجير

اللاشعور ، ويحملنا الوهم العاطفى أحيانًا على الاعتقاد باننا نحب أناسًا وأشياء لا يهمنا بالحقيقة أمرها ، ويجعلنا هذا الوهم نعتقد أيضًا دوام مشاعر لا بد من اختفائهـا بفعل تطورنا الشخصى .

بهـذه الاوهام نحيا وهى التى تزوق لنا الطريق المؤدية الى الفناء الأبدى ، ولا نأسف على كونه يندر تحاليلها ، فالعقل لا يحللها من غير أن يقضى على بواعث الحركة فينا ، والعوامل التى تشل الارادة تكثر عند البحث عن علل الارادة ، وحينئذ يغوص المرء فى بحر من التناقض والتردد . كتبت مدام (دوستائيل) : « ان الاطلاع على كل شىء و إدراك كل شىء يؤديان الى التـذبذب » . فلو وُجد ذكاء له ما نعزوه الى الآلهة من قدرة على إدراك الحال والمستقبل فى لحظة واحدة لمـا اهتم باى أمر ولبطلت بواعث سيره الى الأبد .

يظهر لنا بعد بيان ما تقدم أن الوهم هو ركن حيـاة الأفراد والشعوب الحقيقى وأنه هو الذى يمكن أن يُعتمد عليه وحده ، ومع ذلك فان كتب الفلسفة تغفل عنه أحيانًا .

٦ — الضرورة

يوجد فوق أهواء المشترعين الذين لا يفتأون يسنون القوانين فى سبيل اصلاح المجتمع سيد قاهر أعنى : الضرورة ، فالضرورة — وهى لا تبالى بتأملاتنا — تمثـل القدر القديم الذى كانت الآلهة نفسها مكرهة على الخضوع له .

والاختلاف بين أوامر المشترعين العمى وبين الضرورة المسيطرة على الأشياء يزيد كل يوم ، ومع هذا الاختلاف ترى أن المجتمع الفرنسوى يعيش على رغم قوانينه لا بقوانينه .

والمشترعون لظنهم أنهم قادرون على عمل كل شىء لا يبقى ما هو غير ممكن فى نظرهم ، فيكفى عندهم أن يكون الشىء سـديداً ليكون ممكنًا ، ولـكن الضرورة لا تلبث أن تبدد بيدها الحديدية جميع أوهامهم وخيالاتهم ، ونرى فى التدابير القاسية التى أملتها الضرورة فى اوستراليا ضد الاعتصابات المهددة لحياة تلك البلاد والمؤدية

الى خرابها مثالاً بارزاً على ذلك ، والغريب فى هذه المسألة هو أن أعضاء الوزارة الاسترالية كانوا من الاشتراكيين المتطرفين .

الفصل الثالث

لماذا تختلف الآراء ولماذا لا يقدر العقل على تقويمها .

---

١ — اختلاف الأمزجة النفسية يورث اختلاف الآراء .

فى جميع المواضيع التى يستحيل اثباتها إثباتاً علمياً يعظم الاختلاف فيما يدور حولها من الآراء ، ولما كانت الآراء قائمة على عناصر عاطفية أو دينية فإنها تتبدل على الخصوص بتبدل البيئة والخلق والتربية والمنفعة الخ .

وعلى رغم هذه التبدلات توجد مناحٍ عامة تسوق الاشخاص أنفسهم الى إبداء آراء من فصائل واحدة ، فما هو مصدر هذه المناحى يا ترى ؟ نكتشف هذا المصدر عند ما نحقق أن الامة ليست عبارة عن أشخاص يختلفون بتربيتهم وأخلاقهم فقط ، بل بصفات انتقلت اليهم بالوراثة على الخصوص .

والمجتمع فى أول الامر يتكون من أشخاص لا يختلف بعضهم عن البعض الآخر الا قليلاً ، إذ لا يكون عندهم وقتئذ نفسية أخرى غير نفسية قبيلتهم ، ولكن عوامل التطور والانتخاب لا تلبث أن تجرى حكمها فيتفاوت الناس بالتدريج ، حينئذ يترقى بعضهم مسرعاً والبعض الآخر متثاقلاً ، وهكذا يتفاوتون فى قطع مراحل الطريق الواحدة .

وينشأ عن ذلك ان المجتمع فى دور من أدوار تطوره يحتوى على أناس يمثلون جميع الاطوار التى اجتازها ذلك المجتمع بالتتابع ، ولما لم يقطع بعض هؤلاء الناس حدود نفسية دور سابق فإن هذا البعض لا يستطيع أن يلتئم مع دور لاحق ، اذاً فالحضارة باصلاحها الناس لا تقدر على تحويلهم بالتساوى ، فالناس بدلاً من ان يسيروا

نحو المساواة التى تدعو اليها أوهامنا الديموقراطية فى الوقت الحاضر فأنهم صائرون الى تفاوت زائد ، ولا يكون مبدأ المساواة الذى كان سنة الاجيال الغابرة ناموس الحال والمستقبل .

وعلى ما تقدم تكون الحضارة بترقيها التدريجى قد أتت بعمل كعمل الساحر فنشرت فى وقت واحد على الأرض الواحدة رجال المغاور والكهوف وأمراء الاقطاعات ومتفننى دور النهضة وعمال الدور الحاضر وعلماءه .

وكيف تكون عناصر الشعب المختلفة ذات اشتراك ووحدة ؟ نعم قد تتكلم الأمة فى الظاهر بلغة واحدة ولكن الألفاظ لا تلبث أن توقظ فى أبناء هذه مبادىء ومشاعر وآراء متباينة الى الغاية ، وعمل الحكومات الشاق فى الوقت الحاضر هو أن تحفظ النظام بين هؤلاء الوارثين لأمزجة نفسية كثيرة الاختلاف يتفاوتون بها فى الالتئام مع بيئتهم ، ومن العبث أن تسعى فى جعلهم متساوين ، فهذا أمر لا يتم بالأنظمة والقوانين ولا بالتربية .

ومن الاوهام الكبيرة السائدة فى هذه الأيام هو الاعتقاد أن التربية تساوى بين الناس ، والحقيقة هى أن التربية تظهر مواهب الرجال ولكنها لا تساوى بينهم أبداً ، فما اكثر حملة الشهادات من رجال السياسة وخريجى الجامعات الذين لهم مزاج الهمجى النفسى ودليل الهمج فى الحياة .

٢ — عناصر تقويم الآراء

ليس للآراء ما للمعتقدات من ثبات ، وقد تبلغ الآراء فى تقلبها مبلغاً يجعلنا نظن أننا قادرون على تقويمها بسهولة ، والواقع خلاف ذلك .

ان الطريقتين اللتين تتبادران الى الذهن فى اصلاح الآراء وتقويمها هما العقل والتجربة ، وقد رأينا أنه لا تأثير للعقل فى المعتقدات الراسخة ، وسنرى الآن هل يؤثر احياناً فى الآراء البسيطة بتأثيره الضعيف وسنرى انه لما دلّت المعرفة على عدم كفاية العقل لاضاءة نور الحقيقة ظهر نظامان سياسيان صارت اليهما جميع الحكومات فى الامم منذ بداءة التاريخ .

ولكن اذا كان العقل لا يكفى لاصلاح آرائنا فبأى شىء نبصر الحقيقة فى عالم السياسة والاخلاق والاجتماع ؟ سأبين فى الفصل الآتى أنه ليس عندنا لادراك ذلك سوى طريقة واحدة أعنى التجربة . فلنبحث الآن عن الشأن الذى عُزى الى العقل ،

٣ — شأن العقل فى تكوين الآراء والاحكام المهمة .

تأثير العقل كبير فى جميع الآراء العلمية والفنية . وأما خطأ علماء النفس والفلاسفة فناشىء عن اعتقادهم أن للعقل مثل ذلك التأثير فى الآراء العادية ، وقد زعم زعماء الأحزاب الخياليون أنهم يستندون الى العقل فى تكوين آرائهم ، حتى ان رجال العهد نصبوا له تمثالاً و بأسمه يسن فرسان البيان فى الوقت الحاضر النظم والقوانين .

غير ان الاختبار يثبت ان تأثير العقل قليل لا في حياة الشعوب وحدها بل فى سيرنا اليومى وقد أشار (تاين) الى ذلك فقال : « لو احتجنا الى الاعتقاد أن الآلهة هى التماسيح لأقمنا للتماسيح معبداً فى ميدان كاروسيل »

وعندى أنه يظهر يوم إقامة هذا المعبد كتيبة من الاساتذة والمحامين الماهرين لتبرر بناءه بأدلة و براهين عقلية . فالعقل يذعن على الدوام لأكثر اندفاعاتنا العاطفية والدينية المخالفة للصواب كى يزكيها .

والواقع هو أن الآراء اليومية تتكون مستقلة عن كل عقل وقد لا تكون ضد العقل ، و بما أننا نسترسل فى اندفاعاتنا العاطفية والدينية التى توجب تلك الآراء فاننا نتخيل أن الآراء المذكورة صحيحة ولا نسمح لأحد بأن يسفهها ، ثم لو كان العقل سبب آرائنا الحقيقى لما بدا من جميع الناس سوى رأى واحد فى كل موضوع ولكان الأمر كما فى القضايا العلمية المسلم بهـا لا كما فى النظريات العلمية التى ليست سوى تفاسير يمليها المنطق العقلى أحيانا بتأثير المنطق الدينى أو المنطق العاطفى .

وكلما ابتعدنا من منطقة العلم الخالص أى كلما مررنا من دائرة المعرفة لندخل فى دائرة المعتقد يزيد الاختلاف بين الآراء فى جميع المواضيع ، وقد يبدو هـذا الاختلاف فى المسائل التى يلوح أن العقل هو المسيطر عليها كالأحكام القضائية مثلاً

وسنستعين بهذه الأحوال البارزة لنثبت كيف يصعب على المنطق العقلى أن يتخلص من تأثير العاطفة والدين .

فلنقسم الرجال الذين فُوِّض اليهم أمر القضاء بين الناس كى نصل الى هـذا الغرض ، حينئذ نرى على أسفل درجة فى السلم أولى النفوس الذين يتكون رأيهم بتأثير المنطق العاطفى دون غيره ، ثم نرى على أعلى درجة فى ذلك السلم رجالاً ذوى أمزجة نفسية لا تؤثر فيهم سوى براهين المنطق العقلى .

والى الصنف الأول ينتسب المحلفون فى محاكم الجنايات ، فالمحلفون لكثرة عددهم تتألف منهم جموع ويكتسبون ما للجموع من صفات أى لاتؤثر الأدلة العقلية فيهم الا قليلاً ، فيمكن تحويل قناعتهم بالتأثير فى مشاعرهم ، وعلى ذلك فان المرأة التى تقترف جناية كبيرة ويكون لها ذرية صغار يجدون فى طلبها باكين لا تلبث أن تصير محطا لتوجع المحلفين ورحمتهم ، وإذا كانت المجرمة امرأة حسناء قتلت عاشقها بتأثير الحسد والغيرة فان المحلفين فى فرنسا يرحمونها أكثر مما يرحمون الأولى فيبرئونهـا وأما فى انكلترا فيحكمون عليها بالاعدام ، وبهذه الحالة يتجلى لنا تأثير العرق فى تكوين الآراء .

وفوق الصنف المذكور الذى تستحوذ عليه المشاعر يجىء قضاة المحاكم الابتدائية فهؤلاء هم من الحداثة بحيث يمكن أن تؤثر أدلة المشاعر فيهم ، واذا كان المحامى مشهوراً فانه يخلبهم ، ومع هذا فقد يتأثرون من الأدلة العقلية ، اللهم اذا لم تعترضها منافعهم الشخصية ، واحيانا يكون لرغبتهم فى الرقى وللعوامل السياسية تأثير عظيم فى آرائهم ، ولذلك تكون أحكامهم متقلبة مشتبهاً فيها ، يحدث عندى هـذا الاعتقاد كون محاكم الاستئناف تنقض ثلث احكامهم على وجه التقريب .

ودرجة قضاة محاكم الاستئناف هى فوق درجة أولئك ، إذ لمـا كان هؤلاء القضاة اكبر سناً واعظم تجربة فانهم يخضعون لتأثير المنطق العقلى اكثر مما لتأثير المنطق العاطفى .

ثم نشاهـد على ذروة السلم قضاة محكمة النقض والابرام ، فبما أن القضاة المذكورين طعنوا فى السن فأصبحوا من الشيوخ وصارت علائم الهرم بادية عليهم ،

وبما أنهم اضحوا لا يبالون بالمنافع الشخصية ولا يعلمون للرحمة والعاطفة معنى فانهم يتمسكون بدائرة القانون نفسها غير ناظرين الى الأحوال الخصوصية ، ولذلك لا يذكر المحامون أمامهم أدلة مصدرها العاطفة بل يحاولون أن يؤثروا فيهم ببراهين العقل ، فدقائق القانون هى التى تستولى عليهم من كل الوجوه ، ولا يخلو ذلك من خطر ، لأن قاعدة الحقوق التى تكون عند وضعها صائبة لا تلبث ان تصبح غير صائبة بفعل تطور الأمور الاجتماعى ، ووقتئذ يجب تأويلها على وجه موافق لمقتضى الحال كما يفعل بعض القضاة فى أحكامهم التى هي فاتحة التشريع ، على هذه الطريقة صارت المبارزة جنحة بعد أن كانت جناية ، وكذلك زناء الأزواج الذى كان جناية يعاقب فاعلها بالسجن سنين طويلة أصبح جنحة خفيفة .

ظهر مماتقدم أن آراء بعض الرجال المتعلمين المتصفين بمزية الانصاف والمتجردين عن الهوى تكون فى الغالب مختلة ، وهذا مايؤيد بياننا القائل إن العقل وحده لم يكف لتنوير بصائرهم وتثقيف أذهانهم .

وإذا لم ننظر الى تلك الصفوة بل الى الاجتماعات كالمجالس النيابية التى يكون أعضاؤها فى الغالب سائرين وراء مصالحهم الشخصية وحرصهم السياسى نرى أنهُ لا شأن للعقل فى مقرراتهم ، حتى إنهم لايستمعون أحيانا الى ما يمليه العقل من براهين وهم لايقترعون الا على ماتوحيه اليهم منافع احزابهم أو مآرب منتخبيهم .

أجل ، إنه يستشهد بالعقل فى المجالس النيابية ، غير أن العقل هو أقل العوامل تأثيراً فيها ، ويعلم نوادر الزعماء الذين يستطيعون أحيانا أن يغيروا اقتراع احد الاجتماعات السياسية أنهم لا يؤثرون بالمعقول فى السامعين بل بتحريكهم مشاعرهؤلاء ويستعينون على ذلك ببضع صيغ لها ما لآيات الدين من التأثير .

٤ — شأن العقل فى تكوين الآراء اليومية

تبين لنا ما للعقل من الشأن الضئيل فى مقررات صفوة الرجال وأحكامهم ، وشأن العقل يكون أقل من ذلك فى تكوين الآراء اليومية ، إذ إننا بالحقيقة نرى

آراء مختلفة فى مواضيع لو تناولها العقل لم يصدر فيها سوى أحكام متجانسة ، ويتجلى هـذا الاختلاف عند الوقوف على شأن العناصر الدينية والعناصر العاطفية فى تكوين الآراء .

ولا ينشأ اختلاف الرأى — كما يزعمون أحيانا — عن تفاوت فى تعلم الذين يبدونه ، لأننا نشاهد صدور هـذا الاختلاف عن أناس تقاربوا علماً وذكاء ، وقد يثبت لدينا ذلك عنـد اطلاعنا على الأجوبة التى جمعت فى أثناء استقراء بعض المسائل المعينة .

ومن بين الأمثلة الكثيرة اورد مثالاً بارزاً نشرهُ الموسيو (بينيه) فى احدى المجلات واليكه : لمـا أراد الموسيو (بينيه) أن يطلع على نتائج حذف تاريخ الفلسفة من برامج المدارس الثانوية أرسل سؤالاً الى جميـع الاساتذة الذين كانوا يدرسونه عن رأيهم فى الحذف المذكور ، إلا أن الأجوبة التى أخذها عن ذلك كانت متناقضة ، إذ عَدَّ بعض الاساتذة حسناً ما عده البعض الآخر مضراً ، ثم سأل الموسيو (بينيه) مستنتجاً : «كيف يستحسن أستاذ اصلاحاً يمقته زميله ؟ فياله من أمر مفيد أثبت للأساتذة أن آراء البشر تكون نسبية حتى آراء اصحاب الكفاءة من الرجال ! »

وقد حدث مثل التناقض المذكور فى جميع المواضيع وفى كل زمان ، ومع ذلك فان الانسان مضطر الى اختيار أحد الآراء كى يسير فى الحياة ، فكيف يقع هـذا الاختيار ؟ اكتشف الناس حتى الآن طريقتين فقط : إما قبول رأى الأكثرية وإما قبول رأى رجل واحـد نُصِبَ ملكاً ، ومن هاتين الطريقتين تشتق جميع النظم السياسية .

لاشك فى أن الرأى اذا دعمته الأكثرية لا يكون لهـذا السبب أرقى من الرأى المخالف ، كما أن رأى الفرد الذى ألزم الناس به قد لا يكون اسمى من غيره ، وإنما ضرورة السير هى التى توجب اختيار احـدى الطريقتين ، فلولا الاختيار لوقع تذبذب فى الأمور وبطل السير والحركة .

ورأى الفرد الذى هو على جانب كبير من الفضل والعبقرية يكون على العموم

أرقى من رأى المجموع ، ولكن إذا كان الفرد قليل الفضل فان آراءه قد تكون كثيرة الخطر ، ومن يتصفح تاريخ المانيا وفرنسا منذ خمسين سنة يشاهد أدلة عديدة على فوائد تينك الطريقتين ومحاذيرهما أى استبداد الفرد واستبداد المجموع .

الفصل الرابع

تقويم الآراء بالتجربة

---

١ — التجربة فى حياة الامم

رأينا فى الفصل السابق كيف أن المنطق العقلى فى اكثر المواضيع — ما عدا المسائل العلمية — لا يأتى الا بملاحظات مبهمة تلجىء الناس الى اختيار احدالطرفين : اما السير حسب رأى الاكثرية و إما السير حسب رأى فرد نُصب ملكاً ، ولكن لما كان الاذعان لرأى لا يكفى لتحويل هذا الرأى الى حقيقة فكيف نكتشف قيمة الرأى الصحيحة ؟

لا يظهر لنا ذلك إلا بالتجربة ، تلك الطريقة البطيئة الغالية التى لا تطبق والحالة هذه على جميع المواضيع ، فهى إزاء المعتقدات الراسخة عاجزة عجز العقل ، وأما فى آراء الجموع كبعض الآراء السياسية مثلاً فأنها لا تلبث أن تؤثر إذا كانت بارزة مكررة

إن حياة الأمم اكبر دليل على ضرورة التجارب المكررة البارزة ، فيجب أحياناً تخريب مدن كثيرة و إراقة دماء غزيرة كى تفقه أمةٌ بضع حقائق تجريبيّة ، وفى الغالب لا تستمر استفادة الأمم من التجارب زمناً طويلاً ، لأن ضعف ذاكرة المشاعر يؤدى الى عدم انتفاع جيل لاحق بتجارب جيل سابق ، فلقد شاهدت جميع الأمم منذ بدء العالم أن الحكم المطلق يعقب الفوضى ، ومع ذلك فأنها لم تستفد من هذا الدرس الأبدى ، وقد أثبتت الحوادث المكررة أن الاضطهاد هو أحسن وسيلة لانتشار معتقد دينى ، ومع ذلك نرى المظالم تقع بدون انقطاع ، وقد علّمت التجربة أن الاذعان إزاء وعيد الغوغاء يبطل عمل الحكومات ، ومع ذلك فإن رجال السياسة لا يزالون

ينسون هذه الحقيقة ، وكذلك التجربة فانها دلت دلالة قاطعة على أن منتجات الحكومة تكلف — لأسباب نفسية صادقة — ثمناً أغلى من ثمن المنتجات الخصوصية ومع هـذا يكدح الاشتراكيون كل يوم فى اكراه الحكومة على احتكار صنع مصنوعات جديدة .

ولا تؤثر التجارب الا اذا كانت بارزة كما بينت آنفاً،وهاك مثالاً جديداً مشهوراً على ذلك : لقد أنبأ علماء النفس وجميع علماء الاقتصاد وجميع اكابر التجار بأن اشتراء خطوط الأويست (الغرب) الحديدية وإدارتها من قبل الدولة يكلف ثمناً غالياً ، ولو كان الأمر متعلقاً بالثمن لما شعر الجمهور بذلك كثيراً ، غير أن إدارة الدولة لهذه الخطوط أوجبت فى بضعة أشهر وقوع نكبات هائلة وزهوق نفوس كثيرة مما جعل الناس يدركون عاقبة تلك التجربة الصارمة ولا يجرؤون على مطالبة الدولة باشتراء خطوط حديدية اخرى .

٢ — صعوبة ادراك العوامل التى هى سبب التجربة .

ولا يستدلن القارىء من كون التجارب البارزة كالتجربة التى أشرنا اليها فى المطلب السابق تستطيع أن تحول الآراء أنه يسهل إدراك العوامل التى سببت هذه التجارب ، فوزير الاشغال العامة لم يكتشف العلل الخفية لتلك النكبات التى دلت على وجود فوضى بارزة فى ادارة الخطوط الحديدية المذكورة ولما اعترف بأن مصدر النكبات هو ما يقع بين القطارات من الاصطدام وان سبب الاصطدام هو خلل النظام ظنّ انه قادر على اصلاح الخلل بعزل المدير ولم يتوسل المدير الجـديد الى تقليل النكبات بسوى نقص عدد القطارات وتحديد سرعتها .

وماذا يستطيع المدير أن يصنع إزاء معلولات نشأت عن علل لا تأثير له فيها ؟ انه يعجز عن منح إدارة الدولة مالا تملكه من قابلية صناعية وعن ايجاد نظام وهمة واحترام للأوامر فى موظفين يسوقهم زعماء حراص محرضون .

جاء فى جريدة الطان ما يأتى : « كيف نجـد مستخدمين صادقين فى ادارة خطوط حديدية لم يقترع نواب المديريات على ابتياعها الا ليعينوا فيها من هم تحت

رغبتهم ؟ وكيف نأمل أن نرى فى هؤلاء الموظفين خضوعاً تاماً والحكومة تنظر الى جميع مساوئهم بعين الاغضاء حاسبة حساب كثير من النواب المشاغبين ؟ ثم قالت تلك الجريدة مستنتجة : ننتظر من الدولة التى تخبط فى ادارة خطوطها الحديدية خبط عشواء أن تسلك محجة الصواب فتترك الشركات حرة فى ادارة خطوطها غير مُلزِمة إياها اموراً ممقوتة شاهدت هى بنفسها ماذا تجر هذه الامور وراءها من النتائج المضرة.»

ولكن هذا الأمل لاغ ، فالدولة — أى النواب المسيرون للدولة - ما فتئت تجور على الشركات وتحملها ما لا تطيق وتحث على عدم النظام وعلى زيادة مطاليب موظفيها غير أن مقادير الأمور التى هى فوق الخطب أتت بدرس تجريبى جديد لا ريب فى أنه سيصبح مفهوماً : فقد ذكرت منذ بضع سنين فى مقالة نشرتُها فى احدى المجلات أن من نتائج مداخلة الحكومة الجائر فى أمور الشركات هو هبوط قيم اسهم هذه الشركات أى نزول أثمان عنصر ثابت من عناصر ثروة البلاد العامة ، وما لبث هذا التنبؤ أن تحقق بسرعة ، إذ إنه أصاب اكثر الأسهم سقوط عظيم حتى أنه بلغ ١٧ فى المئة فى شركة (ليون) ، فبعد أن كان سعر سهم هذه الشركة فى المصفق ١٫٣٨٥ فرنكا فى شهر شباط سنة ١٩٠٩ صار ١٫١٥٠ فرنكا فى شهر شباط سنة ١٩١١ ، ولكى يكون هذا الدرس التجريبى ذا تأثير مفيد يجب أن يستمر الهبوط اكثر من ذى قبل .

وتؤدى العلل الواحدة الى نتائج واحدة ، ولذلك لا نعجب من مصادفتنا فى اسطولنا الحربى فوضى كالتى فى خطوط الدولة الحديدية ، واليك تقرير مقرر ميزانية البحرية الذى نتخذه دليلاً كافياً على صحة قولنا :

« ولقد أنفقت المانيا منذ سنة ١٨٩١ حتى سنة ١٩٠٦ على بحريتها ٢٫٥٠٨ ملايين وأنفقت فرنسا ٣٫٨٠٩ ملايين ، ومع أن الفرق ١٫٣٠٠ مليون فان المانيا استطاعت أن تبنى لها أسطولاً أقوى من أسطول فرنسا . فهذه الارقام تكفى لانتقاد إدارتنا ، ولا يزال الرأى العام غير مبال بذلك،فيجب لتحريكه واثارة مجلس النواب وقوع كوارث هائلة وحدوث نكبات عظيمة وسفك دماء كثيرة لا إلقاء خطب وتلاوة بيانات . ها إن المدرعتين (فارفاده) و (لوتان) تغرقان بعد غرق المدرعات (سوالى)

و (شانزى) و (نيف) و (فينا) ، وهاهى المدافع تنفجر فى المدرعة (الكوروون) والجنود تُبتَر ، ثم هاهى المدرعة (ينا) تفور كالبركان ، فبعد هـذه النازلة الاخيرة لا يجوز اتهام المصادفة والاتفاق ، وانما يتحتم علينا أن نبحث فى الامر بحثًا عميقًا .

« فقد علم الرأى العام وهو حائر مشدوه الى الغاية أن بحريتنا تحتاج — على رغم مئات الملايين الكثيرة التى أنفقت فى سبيلها — لا الى مراكب حربيـة قوية فقط بل إلى مدافع وعدد وميرة ومعامل للاصلاح أيضًا ، ولم يكن النقد هو الذى يعوزنا ، فعندنا منه ما يكفى لجعلنا أقوى من ألمانيا ، ثم قال المقرر إن هذه الحقائق ثقيلة مفجعة »

حقا إنها ثقيلة مفجعة ، ومن دواعى الأسف أنه ليس عنـدنا ما يجعلنا نأمل أن تزول أسباب تلك النتائج الكثيرة ، ونعد من هذه الأسباب : اختلال النظام الزائد بين عمال دور الصناعة الحادث بفعل كثير من المحرضات اليوميـة ، وانحلال مصالح الدولة بتأثير ما بين الموظفين — الذين يحسدون بعضهم بعضًا — من مناظرة ومزاحمة ، والاشتراكيُّون الذين يرغمون الحكومة أن تصنع بنفسها ما تصنعه المانيا فى مصانع الأفراد الخصوصية .

ظهرت نتائج التجارب في المسائل المذكورة بسرعة ، ولكن قد لا تظهر هذه النتائج الا ببطء ، فالقضاء على الاسطول الروسى بغتة من قبل المدرعات اليابانية وعجز نسافات الروس عن أن تحول دون ذلك كانا ضروريين لندرك خطأنا العظيم فى عدولنا منذ بضع سنين عن إنشاء مدرعات كى نصنع مكانها بارجات صغيرة ونسافات ثبت الآن أنها غير مفيدة ، وهكذا أضعنا مئات من الملايين وظلت بلادنا عاطلة من وسائل الدفاع حتى أثبتت التجربة خطلنا فعزمنا على بناء أسطول جديد

وإذا كانت التجربة فى الغالب ضرورية لتحقيق قيمة الآراء فذلك لأن اكثر الآراء تتكون من دون أن تبالى بغير ظواهر الأمور ، ففى المسئلة التى استشهدنا بها دل الرأى المستند الى بعض الظواهر على أن النسافات الرخيصة تدمر المدرعات الغالية بسهولة ولذلك رؤى أن من العقل والصواب ترك هذه و إنشاء تلك

ولا تبدو النتائج البعيدة للتدابير القائمة على ظواهر المعقولات الا لذوى البصائر الثاقبة الذين لا يكونون فى الغالب من القابضين على زمام الأمور ، فقد بينت فى كتابى

نسمى « روح السياسة » ضرر كثير من القوانين التى كان يظهر أن العقل هو الذى أملاها ، وسرعان ما أثبتت التجربة أن تأثير اكثر هذه القوانين الجائرة منافٍ حتى لمنافع الذين وُضعت لحمايتهم .

ونورد الحادث الآتى الذى وقع حديثًا فى مدينة (ديجون) مثالاً على تلك النتائج : لما أوجبت احدى المصادفات الضالة انتخاب بلدية اشتراكية لتدبير أمور هذه المدينة تصور أعضاء البلدية المذكورة أن يساعدوا العمال على أن يجعلوا مكان مكوس الدخولية ضرائب ترهق الاغنياء وفعلاً أجروا ذلك ، ولكن الأمر لم يلبث أن انقلب الى ضده ، لأن معيشة العمال بدلاً من أن تصبح رخيصة صارت أغلى منها فى الماضي كثيراً ، وهكذا علمت التجربة الاشتراكيين أن سنن الاقتصاد التى يُستخف بها عند عدم إدراكها لا تسمح بفرض أية ضريبة على طبقة واحدة دون غيرها ، فاذا فُرضت هذه الضريبة فانها توزع فى الحال — ولكن على وجه غير مباشر — على الطبقات الباقية أيضًا لا على التى فرضت عليها وحدها .

دروس التجربة تكون فى الغالب بارزة ، فلماذا يعجز كثير من رجال السياسة الذين هم على شىء من الذكاء عن فهمها ؟ أجيب عن ذلك قائلاً — كما بينت فى الفصول السابقه — إن التجربة لا تؤثر فى المعتقدات على وجه التقريب ، ولما كانت مبادىء زعماء الاحزاب المتطرفة من فصيلة المعتقدات لامن فصيلة الآراء فانها تستند الى دعائم عاطفية دينية لا يقدرون على مقاومتها .

وليس للعقل الذى يستشهد به المشتغلون بالسياسة تأثير فى هؤلاء كما أنه لا تأثير له فى أنصار أى إيمان ؛ فالحقائق العاطفية أو الدينية هى التى تقودهم جميعًا ، فهم وإن كانوا ذوى سلطان على خطبهم فانهم لا سيطرة لهم على المحرضات الخفية التى تملى عليهم تلك الخطب .

وبعد ان اطلعنا على تكوين الآراء - التى ليس فيها من المعقول سوى الظواهر - تكوينًا خفيًا فاننا لا نحنق على عدم فطنة من أبدوها ، فالحقائق التى لا يدركها غير من لا دليل لهم الا المنطق العقلى تظل خافية على من لا دليل لهم غير المعتقد

الباب السادس

آراء الجموع ومعتقداتها

الفصل الأول

تكوين الآراء بتأثير الجموع

« العرق ، البيئة ، العادة ، الزمر الاجتماعية »

١ — تأثير العرق في المعتقدات

الجموع لها شأن كبير فى تكوين كثير من الآراء وهى الناظمة لها ، وليس عند أكثرية البشر الساحقة سوى آراء الجموع ، حتى أن أغلب الناس استقلالاً لهم ما لزمرهم الاجتماعية من آراء . وقد بينا ذلك سابقاً ، وسيظهر الآن على شكل اوضح عند ما نبحث عن المؤثرات الاجتماعية فى تكوين آرائنا ومعتقداتنا . وهذه المؤثرات هى : العرق والبيئة والعادة والزمرة .

فلنباشر فى البحث عن تأثير العرق : دلت التجربة والاختبار على أن للأمم ذات الماضى الطويل آراء ومعتقدات واحدة فى بعض المواضيع الأساسية ، وتظهر هذه الوحدة بعد تكوين روحها القومية ، ولاختلاف هذه الروح باختلاف الأمم فان الحوادث الواحدة توجب فى الأمم المختلفة انعكاسات متباينة .

ليس اليوم مايسمونه العروق الخالصة موجوداً بالمعنى العلمى الصحيح ، وإنما لما خضعت أمم تنتسب الى جنس واحد او الى اجناس كثيرة متقاربة قروناً طويلة لمعتقدات واحدة وانظمة واحدة وقوانين واحدة ولغة واحدة تكون منها عرق تاريخى كما فصلت ذلك فى كتاب آخر ، حينئذ صار لهذا العرق فى كثير من المواضيع

سياسية كانت أم أخلاقيـة أم دينية افكار ومشاعر مشتركة اصبحت راسخة فى النفوس بحيث يسلم بها جميع ابنائه غير مجادلين .

إذاً ليست روح الشعب عبارة عن تصور نظرى بل هى حقيقة ذات حياة تكونت من تقاليد وأفكار وأساطير وخيالات متكاثفة فى النفس تكاثفا ارثيًا ، وحسب متانة هذه الروح تكون قوة الشعب .

واذا كان اتحاد الناس ناشئًا عن فتوحات قسرية فانه يتكون منهم مجموع موقت سريع الانحلال مادامو عاطلين من روح قومية ، واذ لم ينالوها يظلون برابرة ، لأن القضاء على مقومات الماضى النفسية يؤدى حتماً الى وقوع الشعب فى طور الهمجية

ويكون اختلاف الآراء عند الأمة ذات الروح القومية المتينة فى المواضيع التى لا أهمية لها ، واما فى الأمور الكبيرة فانه يحدث عندها اجماع فى الرأى ، وقد أتى الانكليز بمثال بارز على ذلك فى حرب الترنسفال ، فانهُ عندما توالى انكسار الجيوش البريطانية امام فلاحى البوير سنحت لجرائد الحزب المعارض فرصة مهاجمة الوزارة ، ولكن ذلك لم يخطر على قلب كاتب ، ولو خطر على باله لردعته روحه القومية عنه .

ولا تتجلى الروح القومية الا فى ما يتعلق بالمنافع العامة العظيمة ، وهذه الروح لا تمنع الأفراد من ان يكونوا ذوى آراء شخصية ذات ثبات كما أن صفات النوع فى التاريخ الطبيعى لا تمنع ذلك النوع من اتصافه بصفات الجنس الذى يشتق منه .

قد لاحظنا آنفا أن تكوين الروح المشتركة لا يتم الا فى الأمم التى لا يختلف بعضها عن بعض الا قليلاً ، فاذا كانت على اختلاف كبير فانها لا تلتحم ، لأن أفرادها لما كانوا مختلفين روحًا فان تأثير الأشياء الخارجية فيهم يكون متباينًا ، وهذا ما يمنعهم من أن يكونوا ذوى آراء مشتركة فى أى موضوع ، فحال التشك والمجر فى النمسا والايرلنديين فى انكلترا يؤيد صحة هذا الناموس .

توالد الشعوب الكثيرة الاختلاف يغير المؤثرات الارثية ، ولكن الأفراد يفقدون بهذا التوالد كل ثبات نفسى ، ولذلك يتعذر حكم الأمة المولدة ، يثبت هذا ماهو واقع فى جمهوريات اميركا اللاتينية من الفوضى .

ويرسخ ميراث الماضى كلما شاخت الأمة ، وما كان سر قوة الأمة يصبح بفعل الزمان سبب ضعفها ، وكلما صعب التئامها مع أى مبتكر حديث اصبحت أفكارها وآراؤها اكثر تقيداً منها فى السابق .

ويقع كل يوم تصادم بين الشعور الذى يهيمن عليه العقل وبين المحرضات الارثية التى لا تأثير للعقل فيها ، وما تأتى به الأمم من ثورات عنيفة لتتخلص بها من نير الماضى الثقيل فذو تأثير غير دائم ، لأن الثورات وإن أمكنها أن تهدم الأشياء وتخربها فانها لا تبدل النفوس الا قليلاً ، وعلى هذا نرى أن آراء فرنسا القديمة ومعتقداتها ذات تأثير عظيم فى فرنسا الحديثة ، وما وقع فيها من تغيير ففى الظواهر فقط .

٢ — تأثير البيئة في الزمر الاجتماعية

تؤثر البيئة الاجتماعية فى آرائنا وسيرنا تأثيراً شديداً ، فهى تولد فينا أدلة غير شعورية تقودنا من حيث لا ندرى ، ويتألف من كتب أحد الأدوار وجرائده ومناقشاته وحوادثه وسط هو مع خفائه يعين وجهة سيرنا ، وفى هذا الوسط بذور لمبادىء فنية أو أدبية أو علمية أو فلسفية يكسوها اولو العبقرية أحيانا شكلاً ساطعاً زاهراً .

وما فى البيئة من آراء متين ، حتى أن الرجل الذى يغير بيئته يضطر الى الاذعان لآراء بيئته الجديدة ، ولهذا السبب يسهل على اشتراكى فوضوى أن يصبح محافظاً عند ما يقبض على ناصية الحكم ، فكلٌ يعلم كيف استطاع نابليون أن يحول بسهولة غيلان العهد الذين لم يتسع لهم المجال ليتمادوا فى قصل الرقاب الى دوكات وحُجَّاب وبارونات .

تأثير البيئة الاجتماعية عامٌ ، وأما الزمرة التى ننتسب اليها فهى التى تؤثر تأثيراً خاصاً ، وما فى المرء من معتقدات أو آراء شخصية مصدرها اختباراته وتأملاته فقليل الى الغاية ، فأكثر الناس لهم رأى زمرتهم أى طائفتهم أو طبقتهم وأهل مذهبهم أو حزبهم أو أرباب مهنتهم .

اذاً فلكل طبقة من طبقات الشعب — عمالاً كانوا أم قضاة أم ساسة — آراء خاصة ، وهذه الآراء هى مقياس لما يأتى به أفراد تلك الطبقة من الأحكام ، فالأمور فى نظر هؤلاء الأفراد تكون صواباً أو خطأً حسبما تكون ملائمة أو غير ملائمة لآراء الزمرة التى ينتمون اليها ، واذا قبل أحدٌ رأى زمرته فبلاجدال ، وإن لم يقبله لا يستطيع أن يعيش فيها .

ويؤدى التطور الحديث نحو الاشتراكية والنقابية الى زيادة عدد الزمر ولا سيما التى تدير بها الدولة احتكاراتها ، وما بين هذه الزمر من تحاسد فذوجفوة ، ولتلك الجفوة لا يبدو من الزمر المذكورة سوى العداوة والإهانة ، ولما لم تكن ذات تضامن يربط بعضها ببعض فإن انحلال مصالح الحكومة يزيد يوماً فيوماً ، وهذا هو أحد الاسباب العميقة العويصة فى تقهقر احتكارات الحكومة ، وقد ذكرت ذلك فى كتاب سابق فأثبت أن فى احتكار الدولة لأى مشروع بلية على ماليتها .

وتباين الآراء بين زمر الموظفين التى هى بالحقيقة سيدة البلاد لخفائها يبدو للجمهور قليلاً ، وأما آراء زمر العمال فهى بالعكس ذات ضجيج يجعلها ظاهرة منظورة ، وقد أخذت احقادها على الطبقات الأخرى تصبح عاملاً قوياً فى التطور السياسى الحديث .

وتتصور زمر العمال بتلقين زعمائها أنها وحدها هى التى أوجدت الثروة منكرة شأن رأس المال والذكاء ، وقد أصبحت أممية قائلة بمبدإ نزع السلاح ، فعَدَّ العمالُ لذلك زمرَ الحرف وطنَهم الحقيقىَّ غير ناظرين الى الأمم الموجودة فيها تلك الزمر .

٣ — تأثير العادة .

تشتق قوة المجتمعات والأفراد من العادة ، فالعادة تُغنى عن التأمل فى أى حال يبدو لينُظر فيه ، والبيئة والعدوى والتربية تُثَبِّت العادة فى الانسان والقوانين تؤيدها ، ولا تكون القوانين قوة إلاَّ إذا دعمت عادةً موجودةً قبل سنها .

واذ قد بحثت عن العادة آنفاً فانى أكتفى الآن بالعبارة السابقة ، وسندرس فى الفصل الآتى صفات آراء الجموع وقيمتها وتأثيرها .

الفصل الثانى

تأثير آراء الجموع ونتائجها .

١ — صفات الآراء الشعبية .

شأن الجموع الزائد فى الحياة السياسية يجعل البحث عن الآراء الشعبية ذا أهمية، ولما فسرتها كتيبة من المحامين والاساتذة الذين حرفوها واخفوا تقلباتها وعدم اتساقها وسذاجتها ظلت معروفة قليلاً، وقد بلغ تملقهم للشعب ذى السيادة مبلغ التذلل لأشد الملوك استبداداً فى الماضى ، ولا يزالون معجبين بحرصه الدنىء وشهواته ذات الجلبة والضجيج ورغائبه الخرقاء ، ولا قيمة للحوادث والحقائق عندهم ، فهم يرون أنه يجب على الطبيعة أن تخضع لأهواء العدد .

وتتصف الروح الشعبية التى بحثت عنها فى مؤلفات أخرى بكونها تخضع للمبادىء العاطفية والمبادىء الدينية خضوعاً تاماً ، وما فيها من اندفاعات مصدرها المشاعر والدين فلا يزجره أى دليل عقلى ، ولذلك فانها تسير حسب هذه الاندفاعات غير مترددة .

جهة الدين فى روح الجماعات أشد نمواً من جهة العاطفة ، وهذا هو علة احتياجها الشديد الى عبادة معبود ربًا كان أم صنماً أم وجيهاً أم مذهبًا ، والاحتياج المذكور يتدفق اليوم نحو الاشتراكية التى هى دين جديد قادر على تجديد البشر! وقد شوهد التدين الشعبى فى جميع الأجيال ، واذا لم يتجل فى المعتقدات اللاهوتية فانه يستولى على المبادىء السياسية ، فكل صفحة من صفحات تاريخ الثورة الفرنسوية تدعم قولنا .

أعود فأقول إن عجز العقل عن التأثير فى الجموع هو أهم صفاتها ، فالافكار التى تؤثر فيها هى المشاعر التى صُبت فى قالب أفكار لا الافكار العقلية ، ومع أنه وجب أن تكون هذه الحقائق معروفة عند الجميع فان ساسة العرق اللاتينى يثبتون بسيرهم أنهم لا يزالون غير مدركين لها ، وسيظلون فى الفوضى حتى يطلعوا عليها .

٢ — كيف يبقى شيء من الثبات فى الشعب على رغم تقلب آرائه

نصادف فى الآراء الشعبية صفتين متباينتين : التقلب والثبات ، فالتقلب يظهر أنه هو القاعدة ، إلا أنه ينطوى تحت هذا التقلب عناصر هى غاية فى الثبات ، كما انه يوجد تحت أمواج البحر المحيط السطحية مياه البحر الساكنة ، ويتجلى لنا جميع ذلك عند النظر الى ما طرأ علينا من التقلب منذ عصر .

حقاً يوجد خلف تقلب الجموع الدائم وغيظها الشديد وحماستها وغضبها العظيم وأحقادها التي أوجبت انقلابات عديدة غرائز محافظة متينة ثابتة ، فقد ظلت أشد الجموع اللاتينية ثورة شديدة المحافظة كثيرة التمسك بالتقاليد ، ولذلك لم تلبث أن أعادت النظم التى حطمتها باسماء جديدة .

ولم يفقه زعماء الجماعات أنها وإن كانت تأتى بالثورة فعلاً إلا أنها محافظة بمشاعرها ، فقد يسهل تحريك روحها بآراء سياسية يومية ، وأما مزاجها النفسى الأساسى فالزمان وحده هو الذى يؤثر فيه .

والعمل الآتى الذى قامت به الحكومة الانكليزية حديثاً يثبت لنا جهل الساسة للروح الشعبية وما ينطوي تحت تقلبها من ثبات وهو : لما تم انتخاب مجلس نواب جديد فى انكلترا لم يمنح الحكومة اكثرية كافية لاصلاح مجلس اللوردات ظنت أنها بخوضها معركة انتخابية حامية الوطيس تقدر على جعل الجموع الانكليزية تنتخب نواباً موالين يكفون لتنفيذ برنامجها ، ولكن على رغم ما أتت به من ضغط عنيف لم ينتخب الشعب سوى أعضاء المجلس السابق ، إذ إن الاكثرية التى كانت تستند اليها الحكومة قبل الحل بعد أن كانت ١٢٤ نائباً اصبحت ١٢٦ نائباً ، أى إن ما أتت به الحكومة من مجهود كبير لم يؤد إلا إلى زيادة عضوين موالين .

وما كان الوزراء بحاجة الى وقوف كبير على علم النفس كى يعلموا تلك النتيجة قبل وقوعها ، وكيف ظنوا أنهم — بعد أن استعملوا فى المرة الأولى جميع ما بأيديهم من وسائل ليؤثروا فى روح الشعب — يستطيعون فى بضعة أشهر أن ينالوا غير النتيجة السابقة ؟ أتاهم ذلك الظن من اطلاعهم على سرعة التقلب فى الجموع ناسين أن الثبات هو رائدها فى عدد من المواضيع الجوهرية ، ومن هذه المواضيع المبدأ الذى اتخذ

أساساً المعركة الانتخابية الثانيـة والذى يلائم مناحى الانكليز التقليدية التى يتعذر تحويلها .

وتصعب إدارة الروح الشعبية من غير أن يُنفَذ فيها ، وقد أثبت مرات عديدة كيف يجهل اولو الأمر كنهها ، فقد أتى قانون تقاعد العمال الجديد ليؤيد صحة أقوالنا دفعة أخرى ، وجهل هؤلاء الساسة لروح الأمم الأخرى أشد وأنكى ، يدل على ذلك سياسة الإدغام والتمثيل التى يسيرون عليها فى حكم مستعمراتنا .

٣ — قوة الآراء الشعبية قبل الجيل الحديث .

لم ينحصر تأثير الآراء الشعبية فى الوقت الحاضر وحده بل أجرى حكمه العظيم فى أدوار التاريخ المختلفة ، والسبب فى كوننا لم نطلع على ذلك هو أن تاريخ الأمم لم يبحث إلا عن الملوك ، فكأن ما حدث في أيام دولتهم من وقائع وأعمال قد تم بمشيئتهم ، ومع أن الكتب أغفلت أمر البحث فى تأثير الآراء الشعبية فان شأن هذه الآراء كان عظيماً فى جميع الأزمنة ، ومتى يأخذ التاريخ فى درس هذه الشعوب بعد أن يفرغ من الاهتمام بأمر الملوك يظهر لنا أن الجموع هى التى أوجبت بالحقيقة وقوع الحوادث الخالدة كالحروب الصليبية والحروب الدينيـة وملحمة سان بارتلمى والغاء مرسوم نانت وإعادة الملكية وتوطيد حكم نابليون الخ . فلولا الآراء الشعبية لما استطاع ملك أن يأمر بوقوع مذبحة سان بارتلمى ولما قدر لويس الرابع عشر صاحب السلطان المطلق على الغاء مرسوم نانت

ومن غير أن أخوض غمار التفصيل فى الموضوع اكتفى بأن اشير الى أن لويس الرابع عشر لم يفعل تلك الفعلة إلا بتأثير الرأى العام ، قال فاغيه : « لاشىء يدل على الشعبية مثل الغاء مرسوم نانت ، فهو تدبير أملته السيادة القومية ، وهو عمل جارت به الاكثرية على الأقلية ، وهو اسلوب ديموقراطى من كل وجه »

إن اكثر الحوادث التى سعى الجموع فى وقوعها هى أشد حوادث التاريخ شؤماً ، ومن حسن الحظ أن البلايا الصادرة عنها قليلة والفضل فى ذلك لصفوة الرجال الذين ضعف نفوذهم الآن ولـكنه كان قبلاً قادراً فى الغالب على تحديد تقلبات العدد وهيجانه

٤ — زيادة تأثير الجموع الحاضرة في تكوين الآراء ونتائج ذلك .

لما كان تأثير سلطان الجموع الزائد أحد العوامل التى لا مناص منها فى الحياة الحديثة فانه يقتضى أن نعرف كيف نعانيه ، وقد سلم (باسكال) بذلك حيث قال : « لماذا نتبع الاكثرية ؟ أَلِأنها اكثر عقلاً ؟ لا ، بل لأنها أعظم قوة » .

وبناء على ما فى العدد من قوة أوعلى ما أُعطى قادةُ العدد من سطوة تعتقد الجماعة التى هى العدد قادرة على فعل كل شىء ، وبذلك زاد عدد مصانعيها حتى أصبح الوزراء والمشترعون عبيداً لها ، وما أضعف رجال السياسة امام صخب الجموع وهزيزها ، فاكثرهم اعتدالاً يذعنون لها وفرائصهم ترتعد فرقاً ، ولا يتأخرون — كما لوحظ فى بريست — عن التوقيع على بيان لترويج مرشح للبرلمان مجرد عن الوطنية اذا أمرتهم بذلك لجان الانتخاب الساقطة .

على أن تلك العبودية هى الناموس السائد لجميع الأجيال ، فمتى طمع شعب فى الحرية أو تقهقر الى الاستعباد فانه يجد أساتذة ومحامين يبررون اندفاعاته تبريراً عقلياً مهما تكن هذه الاندفاعات خطرة ذات أهوال ، واليوم آراء الجموع هى التى تملى على المشترعين أمر سن القوانين ، وبما أن الاهواء الموقتة لا الضرورة هى مصدر القوانين المذكورة فان عاقبتها القضاء على الحياة الصناعية والاجتماعية والاقتصادية فى البلاد ، وأما اولو الأمر الإداريون فانهم يقتصرون على اتباع تقلبات الرأى لشعورهم بالعجز عن تكييفه فيزيدون ضغثاً على إبالة .

يشاهد وقوع ذلك كل يوم ، ومن الأمثلة المحزنة فى هذا الباب هو اعتصاب الملاحين الأخير الذى كاد يقضى على تجارة بلاد الجزائر ، فمنذ إعلان الاعتصاب المذكور اصبحت الجزائر فى حالة حصار بحرى ، وهكذا قُطعت المواصلات بين الجزائر والاقطار الأخرى ثلاثة أشهر سنة ١٩٠٤ وشهراً واحداً سنة ١٩٠٧ وشهرين سنة ١٩٠٩ وقد كان يكفى لمعالجة ذلك الحصار أن تعدل الدولة موقتاً عن نظام احتكار الملاحة الفرنسوية لبلاد الجزائر وأن تسمح للمراكب الأجنبية بأن تكون صلة اتجار بين الجزائر وفرنسا لأجل معين ، غير أن ميل النواب الى مداراة النواتى ذوى الحق فى الانتخابات النيابية أوجب عدم اكتراثهم لخسارة الجزائر التى تقدر بملايين كثيرة .

فازاء تلك الطاعة العمياء لأوامر الجموع أصبحت هذه الجموع اكثر تجبراً من ذى قبل ، وبما أن الروادع التى كانت تزجرها قد تحطمت على هذا الشكل فانها ترغم النواب على سن قوانين لا تلائم قاعدة العدل والانصاف ، ويقتضى الاتيان بشىء من التفصيل لاثبات الكيفية التى تتدرج بها الزواجر الاجتماعية الى الانفصام بعدما كانت فى الماضى تسكّن أهواء الجماعات واندفاعاتها .

تشتق روح التمرد فى الجموع من المبدإ القائل إن الوعيد والتخريب يكفيان لجعل أصحاب الأمر والنهى يخضعون لها ، والحوادث التى تدل على انتحاء تلك الروح كثيرة الى الغاية ، فهذه الحوادث تثبت ما طرأ على المزاج النفسى من تبدل أدى إلى زعزعته مبادىء الحقوق التى كانت تعتبر حصينة منيعة الجانب ، وإنى اكتفى على سبيل المثال بذكر قانون كان يظهر عند سنه – أيام اعتصاب موظفى الخطوط الحديدية – أنه متين ذو مقصد انسانى إلا أنه اوجب فى نهاية الأمر شللاً موقتاً فى حياة الأمة .

كانت الشركات تؤدى الى مستخدميها رواتب تقاعد أعظم مما يناله موظفو الدولة ، فاذا اعتبرنا الأرقام التى ذكرت فى مجلس النواب نرى أن راتب تقاعد مديرى المحطات كان ٣٫٥٠٠ فرنك مع أن الحد الأعظم لرواتب تقاعد المعدنين ٣٦٠ فرنكاً ولرواتب معلمى المدارس الابتدائية ١١٠٠ فرنك ولرواتب اساتذة المدارس الثانوية ١٫٣٨٥ فرنكاً ، ثم قال الخطيب الذى أورد هذه الأرقام ان راتب تقاعد مستخدمى الخطوط الحديدية ليس مما تجب زيادته .

ولكن لما كان مستخدمو الخطوط الحديدية ذوى شأن فى الانتخابات وتذرعوا بأنواع التهديد على صفحات الجرائد ظن ممثلو الشعب فى البرلمان أنه يسهل تنفيذ مطاليبهم ، فاقترعوا على زيادة رواتب تقاعدهم من دخل مساهمى الشركة ، وقلما يجرؤ مستبد على اتخاذ هذه الطريقة قائلاً للمساهمين : يحسن بى أن اخفض دخلكم القليل لأزيد رواتب طبقة من المستخدمين أنا فى احتياج اليهم ، فأطيعونى وأدوا ما أفرضه عليكم .

ان الخطوط الحديدية هى عبارة عن مشاريع خاصة قامت على عقود لا يقدر

على نقضها غير العاقدين ، ومع أنه كان يقتضى أن يتأمل فى هذه الحقيقة مشترعون ، لم تعمهم النظرية القائلة ان الدولة التى تمثل الجموع قادرة على فعل كل شىء ، لم يظهر فى مجلس الشيوخ سوى الموسيو (ريمون بوانكاره) لبيان ما ينتج عن مداخلة البرلمان التى ترمى الى سلب طبقة من طبقات الأمة فى سبيل طبقة أخرى من نتائج سيئة ، وما كان هذا السياسى الفاضل واثقاً كثيراً بصحة كلامه ، فبعد أن بين محاذير لائحة الحكومة الخطرة كان من أول المقترعين لها ، وبذلك أعان على اختراق حرمة مبادىء الحقوق الجوهرية .

وقد رأى موظفو الخطوط الحديدية فى نجاح وعيدهم ما شجعهم على المطالبة بزيادة رواتبهم زيادة عظيمة ، فأزمعت الشركات على المقاومة فنشأ عن ذلك أن أتى أولئك الموظفون باعتصاب أخل بجميع خطوطنا الحديدية .

ولم يكن ذلك كله سوى فاتحة أمور أخرى ، اذ إن العمال ذوى الرواتب المؤلفة من مئتى أو ثلاثمئة فرنك لم يرضوا طبعًا بهذه الرواتب بعد أن رأوا زملاءهم الموظفين فى الخطوط الحديدية سينالون بالعنف رواتب تقاعد مقدارها ألفا أو ثلاثة آلاف فرنك ، وعلى ذلك أخذ معبدو الطرق وعمال دور الصناعة والمعدنون ولفافو التبغ يكثرون من رغباتهم التى طلبوا فيها زيادة رواتب تقاعدهم زيادة نسبية ، ولكن ما العمل وقد أعمت المنافع الانتخابية أبصار النواب عن إدراك ما ستلده الأيام من أمور مخيفة .

وبالعصيان الجديد الذى وقع فى مدن احدى المديريات وحدث به نهب وحرائق تجلَّت زيادة عنف الجموع عندما لا تطاع فى الحال ، والذى يجعل الجموع تتمادى فى سيرها هو نذالة المشترعين الذين يؤيدونها فى جميع ما تأمرهم به ، وقد غفل المشترعون عن حدود الممكنات والحقائق فظنوا أنهم يسيرون بنا الى الرق والحرية ، ولو فكَّروا فى الأمر قليلاً لرأوا أنهم يقودوننا الى الاستعباد والانحطاط وما ينشأ عنهما من الاستبداد .

٥ — تأثير الجموع فى ثبات بعض العناصر الاجتماعية

ان ما تؤدى اليه الجموع من التخريب لم يكن سوى صفحة من صفحات تأثيرها لأنه يوجد خلف تقلبها الظاهر روح تقليدية ثابتة يصعب تقويضها ، وبفضل هـذه الروح تعود الجموع الى حالها الماضية ، وما فى الروح الشعبية من المحافظة يشاهد على الخصوص فى الزمر الاجتماعية الآتيـة وهى : الطبقات والمؤتمرات وطوائف العمال والنقابات والمجامع العلمية الخ .

وفى الغالب يكون عمل هذه الزمر المتجانسة خلاف عمل الجموع المتباينة التى بحثنا عنها آنفا ، إذ لما كانت الزمر المذكورة غير مبدعة ولا مخربة فانها تعمل فى توطيد آراء جديدة تأتى بهـا صفوة الناس أى فى اثبات بعض عناصر الحضارة المهمة وهى اللغات والفنون والأزياء والمعتقدات حتى النظريات العلمية

إن عمل الفرد على جانب عظيم من الأهمية ، ومع ذلك لا تزهر مبتكرات العبقرية التى هى أمر فردى الا بعد أن تصبح جامعة ، فاذا كانت مباحث الفرد هى أساس الحضارة والرقى فان أمرهما لا يتم الا بعد أن تستمرئها روح المجموع .

الفصل الثالث

فناء روح الفرد في روح الزمرة

---

١ — انحلال الجموع الكبيرة وتحولها الى زمر صغيرة في الوقت الحاضر

بعد أن تخلصت روح الفرد بالتدريج من سلطان الجمع أخذت فى الزمن الحاضر تميـل الى الرجوع الى ما كانت عليه حسب شكل غير منتظر لا على الشكل الذى يتخيله بعض رجال السياسة النظريين القائل بمساواة الناس فى المعايش والأموال تحت ظل الحكومة ، إذ ينمو بجانب نظريات الاشتراكيين زمرٌ صغيرة يختلف بعضها عن بعض رأياً ومنفعة ، ويسمى انحلال المجتمع وتحوله الى تلك الزمر التى لا رابطـة بينها « الحركة النقابية »

فالنقابية بدلاً من أن تكون كالاشتراكية من أعمال النظر بين البعيدين من حقائق الأمور فانها بنت مقتضيات الاقتصاد المهيمنة ، يدل على ذلك شيوعها بأشكال مختلفة بين كثير من الأمم المتباينة بمزاجها النفسى ، والفرق بين تلك الاشكال هو أن النقابية تكون فى بعض البلدان ثورية وفى البعض الآخر سلمية

وينشأ عن تطور الصناعة الذى أوجب تلك الحركة انقسام أوطان الوقت الحاضر الكبيرة الى أوطان صغيرة لا تحترم سوى قوانينها الخاصة مستخفة بقوانين المجتمع العام الذى يضمها ، وما بين هذه الزمر الصغيرة المختلفة من اتحاد موقت فانه يمنحها فى الغالب قوة كافية لتنفيذ رغباتها

وتسهل مشاهدة نتائج تلك القوة ، ولكن ليس من الهين تحقيق كون اتحاد الزمر المذكورة لا يبقى زمنًا طويلاً ، فمتى ينحل المجتمع القديم انحلالاً تامًا ويتحول الى زمر صغيرة فان ما بين منافع هذه الزمر من تباين يقودها حتماً الى تنازع مستمر ، ذلك لأن كل زمرة متجانسة ذات منافع وآراء واحدة ترى حينئذ أنها مضطرة الى الاصطدام مع زمر أخرى تباينها منفعة ورأيًا .

ويمكننا أن نستدل منذ الآن على مابين المنافع المتباينة من التصادم المزمع ان يقع من تاريخ الجمهوريات الايطالية القديمة ولاسيما جمهورية (سيان) وجمهورية (فلورنسا) . كانت نقابات العمال تدير هذه الجمهوريات فنشأ عن اختلافها فى المصالح وقوعات ضرجت المدن بالدماء عصوراً كثيرة ، ولا تقل إن هذا أمر يخص الماضى البعيد ، فنواميس الاجتماع العامة ليست عديدة وهى تجرى حكمها على الدوام .

واذا كان العراك بين الزمر فى الوقت الحاضر لا يزال فى دور البداءة فذلك لأن السلطة المركزية التى هى على شىء من القوة تردع مزاحمتها ، غير أن هذه السلطة أخذت تفقد نفوذها شيئًا فشيئًا ، ومتى يتم ضياعها لذلك النفوذ يقع العراك بينها وبين الزمر المذكورة كما حدث فى (نار بون) ، ثم يقع بين تلك الزمر نفسها كما فى (شنبانيا) حيث تقاتلت نقابات مدير يتين ذات منافع متباينة قتالاً عنيفًا

وفى المستقبل سيعيد التاريخ نفسه فتقع غارات وحرائق وملاحم وغيرها من الحوادث التى هى من مظاهر سخط الجموع عندما لا تجاب الى طلباتها ولا يكون أمامها رادع يزجرها .

لم نبتعد من مسئلة تكوين الآراء والمعتقدات كما قد يتوهم البعض من مطالعة التفصيل السابق ، وإلا فكيف ندرك ما فى الزمرة من وحدة الآراء من غير أن نبحث عن المؤثرات التى أوجبت وجود تلك الزمرة ؟ لقد لقينا صعوبة فى تعيين العوامل ذات التأثير الكبير وقتما درسناها فى الفصول التى خصصناها للآراء الشخصية، فلا أسهل من تعيينها فيما يتعلق بالزمر المحدودة الكثيرة التجانس كالتى ذكرنا تكوينها آنفاً ، فهذه الزمر تتألف بالحقيقة من أفراد ليس لهم سوى آراء بيئتهم الصغيرة أى زمرتهم المضطرة — كى تحافظ على قوتها — الى عدم الاغضاء عن أية مخالفة فى الرأى تبدو من احد أفرادها .

وستصبح مسئلة تكوين الآراء والمعتقدات اقل سهولة عند ما لا تسمح الجماعة التى ينتسب اليها المرء بأن يكون عندهُ رأى غير رأيها ، وعندئذ تضيق حرية الفكر حتى تصير أمراً مستحيلاً ، فلتقع مجتمعات المستقبل تحت حكم الاشتراكية أو النقابية أو فى ربقة المستبدين الذين يؤدى هذان المذهبان الى ظهورهم حتماً لترى كيف يستولى عليها استعباد نفسى عظيم .

٢ — كيف تخلصت روح الفرد من روح الزمرة وكيف تعود اليها

يؤدى التطور الحديث — كما بينا — الى تحويل المجتمعات الى زمر صغيرة مختلفة لكل منهـا مشاعر وأفكار وآراء مشتركة أى روح واحدة ، ولا فائدة من البحث عن قيمة هـذا التطور ، لأن العقل لا يبدل سير الامور ، ولكن اذا لم ندرس قيمة الحوادث فانه لا بأس فى شرحها .

يسهل علينا أن نثبت أن اندغام روح الأفراد فى روح الجمع هو كناية عن عودة الى صفحات التاريخ الاولى التى لا نزال نشاهد مثلها عند الشعوب الفطرية المتأخرة ، فهذه الشعوب تتألف من جماعات صغيرة تدعى قبائل تتقاتل فى الغالب ، وشأن الفرد فى القبائل المذكورة ضعيف جداً لأن روح الفرد لم تتحرر فيها من روح المجموع ، وهذا هوالسبب في كون أفراد القبيلة جميعهم مسؤولين عن عمل أحدهم .

إن معرفة هذا الأمر ضرورية لادراك حقوق من هم على الفطرة أو الشعوب

المتأخرة كالشعب الأنامى مثلاً ، فقد لاحظ الموسيو (پول جيران) حاكم الهند الصينية أن القضاة الاوربيين لا يفقهون حقوق تلك البلاد على ما يظهر لاعتبارهم فاعل الجرم وحده هو المسؤول وهم يعدون المبدأ القائل بعقاب رجل على فعل لم يقترفه أمراً همجياً مخالفاً للادب والذوق

والواقع أن المبدأ المذكور لم يكن مضاداً للطبيعة عند الانامين الذين كثيراً ما يعدمون رجالاً ينتسبون الى قبيلة القاتل وان لم يشترك هؤلاء الرجال فى جريمة القتل ، ولماذا يقع ذلك ؟ يحدث ذلك للسبب النفسى المذكور آنفاً والقائل إنه لما كان أفراد أحد الزمر الاجتماعية غير مختلفين فانه ليس عندهم سوى روح زمرتهم الجامعة ، وهذا مبدأ عام لتطبيقه على الشعوب كلها فى أوائل أدوارها .

الحقوق الأولى لا تفرق بين شخصية الفردوبين زمرته ، ولذلك تعاقب الزمرة جميعها أو أىّ قسم منها ، وكيف تقرر القوانين خلاف ذلك وهى ينت العادة ؟ إن المحكوم عليه لا يحتج على مثل تلك الحقوق التى وإن كانت ظالمة جائرة فى نظر المتمدن إلاّ أنها عادلة منصفة عند رجل يشعر بارتباطه باحدى الزمر ارتباطاً وثيقاً لا يعتقد به إمكان فصله عنها ، والأوروبيون أنفسهم يرجعون أيام الحرب الى تلك الحقوق الفطرية حينما يرمون الرجال المرهونين بالرصاص مستندين الى مبدإ المسؤولية المشتركة . ويلوح لنا أنهم لا بد من أن يعودوا الى المبدإ المذكور على وجه أعم اذا استمرت المجتمعات الحاضرة على الانقسام الى زمر كما بينا سابقاً .

وما فى أفراد القبيلة الواحدة من عدم اختلاف فى الروح يشاهد مثله فى الجسم وقد أثبت بمباحث الكثيرة فى ألوف من الجماجم أن تجانس الأمة من الوجهة التشريحية يكون عظيماً بنسبة تقهقرنا الى أصلها وأن الأمة كلما تقدمت اختلفت جماجم أبنائها اكثر منها فى الماضى . وهذا ما يقارب اخبار السياح الذين يبينون أن أفراد القبيلة المتوحشة يتشابهون تشابها موجباً للحيرة حتى إنه يصعب التفريق بين الجنسين فيهم .

وعند الأمم المتمدنة ما عند الفطريين من روح جامعة ، غير أن الأرواح الفردية تجعل تأثيرها محدوداً ، فالروح الاولى هى التى سميناها روح العرق ، وتظهر هذه

الروح على الخصوص فى الأحوال العظيمة ذات العلاقة بمصير الشعب كله ، وأما الروح الثانية فتتجلى بالعكس فى أدق أحوال الحياة اليومية المعتادة ، والتراصف المذكور للروح الفردية على الروح الجامعة هو كما بينت سابقاً عبارة عن حادثة نشاهد مثلها فى جميع ذوات الحياة التى يشتمل كل نوع منها على صفات خاصة غير الصفات العامة للجنس الذى تنتمى اليه .

ولا نبحث هنا عن المساعى العظيمة التى بُذلت على مر الأجيال لتحرير روح الفرد بالتدريج من روح المجموع التى لا مناص للمصلحة الاجتماعية من أن تحافظ عليها بفعل المعتقدات الدينية والبيئة والعادات والتقاليد والقوانين ، فايضاح سلسلة تلك الجهود هو تدوين صحائف التاريخ جميعها ، ويعلمنا مثل ذلك البحث أن عدد الرجال الذين استطاعوا بتعاقب الأزمنة ان يتخلصوا من نير روح المجموع قليل الى الغاية ، وأن البشر مدين لهؤلاء الرجال بما فى المجتمع من مبتكرات هى سر ارتقائه ، وأن المجتمعات التى كانوا سر حياتهـا قامت ضدهم على الدوام ، وأنه إذا نظر اليهم أحيانا بعين التسامح فذلك لوقت معلوم ، ويمكننا أن نعد مناحى الاشتراكية والنقابية فى الزمن الحاضر عناوين جديدة لمجهودات المجتمعات فى سبيل توحيد الرجال وجعلهم ذوى آراء ومعتقدات وحركات واحدة .

وأهم الحادثات التى أشرنا اليها فى هذا الفصل هى شروع المجتمعات الحاضرة فى التحول الى زمر صغيرة مستقلة متشاكسة متشاحنة تسعى كل منها فى الانفراد حتى تخسر الأمم وحدتها ، وأن روح الفرد التى عملت قروناً كثيرة لتتفلت قليلاً من روح المجموع تعود اليها فى أيامنا .

إذاً نشاهد الآن ميل الشعوب المتمدنة الى التقهقر نحو مزاج نفسى منحط كالذى كان سائداً للأجيال الأولى ، وسوف تكون منازعات المستقبل الكبيرة بين زمر الأمة الواحدة اكثر منها بين أمم مختلفة ، نعم ان فناء روح الفرد فى روح الزمرة يمنح هذه الزمرة قوة لا ريب فيها ، ولكن ذلك لا يؤدى الى رقى فى المجتمع أو الأفراد ، فالرجل لا يكون قديراً ذا نفوذ إلا اذا تحرر من ربقة روح المجموع

الباب السابع
انتشار الآراء والمعتقدات

الفصل الأول
التوكيد والتكرار والمثال والنفوذ

١ — التوكيد والتكرار

بحثت عن شأن العوامل التى درجتها فى هذا الفصل فى كثير من مؤلفاتى ، ولذا اكتفى الآن بتلخيص تأثيرها :

ان التوكيد والتكرار عاملان قويان فى تكوين الآراء وانتشارها ، واليهما تستند التربية فى كثير من المسائل . وبهما يستعين رجال السياسة والزعماء كل يوم فى خطبهم ولا يحتاج التوكيد الى دليل عقلى يدعمه ، وإنما يقتضى أن يكون وجيزاً حماسيا ذا وقع فى النفس ، ويمكننا أن نعد البيان الآتى الذى نشر فى الصحف نموذجًا لهذه الصفات الثلاث .

« من ينتج القمح ، أى الخبز الذى نحتاج اليه ؟ هو الفلاح ! ومن يزرع الجلبان والشعير والحبوب كلها ؟ هو الفلاح ! ومن يربى المواشى والأنعام ذات اللحوم الطرية ؟ هو الفلاح ! ومن يربى الضأن للحصول على اصوافها ؟ هو الفلاح ! ومن ينتج الخمر والنبيذ ؟ هو الفلاح ! ومن يطعم الطرائد ؟ هو الفلاح !

« ولكن من يأكل أطيب الخبز وأطرى اللحوم ؟ ومن يلبس أفخر الثياب ؟ ومن يشرب خمر (بوردو) و (الشمبانيا) ؟ ومن ينتفع بالطريدة ؟ هو ابن الطبقة العليا المثرية !

« ومن يتسلى ويستريح كما يريد ؟ ومن يتمتع بأطايب النعم ؟ ومن يسيح للنزهة ؟ ومن يتفيأ فى الصيف ويتدفأ فى الشتاء ؟ هو ابن الطبقة العليا المثرية !

« ومن يأكل طعاماً غير شحى ؟ ومن يندر شربه للخمر ؟ ومن يشتغل بدون انقطاع ؟ ومن يكابد حَمارَّة الصيف وصَبارَّة الشتاء ؟ ومن هو شديد البؤس كثير الشقاء ؟ هو الفلاح ! »

والتوكيد لا يلبث بعد أن يُكَرَّر تكراراً كافياً أن يحدث رأياً ثم معتقداً ، والتكرار هو تتمة التوكيد الضرورية ، ومن يكرر لفظاً أو فكراً أو صيغة تكريراً متتابعاً يحوله الى معتقد ، وإذا نظرنا الى سلسلة الرجال التى تبتدىء بمؤسس الديانة لتنتهى بتاجر السلع رأينا أنها تستعين بمبدإ التكرار على إقناع الناس .

والتكرار من القوة بحيث يجعل الرجل يؤمن بالكلمات التى يكررها ويسلم بالأفكار التى يعرب عنها عادة ، فلما رجا مجلس الشيوخ أن يهيىء (بومبى) الكبير الاسباب اللازمة للدفاع عن الجمهورية قال هذا الاخير مكرراً إن يوليوس قيصر لا يهاجم روما ، والاعتقاد الذى أوجبه هذا التكرار فى نفسه منعه من الالتجاء الى التدابير التى يمكنه أن يحمى بها روما وينقذ رأسه من القطع ولو لأجل معلوم .

والتاريخ السياسى حافل بالعقائد التى نشأت عن التكرار على الوجه المذكور ، فقد كان قادتنا وأولو الأمر منا قبل سنة ١٨٧٠ يقولون مكررين إن الجيوش الالمانية هى دون جيوشنا قوة ، وبفعل هذا التكرار اعتقدوا صحة ذلك اعتقاداً جازماً ، وكلٌ يعلم ما ذا كانت عاقبة الاعتقاد المذكور ، ولا يلبث الرجل السياسى بعد إقباله على آراء مفيدة له أن يعتنقها بتأثير نضاله عنها حتى يصبح غير قادر على تبديلها عند ما تقتضى منفعتهُ ذلك التبديل .

٢ — المثال

المثال هو أحد وجوه التلقين الفعّالة ولكن يجب أن يكون ذا وقع فى النفوس ليكون مؤثراً ، ففى عالم التربية نرى أن مثالاً بارزاً خير من مئات من الأمثلة الضعيفة التى لا تنفذ القلوب ، وقد أتيح لى أن أحقق هذا المبدأ عند ما روّضت خيلاً

شوامس ، إذ رأيت ان نكزها بالمهماز مرة واحدة أشد فعلاً من ضربها مرات عديدة ضرباً خفيفاً .

وقد تجلى تأثير الأمثلة البارزة التى تقرع المخيلة فى تمرينات الجيش الكبيرة التى تمت سنة ١٩١٠ ، فقد كررت الطيارات حركاتها العادية دون أن تضيف اليها شيئاً آخر سوى حمل البرقيات ، بيد أن هذه الفائدة المفترضة أيام الحرب جعلت الحكومة تعزم على تكوين فرقة للطيران وأوجبت أن يعلن وزير الحربية أن الطيران هو سلاح جديد تقتضى إضافته الى المشاة والمدفعية والخيالة .

وفى عالم السياسة نرى أن تأثير المثال فى تكوين الآراء وانتشارها أمر قاطع ، فقد أدى نجاح بعض مرشحى الاشتراكية لعضوية البرلمان الى اعتناق كثير من الاساتذة الشبان لأشد مبادىء ذلك المذهب ضرراً وقد بين الموسيو (بوردو) ذلك فى العبارة الآتية .

« بينما نرى فى المانيا شبيبة الجامعة وشبيبة الطبقة الوسطى الراقية تبتعد من الاشتراكية بعد أن دنت منها وتعود الى حظيرة المشاعر القومية المتطرفة نشاهد الاشتراكية فى فرنسا تثابر بالعكس على جمع جنودها من اساتذة الفلسفة وخريجى دار المعلمين فنازلاً . »

٣ — النفوذ .

تبحث رسائل المنطق بحثاً دقيقاً عن العناصر التى يتكون منها الحكم ، ومع ذلك سهت عن العدوى والنفوذ . والعدوى والنفوذ هما الناظمان لأكثر آرائنا .

سأبحث عن العدوى النفسية فى فصل آت ، وهنا ادرس النفوذ درساً موجزاً ، لأنى قتلته تمحيصاً فى كتب أخرى .

فى المدارس يتعلم الطلاب أن التجربة والاختبار حلاَّ مكان النفوذ ، ولكنه يسهل إثبات خطل هذا الزعم : فلو نظرنا الى الآراء العلمية — دون أن نلتفت الى الآراء الدينية والسياسية والخلقية حيث لا شأن للدليل فيها — لرأينا أنها فى الغالب لا تملك سوى نفوذ قائلها وأنها تنتشر بالعدوى ، ولا يكون الامر خلاف ذلك ، إذ

لما كان أكثر التجارب والاختبارات العلمية من التعقيد بحيث يصعب تكرارها فإنه يُسلَّم بكلام العالم الذى يشرحها . ولذلك يحق لنا أن نقول إن نفوذ الاستاذ فى الوقت الحاضر هو كما فى زمن (اريسطوطاليس) ، ويزداد هذا النفوذ كلما أصبح الاختصاص العلمى أعظم منه فى الماضى .

ولكون النفوذ أساس أكثر الآراء التى تلقيها التربية فى الذهن فأننا نتدرب على اعتقاد رأى يبديه عالم ذو نفوذ بسهولة ، أجل إننا قد نأتى بأحكام هى على جانب من الاصابة فى مواضيع مهنتنا ، وأما المسائل الاخرى التى يأتى بها رجل نافذ فاننا نفضل أن نسلّم بها تسليماً أعمى على إعمال الفكر فيها مباشرة .

ويتوقف مصير أقطاب السياسة وأرباب الأعمال والمتفننين والكتاب والعلماء على ما فيهم من نفوذ خاص وقدرة على تلقين الناس تلقيناً غير شعورى ، وقد ينجح الأبله أحياناً فى نشر رأيه ، لانهُ لما كان غير شاعر ببلهه لا يتردد فى توكيد رأيه ويصبح بذلك ذا نفوذ .

وسنثبت بأمثلة بارزة — عندما نعود الى هذا الموضوع فى الباب الذى خصصناه للبحث عن المعتقدات بحثاً تجريبياً — ان النفوذ هو فى الغالب أحد العوامل التى تجعل العالم النحرير معتقداً ، وللنفوذ الذى هو موجد الآراء وسيد العزائم قوة أدبية تعلو القوى المادية ، فاما عاد نابليون وحده من جزيرة (إلب) افتتح بنفوذه جميع فرنسا فى بضعة أيام ، وقد خرست أمام إكليل مجده مدافع الملك وتشتت شمل جيوشه ، وقد كان نفوذ نابليون عظيماً حتى انه أثر فى أعدائه ، فبدلاً من أن تمقت (مارى كارولين) — زوجة أمير من عائلة البوربون المالكة — ذلك العدو الرهيب عدته الهاً ، وإليك ما جاء فى إحدى رسائلها .

« إن بونابارت هو أعظم رجل أظهرتهُ العصور ، فأعجب به من رجل قوى ذى نجدة ومروءة ونشاط وعبقرية لا تبارى ، ويا سعادة الأمة التى يوجد على رأسها ملك مثله ! ، ولذلك ترانى على ما فىَّ من كره للنظام الجمهورى وحبٍّ لتقويض دعائمه أرجو بقاء بونابارت . »

وقد كان شأن النفوذ فى شوكة الملوك عظيماً الى الغاية ، حتى إن (باسكال) قال : « يجب على المرء أن يكون ذا عقل نقى خالص لكى ينظر الى ملكه — وهو فى قصره الذى يحرسه أربعون ألف جندى — كما ينظر الى بقية الناس . » ، وفى الجيل الحاضر الذى هو جيل المساواة نرى نفوذ الملوك لا يزال محافظاً على شأنه ، فيجمل بالملوك أن يحافظوا عليه بحكمة ، كتب الموسيو (نوزيار) مراسل احدى الصحف المهمة : « أن جميع من حضروا جنازة ملك انكلترا قد عجبوا من تأثير امبراطور المانيا فى الجمع حينما كان يمشى فى وسط الملوك ، حقاً إن غليوم يكتسب باعتقاده أنه ظل الله فى الأرض عظمة غريبة تدهش الناس . »

والجماعات نظراً الى احتياجها الى العبادة لا تلبث أن تعبد أشخاصاً يؤثرون فيها بنفوذهم ، والزعيم لا يحافظ على نفوذه بالتملق لها ، فهى وإن كانت تبحث عن مداهنين لها إلاَّ أنها سرعان ما تحتقر من يتملقها .

ومع أن النظام العسكرى يقوم على نفوذ الضباط فإن جهل روح الجماعات أدى إلى ترك هذا المبدإ ، إذ قد أمر الضباط بأن يعاملوا الجنود كإخوة وأن يبذروا فيهم حب الطاعة بقوة الحجة والبرهان ، يرضى ابن الطبقة الدنيا مختاراً بمثل هذا المبدإ ، ولكنه يحتقر ضباطه الذين يطبقونه كثيراً ، وماذا يكون مصير الجيش بعد أن يخسر هؤلاء نفوذهم ؟

وينشأ بعض الفوضى الحاضرة عن كون رخاوة الطبقات القائدة قد جردتها من نفوذها ، وما مصير الملوك والشعوب والأفراد والنظم وكل عنصر من عناصر الحياة الاجتماعية سوى الاضمحلال عندما لا يبقى لهم نفوذ يؤثرون به .

يمكننا أن نلخص تأثير الاسباب فى انتشار الآراء والمعتقدات التى ذكرناها فى هذا الفصل بالكلمات الآتية وهى . لا رأى اولا معتقد يظهر بلا نفوذ ، ولا رأى أو لا معتقد يسيطر بلا توكيد ، ولا رأى أو لا معتقد يبقى بلا مثال ولاتكرار .

الفصل الثانى

العدوى النفسية .

١ — اشكال العدوى النفسية .

العدوى النفسية هى أمر روحى ينشأ عنه التسليم ببعض الآراء والمعتقدات تسليماً غير إرادى ، ومصدرها دائرة اللاشعور ، ولذلك لا يؤثر فيها أى دليل او تأمل ، وتشاهد فى البشر والحيوانات ولا سيما عندما يكونون فى حالة جماعة ، وهى من التأثير بحيث تسيطر على التاريخ .

حقاً إن العدوى النفسية هى العنصر الاساسى فى انتشار الآراء والمعتقدات ، وقد تبلغ بقوتها مبلغاً يجعل الانسان يضحى باكثر منافعه الشخصية وضوحاً ، يؤيد ذلك أخبار الشهداء والمنتحرين والجدع الخ الذين لم يأتوا بما أتوا به الا بفعل العدوى النفسية.

وقد تكون مظاهر الحيـاة النفسية جميعها سارية ولـكن الانفعالات هى التى تنتشر بالعدوى على الخصوص ، وتستطيع الإرادة فى الأحوال العادية أن تحدد تأثيرها ، غير أن ظهور احدى العلل — كتحول البيئة أيام الثورة تحولاً عنيفاً وتحريض الشعب الخ — المبطلة لعمل الارادة تجعل حكم العدوى يجرى بسهولة محوّلاً ذوى الميول السامية الى رجال أشداء محاربين وأبنـاء الطبقة الوسطى الودعاء الى أشياع متعصبين ، وبتأثير العدوى أيضاً يغير هؤلاء أحزابهم فيأتون لاخماد الثورة بنشاط كالذى أوقدوا به نيرانها .

ولا تسرى العدوى بتماس الافراد تماساً مباشراً ، بل قد تنتشر بالكتب والجرائد والحوادث البرقية حتى بالشائعات البسيطة ، وكلمـا زادت وسائل النشر والإذاعة تداخلت العزائم وأثر بعضها فى بعض ، على هذا الوجه نرتبط كل يوم بمن يحيطون بنا اكثر من ذى قبل وتكتسب النفسية الفردية شكلاً جامعاً .

وإنى أعد الزمرة الاجتماعية التى ننتسب اليها أقوى أشكال العدوى النفسية

تأثيراً ، إذ لا تقدر أية إرادة على التخلص منها ، فهى تملى فى الغالب آراءنا وأحكامنا من حيث لا ندرى .

٢ — امثلة مختلفة على العدوى النفسية .

المشاعر خيراً كانت أم شراً تنتشر بالعدوى ، فلذا نرى الوسط ذا تأثيراً عظيم فى التربية ، ولقد أصاب من قال :

« عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى »

و بتأثير العدوى النفسية تأسست جماعة مجرمة كبيرة من الشبان الذين طردوا من المصانع ، فلما أعيت هؤلاء الحيل فى بدء الأمر ولم يكن لهم عمل سوى الجولان فى الاسواق اختلطوا بزملاء يسرقون من معارض السلع ما يسهل نشله فقلدوهم ، وقد كثرت أهمية هذه الأسلاب بالتدريج فتشكلت جمعيات تشبه العصابات فى غايتها ، وهكذا لا يلبث الجوّال أن يتخذ اللصوصية مهنة فيعرض نفسه للسجن ، وقد يبلغ رضاه بمصيره الذى هو ابن العدوى مبلغًا لا تنفع معه اشد الزواجر .

وتنشأ العدوى الجارمة أيضًا عما تنشره الصحف من حوادث القتل المحركة للمشاعر ، فقد كان لجاك الباقر البطون كثير من المقلدين فى مدن انكلترا .

والحوادث التى تدل على العدوى النفسية غير محتاجة الى ايضاح ، غير أن القرار المشهور الذى قرره مجلس الوزراء والقائل بادخال الرعاع فى سلك الجندية يدلنا على مقدار جهل الحكومات لأمر تلك العدوى .

والخوف هو أشد المشاعر سريانًا بالعدوى ، وليس شأنه الكبير فى حياة الأفراد والشعوب بالأمر المجهول ، فهو وإن لم يكف لايجاد الآلهة كما قال (لوكريس) فان تأثيره بادٍ فى تكوينها ، وهو لمحافظته على نفوذه الذى كان له فى بدء التاريخ يوجب الهزيمة فى الحروب وكثيراً ما يدفع المرء الى الانتحار ، فالرعب الذى أحدثه النجم المذنَّب الأخير الذى قيل إنه سيصدم الأرض جعل بعض الناس ينتحرون ، والخوف لا يُسَيِّر الافراد والجماعات فقط بل يسير رجال السياسة أيضًا ، وقد اثبتُّ فى كتابي المسمى « روح السياسة » أن الخوف هو علة كثير من القوانين التى سنت منذ

عشرين سنة والتى لا تزال تأتى بنتائج مشؤومة ، ويمكننا أن نقول إن شبح الخوف فى أيام الفتن هو الذى يتسلط على المجالس السياسية فيملى عليها آراءها وانتحاءها ، وعنه صدرت اشد تدابير دور العهد قسوة وبتأثيره كان (كاريه) يقتل ضحاياه شر قتل وكان (فوكيه تنقيل) يرسل المتهمين الى المقصلة زرافات ووحداناً .

واكثر الانفعالات تنتشر كالخوف بالعدوى ، ويعرف أعاظم الخطباء ذلك ، فليس سبب اقتراع مجلس النواب لإسقاط وزارة (كليمانسو) سوى انفعال نفسى أحدثه أحد خطباء المعارضين فى النواب بفعل العدوى ، وكذلك حركات الرجل وبيانه وأوضاع وجهه ذات تأثير فى المخاطب بالعدوى ، فمن الحكمة أن يكون الرجل ذا وجه طليق عند الإستعطاف بدلاً من أن يقطب ، إذ إنه بعدوى ذلك يستميل فى الغالب مخاطبهُ ويكسب عطفه .

٣ — سلطان العدوى النفسية .

العدوى النفسية أمر عام يشاهد فى الحيوان كما فى الانسان ، ولذلك لا تلبث الرعشة التى تستحوذ على حصان الاصطبل أن تسرى الى الأحصنة الأخرى ، ولا تلبث الكلاب أن تنبح بعد أن ينبح احدها وعندما يهرب الضائن تتبعه بقية الضأن .

وقد تشتد قوة العدوى النفسية فتتغلب على غريزة المحافظة وتدفع الانسان الى التضحية بنفسه ، ومن هـذا القبيل قصة الخمسة عشر كسيحاً الذين شنقوا أنفسهم بكلاَّب واحد وقصة الجنود الذين انتحروا فى كوخ واحد ، وحوادث مثل هـذه كثيرة جـداً ، فهاك ما قاله الدكتور (ناص) : « وقلما تنشر الصحف خبر انتحار عاطفى مفصلة طريقة حـدوثه ينتحر بعض مختلى الشعور حسب تلك الطريقة ومن هذا النوع ما وقع فى اليوم الثانى من حادثة (سيفتون) حيث خنق كثير من المختلين أنفسهم بالغاز ، ونعد روسيا اكثر البلاد التى انتحر الناس فيهـا ، فقد كان الرسل فى روسيا أيام الاضطهادات الدينية يأمرون أشياعهم بحرق أنفسهم ، وقد حدث أن ألقى ستمئة شخص أنفسهم فى النار دفعة واحدة ، وعنـد أحد مؤرخى الأديان الروسية أن عدد الذين حرقوا أنفسهم فى روسيا منـذ سنة ١٦٧٥ حتى سنة

١٦٩١ عشرون الف شخص ، ومما ذكره الموسيو (ستوكين) أن ٢٫٥٠٠ شخص روسى طرحوا أنفسهم فى موقد واحد طامعين فى الآخرة »

وقد ينشأ عن العدوى النفسية وهم خيالى لا يلبث أن يتحول الى حقيقة ، فقد جاء فى تقرير حديث للدكتور (بيكيه) أحد علماء الجراحة أنه على أثر موت ضابط بالزائدة الدودية لزم الفراش ١٥ ضابطا من بين ضباط احدى الكتائب البالغ عددهم خمسة وعشرين لظهور علائم المرض المذكور فيهم ، وما عوفى هؤلاء المصابون الا بالتلقين فقط .

٤ — شأن العدوى فى انتشار المعتقدات الدينية والسياسية

نستدل على شأن العدوى النفسية فى انتشار الآراء والمعتقدات من الملاحظات السابقة ، فالمعتقدات سياسية كانت ام دينية تسرى بين الجماعات بالعدوى على الخصوص ، وعلى نسبة افراد الجماعة يكون تأثير العدوى شديداً ، ولا يلبث المعتقد الضعيف أن يصبح قوياً بعد أن يكتسب الأفراد الذين يعتنقونه صفة الجماعة

والمعتقد بعد أن ينتشر بالعدوى لا يلتفت الى قيمته العقلية ، إذ لما كانت العدوى تؤثر فى دائرة اللاشعور فانه لا شأن للعقل فيها ، وفى الغالب تكون العدوى ذات تأثير فى من هم أرفع من الجماعة ، ولذلك يجب أن لا نعجب من وجود علماء يدافعون عن اكثر المعتقدات شؤماً ومخالفة للصواب ، وما اكثر الرجال الذين هم كمدير العرائض الذى ناضل فى مجلس شورى الدولة عن اعتصابات الموظفين أيام كان اعتصاب موظفى البريد يهدد كيان فرنسا .

وبالعدوى النفسية يعانى أرباب المال والقلم والعلم آراء الجموع ، ومن أجل ذلك نرى العدوى قادرة على استعباد الذكاء ، وكما فى انتقال الأمراض الجثمانية لا يستطيع أن يقاوم العدوى النفسية سوى اولى القوة والبسطة وقليلاً ماهم .

وقد نشأت حوادث الدين التاريخية عن العدوى النفسية ، ومع ذلك لم يكن تأثيرها فى احد الازمنة الماضية كما هو فى الوقت الحاضر ، وسببه أولاً :ان السلطة أخذت تنتقل بالتدريج الى الجماعات بفعل المبادىء الديموقراطية ، وثانياً :

ان تعميم وسائل النشر يؤدى الى سرعة ذيوع الحركات الشعبية ، وما من أحد يجهل كيفية انتشار اعتصابات موظفى البريد والثورات التى اشتعلت فى روسيا وتركيا والبرتغال .

والحكومات الضعيفة تكون عاجزة أمام سلطان العدوى ، ولم يقتصر الأمر على اذعان الحكومات لكل ما تأمرها به الجماعات بل سرعان ماتُدعم هذه الأوامر من قبل كتائب من المتعلمين جعلتهم العدوى يعتبرون عدلاً مافيها من ظلم واحجاف. على هذا الوجه اصبحت أهواء الجموع الطائشة فى نظر تلك الكتائب مبادىء جديرة بالاحترام كما كانت رغائب الملوك فى الماضى مقدسة عند بطانتهم .

والآراء التى انتشرت بتأثير العدوى لا تزول الا بآراء مخالفة تنتشر بالعدوى أيضًا ، الى هذه القاعدة النفسية يلتجىء رجال السياسة فيغلُّون العدوى بالعدوى ، ولكن بما أن البحث فى هذه النقطة يبعدنا من الموضوع فاننا لا نطنب فيه الآن .

الفصل الثالث

الطراز

---

١ — تأثير الطراز فى عناصر الحياة الاجتماعية

ينشأ عن تقلب الإحساس والشعور بتقلب البيئة والحاجات والتقاليد روح عامة تتبدل بتبدل الأجيال ، وكثيراً ما تتغير الروح المذكورة فى غضون الجيل الواحد ، وهذه الروح التى تنتشر على عجل بفعل العدوى النفسية تسمى « طرازاً » .

فالطراز هو أحد العوامل القوية فى شيوع اكثر عناصر الحياة الاجتماعية ومنها آراؤنا ومعتقداتنا ، ولم يمتد سلطانه الى اللباس وحده بل تناول فن التمثيل والآداب والسياسة والفنون الجميلة حتى الافكار العلمية ، وهذا هو العلة فى أن تشابه بعض الآثار أصدق لسان يعبر عن حال أحد الأدوار .

ولما كان الطراز يؤثر تأثيراً غير شعورى فاننا نعانيه من حيث لا ندرى ، ولا تقدر اكثر النفوس استقلالاً على التخلص من حكمه ، فالمتفننون والكتّاب الذين يأتون بأثر ليس عليه مسحة من أفكار الوقت هم أندر من الكبريت الأحمر .

وأحياناً يجعلنا الطراز بما له من النفوذ — نعجب من أشياء لا نلبث أن نستبشعها بعد بضع سنوات ، وقلما يكون الأثر الفني ذاته ذا وقع فى النفس ، وانما تشتق قيمته مما يحوم حوله من أفكار فيتحول بتحولها ، وفى الغالب يفرض الطراز أموراً يبعد تصديقها كايجاد لغة أو إصلاح كتابة ، خذ لغة (الفولابوك) التى ظهرت سنة ١٨٨٠ مثالاً ترأن الطراز قد يسر لها نجاحاً باهراً لأنه تأسس فى عشر سنوات ٢٨٠ نادياً و ٢٥ جريدة لنشرها ، ثم تبدل الطراز فصرنا اليوم لا نكاد نجد رجلاً يعرف (الفولابوك) ، وقد قامت لغة (الاسبرانتو) مقام (الفولابوك) فلقيت مثلما لقيته هذه من النجاح ، إلا انها أخذت فى هذه الأيام تفسح المجال للغة أخرى تسمى (الايدو)، ولا ريب فى أننا سنستمر على إيجاد لغات مصنوعة حتى نعلم أن تكوين اللغات هو أمر اجماعى لا يتم إلا ببطء أى لا يقع ابتداءً بصنع أحد الناس .

ولكون تقلبات الطراز تتناول جميع المواضيع ولكون ما فينا من شعور وإحساس يتغير بفعل كثير من المؤثرات يمكننا القول إن الشكل الذى نفكر حسبه ونعرب به عن مشاعرنا يتحول تحولاً سريعاً .

والعاطفة التى هى مصدر الطراز لم تتخلص من عناصر العقل ، وهذا يتّضح عند البحث فى زى النساء الذى هو اكثر مظاهر الطراز تقلباً فى الظاهر ، إذ نرى حينئذٍ أن دائرة التقلب المذكور محدودة الى الغاية .

٢ — قواعد الطراز ، الطراز مزيج من عناصر عاطفية وعناصر عقلية .

إذا كان الطراز عنوان العاطفة فإن العقل هو الذى يعين وجهته ، ومن هذين المصدرين يشتق طراز الآداب والفنون والعمارة والأثاث واللباس وغيره من الأشياء ، ويتضح هذا الاشتقاق عند البحث فى الأزياء النسائية ذات التقلب الكبير :

إن ما فى زى النساء من عناصر عقلية ناشىء عن مقتضيات الاقتصاد والمخترعات والحاجات الحديثة وحكم الوقت الخ ، وتلاحظ هذه المؤثرات فى تبدل الأزياء الذى أوجبه استعمال السيارات ، فقد اضطرت المرأة فى دورنا القائم على مبدإ السرعة الى مجاراة الرجل فى غدوه ورواحه فى الشوارع الكبيرة ، فعم لذلك الزى المشذب — الذى كان يخص بعض الألعاب الرياضية — مع قليل من التعديل ، وأما الاثواب الأخرى فقد ضُيِّقَت فيها أكمام الدرع لتنساب فى الجرز بسهولة ، غير أن ذلك جعل نصف المرأة الفوقانى الذى حُرِّج على هذا الوجه غير مستظرف ، ومن اجله نُقِّصَ اتساع البذلة التحتانى وأُلْغِيَ الجيبان كى تبدو مُكْتِفَةً ، ثم إن المرأة طمعاً فى إيقاظ شهوة الناظرين لم تأل جهداً فى جعل بذلتها تلاصق جسمها ملاصقة تامة مبديةً من وجودها ما يمكن الرجل أن يستدلَّ به على ما بقى

ولا اعتراض على النساء اللواتى يقطنَّ المدن اذا لبسن البسةً حريريةً خفيفةً أيام الشتاء بعد أن عَمَّ تدفئة البيوت بالبخار ذى الحرارة المرتفعة ، والمرأة المتسربلة بالحرير تنال فى ذلك الفصل ما تحتاج اليه من الحرارة من عباءة الفرو حينما لا تكون فى بيتها .

تلك هى العناصر العقلية التى تؤثر فى تكوين الزى ، فلنتكلم الآن عن العناصر العاطفية ذات الشأن فى ذلك التكوين : نقول قبل كل شىء إن الزى هو كاللغات والاديان من عمل المجموع لا من عمل الفرد ، ولذلك يتعذر على أى رجل أن يوجهه على الآخرين ،والناس يظنون خطأً أن الخياطين والممثلين وعارضى الألبسة هم الذين يوجدون الزى بوجه عام ، نعم إنهم مخطئون فى ظنهم لأن الواقع يدل على أن هؤلاء لا يفعلون بالحقيقة سوى التعبير عن مناحى الناس وميولهم التى هى نتيجة بعض الحاجات والافكار والأحوال .

والأزياء وان كانت تختلف من فصل الى آخر لا يتحقَّق الأمل فى تبديلها إلا ضمن دائرة محدودة ، أجل ، إن الزى لا يروق النفس إلاَّ إذا استوقف النظر ولكن لا يتم نجاحه إلا إذا لم يبتعد من الزى الذى تقدمه ، وهذا ما يوضح لنا السبب في كون الزى المبتكر من كل وجه لا يدوم طويلاً ، ولا يستقيم

أمر الزى إلا بالتدريج ، فالجلابيب الواسعة التى كان النساء يستعملنها منذ ثلاثين سنة لم تتحول الى حلل ضيقة ملاصقة للجسم إلا شيئًا فشيئًا .

والزى ذو سلطان كبير ، فهو الذى يجعل المرأة تصطبر على أشد الكُلَف كأن تمسك ثوبها بيدها خوفًا من أن تجرر ذيله وأن تحمل بيدها الثانية كيسًا يشتمل على محتويات جيبها فى الماضى ، وكأن تكابد ما ينشأ عن لبس الأثواب المسماة « الحلل المشكولة » من ألم فى المشى ، والمتمدنات من هذه الجهة يشبهن نساء الهمج اللواتى يحتملن أوجاع الخرصان التى يزينون بها أنوفهن إذعانًا لحكم الزى .

والخضوع للزى كما وصفنا يثبت لنا ما للعدوى النفسية من التأثير والقوة ، فأكثر النساء استقلالاً وهمةً وسعيًا فى نيل جميع الحقوق لا تجرُؤ على لبس بذلة قصيرة فى وقت يُلْزِم الزىُّ الناسَ لبس بذلات طويلة ولا تجسر على صنع جيب فى البذلة فى زمن يحرم الزى استعمال الجيوب ولا تُقدم على زر درعها من أمام فى آن تزر بقية النساء دروعها من خلف ، فليس من يقدر منهن على مخالفة الزى ، ولم يطعن فى الماضى أوامر الآلهة إطاعتهن لأحكام الزى فى جميع العصور والاجيال .

الفصل الرابع

الجرائد والكتب

---

١ تأثير الجرائد والكتب

للجرائد والكتب تأثير كبير فى تكوين الآراء وان كان دون تأثير الخطب ، ومع ان تأثير الكتب التى لا تقرأها الجماعات اقلّ من تأثير الجرائد فانه ظهر منها ما أدى الى قتل ألوف من الناس ككتب (روصو) التى كانت توراة زعماء دور العهد وكتاب « غرفة العم طوم » الذى أثر كثيراً فى نشوب حرب الانفصال الاميركية الدامية ، ويوجد كتب أخرى كرواية (روبنصن كروسو) وروايات (جول فيرن) أثرت

فى آراء الشباب فكانت سبباً فى تعيين كثير من مهنهم ، وقد كان نفوذ الكتب واسعاً عند ما كان لا يقرأها سوى الاقلين ، فكل يعلم كيف أدت مطالعة التوراة فى عهد (كروموبل) الى ظهور كثير من المتعصبين فى انكلترا ، وكل يعلم أن روايات الفروسية أيام تأليف رواية (دون كيشوت) بلغت فى إفسادها النفوس مبلغاً جعل ملوك الاسبان يمنعون بيعها .

وتأثير الجرائد فى الوقت الحاضر أعظم من تأثير الكتب ، فالذين ليس عندهم من الآراء غير ما فى الجرائد لا يحصى عديدهم ، وقد تجلى تلقين الصحف اليومية فى جميع الأمور حتى فى كثير من حوادث الزمن الحالى الجسيمة ، فمن المسائل المعروفة هو أن الصحافيين هم الذين أوقدوا نار الحرب بين الولايات المتحدة وأسبانيا .

ولا تجهل الحكومات ما للصحافة من السلطان المطلق ، فكل رجل سياسى يعلل نفسه بأن يكون صاحباً لجريدة منتشرة . و بالجرائد استطاع رؤساء الوزارة الألمانية أن يجعلوا اكثر مشاريعهم مقبولة عند الجمهور .

والسرعة التى يصدق بها القراء ما يطالعونه فى جرائدهم تقضى بالعجب العجاب فكل إعلان فى الصحف كثير الوعد قليل الوفاء يجد له جمهوراً يؤمن به ، والحيل نفسها قد تتكرر بنجاح ما دام لأغلب الناس ايمان بما لا يُرجى ، ومن ذلك حكاية السارق المحتال الذى أعلن منذ وقت غير بعيد أنه يقرض كل انسان دراهم بلا ضمان ، فقد استطاع هذا المحتال فى بضعة أشهر أن يربح — قبل أن يقرض سنتيما واحداً — خمسين ألف فرنك من رسوم الكشف والاستخبار التى فرض على الطالبين دفعها قبل إقراضهم ، وأمر مثل هذا لم يشمل النظر لو لم يكتشف قاضى التحقيق بين الذين صدقوا السارق المذكور أناساً متعلمين اكثرهم من ملتزمى الدولة وكبار الضباط ورؤساء الشرطة والمحامين وكتاب العدل وقضاة الصلح وأعضاء مجالس الادارة وقضاة التحقيق ، وهذا المثال أوضح دليل على تأثير الصحف فى الناس .

٢ — الاقناع بطريقة الاعلان

ان البحث عن استعمال الاعلانات يفيدنا فى بيان تأثير الصحف فى تكوين

الآراء ، فالاعلان هو احدى الوسائل التى يتم بها إقناع الجموع فى الوقت الحاضر ، وله فى البيوع التجارية شأن يوضح لنا الطريقة التى يؤثر بها فى المشترى

وقد استنبط الأميركيون بضع قواعد نفسية ضرورية للاعلان فأصبحوا أساتذة العالم فى هذا المضمار ، ويقدر العارفون المبالغ التى تُدفع للصحف أجوراً للاعلانات في الولايات المتحدة بخمسمئة مليون فرنك في السنة الواحدة . ومما ذكره الموسيو (اران) فى كتاب خصصه للبحث عن هذا الموضوع أن أحد تجار الأقلام الكاتبة (ستيلوغراف) يبذل نصف مليون فرنك سنوياً اجرة اعلانات وأن رب أحد مصانع الصابون أنفق على الاعلانات ستين مليون فرنك في أربعين سنة .

والغاية من بذل تلك النفقات هى انشاء قناعة فى نفس المرء يصير بتأثيرها مشترياً فى أحد الأيام ، والعامل الأساسي فى تكوين القناعة المذكورة هو التوكيد والتكرار معاً لا التوكيد وحده ، ولذا لا تكون العلامة التجارية مقبولة عند الناس الا بعد أن يمضى عليها وقت كافٍ تُعلن فيه إعلاناً مؤكداً مكرراً

ومن الضرورى أن يُغير شكلُ الاعلان من وقت الى آخر ، والا فان تأثيره يضعف بفعل العادة ولا يكون الاعلان مفيداً الا اذا دل على منتج معلوم في السابق ، وأما اذا ظهر المنتج حديثاً فيجب ذكر جميع صفاته ومزاياه فى الاعلان ، واذا كان استعمال الشيء المخترع يتطلب تغيير المشترى لعاداته فان المقصود لا يتم بتكرير الاعلان وحده بل يحسن بالبائع أن يوزع نماذج من المنتج مجاناً

ومما يتعلّل به المعلنون هو أن يجعلوا المشترين يحفظون أسماءهم وعناوينهم ، ولكى يتوصلوا الى ذلك تراهم يطبعونها على الاشياء التى يكثر استعمالها كالورق النشاف وعلب الكبريت والجرائد والمجلات ودفات الكتب الخ ، ويرى الاميركيون أن خير أسلوب لبلوغ تلك النتيجة هو أن يرسلوا الى المشترين قوائم مصورة تصويراً فنياً ومشتملة أحياناً على قصة موقع عليها من قبل كاتب معروف ، وقد أخذت هذه الطريقة الشافية الغالية تشيع فى فرنسا منذ وقت قريب .

ومن قواعد النشر الثابتة هو أن الاقبال على المنتجات المعروفة لا يلبث أن يخف

عندما ينقطع إعلانهـا ، ولا ريب فى أن ضعف ذاكرة المشاعر التى بحثنا عنها آنفاً هو علة ذلك .

وشأن التصاوير كبير فى الاعلان ، وقد بينا ذلك وقتما بحثنا عن تأثير الاعلانات المصورة فى الانتخابات النيابية الأخيرة التى وقعت فى انكلترا وفى اكتتاب المتطوعين فى سلك الفرسان عندنا ، ويكون ذلك الشأن أعظم إذا كانت الصور ترمى الى المقايسة بين شيئين أو اكثر ، فاذا أريد ترويج مائع يشفى الصلع مثلاً فان مما يؤثر فى المشترى أن يحتوى إعلان ذلك المائع على صورتين لرجل واحد ، احداهما تدل على حاله وهو أصلع والثانية عليه بعد أن عوفى من الصلع واكتسى رأسه بالشعر بتأثير المائع المذكور

ويستعين الماليون على ترويج أشغالهم بمثل الوسائل التى يتذرع بها أرباب الصناعات ولكن على مقياس واسع ، فأحياناً يشترون اكثر الصحف لتمتدح أعمالهم ، وأما التى لا يقدرون على جعلها موالية لهم فانهم على الاقل يشترون سكوتها .

الفصل الخامس

جريان الآراء وثورانها

---

١ — جريان الآراء

يوجد عدا الآراء التى تخص كل زمرة على حدتها مناحٍ عامة تستولى على اكثر الزمر حيناً من الزمن ، وهـذه المناحى الناشئة عن تأثير الكتب والجرائد والخطب والتعليم الخ تسمى « جريان الآراء »

فالجريان المذكور الذى قلما تدعمه عناصر العقل يحدث بفعل العاطفة وخلق التدين وينتشر بالتلقين والعـدوى النفسية ، وكلما تداعت أركان الماضى أى دعائم الثبات النفسى الموروث يعظم شأن جريان الآراء ، فقد عاينا منذ قرن سلطان هذا الجريان كثيراً فنشيعنا لعائلة بونابارت ثم لبولانجيه ثم لدريفوس ثم للمذهب القومى الخ

وفى الغالب يجب أن تقع حوادث هائلة ليصدر عنها جريان الآراء ، فقد كانت معركة (ينا) عند الألمان وحرب سنة ١٨٧٠ عند الافرنسيس ضروريتين لاحداث جريان آراء قادر على الزام الناس الخدمة العسكرية العامة ، ولولا النصر البحرى العظيم الذى ناله اليابانيون فى حربهم مع الروس لما حدث فى بلاد اليابان جريان آراء تستطيع بفضله حكومة تلك البلاد أن تنفق كل سنة اكثر من مليار فرنك على اسطولها .

والقادة اولو العزم والفضل يقدرون على توليد جريان آراء ضرورية أو تعيين وجهة هذا الجريان على الأقل ، وأما القادة المتوسطون فانهم يكتفون باقتفائه وما استطاع اقسى الجبابرة أن يباطشوا جريان الآراء زمنًا طويلاً ، فقد ذكر (جوفينال) أن الامبراطور (دوميسيان) تمكن من قتل كثير من مشاهير الرجال ولكنه « هلك عند ما أخذ السكافون يخافونه » ، وكان نابليون نفسه يهاب جريان الآراء ، فقد قال وهو فى جزيرة القديسة هيلانه : « ان للرأى العام قوة لا تُقهر ولا يقدر أحد على مقاومتها ، وليس ماهو اكثر منه تقلبًا وغموضًا وسلطانًا ، وهو على رغم سيره مع الأهواء ذو سداد اكثر مما يُظن » .

ويبذل أقطاب السياسة كثيراً من العناية فى ايجاد جريان للآراء اوتحويل هذا الجريان ، فقد سعى بسمارك سنين طويلة لتكوين حركة فكرية فى الشعب يستطيع بهـا أن يجعل البلاد مستعدة لاستقبال حرب تؤدى الى مالا تقدر على فعله اللغة وحدها من اتحاد بين دول المانيا ، وبفضل مانشره ساسة المانيا فى الصحف من رسائل ومقالات وخطب مؤثرة فى الرأى العام جعلوا الأمة الألمانية ترضى بانفاق أموال وافرة على تقوية اسطولها الحربى ، وما تم أمر الاصلاحات التى وقعت فى انكلترا منذ قرن الا بتحريك جريان الرأى العام فيها .

ومن العوامل المولدة لجريان الآراء نذكر الجرائد اليومية والنشرات والخطب والمحاضرات والمؤتمرات ، فبمثل هذه الوسائل انتشرت الاشتراكية فى فرنسا والمانيا ، وتؤثر تلك الوسائل على الخصوص اذا استندت الى احتياجات ومشاعر وآمال جديدة وليس جريان الآراء السياسية — الذى هو أهم جريان نظراً لتأثيره

فى وقوع كثير من الحوادث - هو الذى يجب أن يلتفت اليه وحده ، بل يقتضى أن يلتفت الى حركات الرأى الأخرى . لأنها تدل أيضاً على الحالة الفكرية فى أحد الأدوار ، فهذه الحركات تطبع طابعها على الفنون والآداب حتى على العلوم ، وتشتق الحركات المذكورة مما لبعض النظريات او لبعض الرجال من نفوذ ويعم أمرها بفعل العدوى النفسية التى هى العنصر الأساسى فى انتشار المعتقدات .

وكل من الكتّاب والمفكرين والفلاسفة والساسة يعمل ضمن دائرته فى ايجاد مجار للآراء تسير بها حضارة أحد الأزمنة ، وعلى أقطاب السياسة وحدهم يعود أمر تكوين رأى عام فى المسائل التى تمسّ حياة البلاد الخارجية . وعمل مثل هذا هو غاية فى الصعوبة ، إذ يجب على اولئك الاقطاب أن يكونوا ذوى نفسية نامية يقدرون بها على السير حسب المنطق العقلى وعلى التأثير فى مشاعر الرجال المستقلة عن كل عقل .

والمؤثرات غير العقلية التى هى سبب حركات الآراء تتبدل بحسب الأحوال تبدلاً متصلاً ، فعلى من يود أن يقبض على زمام هذه المؤثرات أن يعرف كيف يتفرس فيها وأن لا ينسى أن الرأى بعد أن تؤمن به الجماعة يصبح فى نظرها حقيقة ناصعة .

٢ — ثوران الآراء

ثوران الآراء كناية عن اتجاه انفعالات الناس الفجائية نحو غرض واحد ، وقلما ينشأ عن حوادث وقعت فى غضون أحد الأدوار الطويلة مثل هذا الثوران ، وهو يظهر بتأثير حوادث عاطفية تقع بغتة أو بفعل بضعة الفاظ ينطق بها رجال نافذون قادرون على تحريك المشاعر .

ولم يكن أعاظم الأبطال فى التاريخ كبطرس الراهب وجان دارك ومحمد(صلعم) ولوثر ونابليون هم الذين سببوا وحدهم ثورانًا فى الآراء ، بل نشاهد كل يوم حدوث ثوران فيها وان كان على مقياس ضيق ، مثال ذلك ما نشأ عن اعدام الفوضوى (فيريير) من ثوران أقام باريس وأقعدها وما أوجبه اجتياز طيار بحر المانش أول مرة من الوقع العظيم فى أرجاء أوروبا .

وتكون المجالس السياسية عرضة لثوران الآراء بوجه عام ، قال (اميل او ليڤيه) « لا يدرك من لم يكن له كرسى فى المجالس أمر تلك الحركات الفجائية التى تزحزح الأكثرية فى أيام الأزمة عن طريقها فتجعلها تنبذ الرأى الذى استحسنته قبلاً لتقترع لرأي آخر يناقض الأول مناقضة تامة »

لقد بينت آنفاً كيف استطاع بسمارك بحذفه بضع كلمات من برقية (إمس) أن يحدث فى فرنسا انفجاراً فكريًا أدى الى نشوب حرب السبعين كما أننى ذكرت أن فورانًا فجائيًا فى الرأى أوجب سقوط وزارة (كليمانسو) ، والآن أقول ان ثوران الآراء قد لا يتعدى حدّ احدى الزمر الاجتماعية ، ولكنه لا يكون حينئذ مؤثراً الا اذا كانت هذه الزمرة على شىء من القوة والسلطان ، فكل يعلم أن الفتنة الحديثة التى أوقدها أحد أحزاب مقاطعة الشنبانيا اوجبت حرق كثير من معاصر الخمر الكبيرة التى آخذ الكرّامون اصحابها على اشترائهم المنتجات من مناطق أخرى ، وما كان أمر تلك الفتنة ليتم لو لم يشعر العصاة بقوة عددهم و بضعف الحكومة إزاءها .

وأكثر الثورات الحديثة اشتعلت على أثر انفجار فى الرأى ، واذا لم نبحث عن ثورة ٤ ايلول التى حدثت عند ما علم الناس خبر انكسارنا فاننا نرى أن حادثات كسقوط الملكية فى البرتغال وفتن برلين وعصيان برشلونه والانقلاب التركى الخ لم تقع الا بغتة بفعل مؤثرات خفيفة ، وفى وقوع الثورات الشعبية فجأة ما يوجب العجب و يستوقف النظر ،اذ يرى أن اكثر الجموع تشترك فيها بتأثير العدوى النفسية من غير أن تعلم السبب الذى من أجله نشبت ، ولما بين تاريخ أغلب الثورات من شبه فاننا نعد هذا التاريخ يتجلى فى عبارات الموسيو (جورج كين) الموجزة التى لخص فيها ثورة سنة ١٨٣٠ واليكها :

« لقد وقع الانفجار الذى هيج باريس فجأة ، فلم تمض بضع ساعات حتى سُدّت الأزقة بالمتاريس وتنظمت كتائب مسلحة وضربت الطبول اشارة لجمع الحرس الوطنى وتجمهر العمال والطلبة فى الأسواق وتسلّم طلاب مدرسة (البوليتكنيك) قيادة العصاة وأصبح كل باريسى شاكيًا سلاحًا ، ونادى الجميع : فليسقط شارل

العاشر ! فليسقط بولينياك ! فلتسقط مراسيم الملك ! فليحي الدستور ! مع أن العصاة كلهم كانوا يجهلون معنى الدستور وما فى المراسيم من أحكام ، فتأمل ! »

ومما يلاحظ أن الحركات الثورية تنتشر سريعاً بتأثير العدوى النفسية بين الناس حتى بين الذين لا يهمهم أمر حدوثها ، فجنود البارجات الروسية الذين تمردوا أيام الثورة لم يرفعوا راية العصيان الا بفعل العدوى ، والا فماذا يهمهم كون روسيا نالت مجلساً نيابياً ام لم تنل وكون الفلاحين أصبحوا ذوى حق فى اشتراء اراضٍ ام لم يصبحوا ؟

فمن أوصاف الثورة البارزة أنها تذيع بين أناس لا ينفعهم أمر نشوبها ، بل قد يخسرون كل شيء عند وقوعها ، فسوف يلحق أبناء الطبقة الوسطى هلاك كبير حينما يتم النصر لما يؤيدونه من المبادىء الاشتراكية الثورية .

ومن حسن الحظ كون ثوران الآراء الشعبية الخطر — لعدم تأثير العقل فيه — لا يدوم طويلاً ، ولا تفعل مقاومته مباشرة غير تحريكه ، فقد كان اصرار أركان الحرب أيام قضية (دريفوس) على نقض بضع وثائق سبباً فى تهييج الرأى العام وفورانه .

وبجانب الحوادث المشهورة التى أشرت اليها آنفاً نشاهد ضروباً صغيرة لثوران الرأى ، فيكفى لايقاظها استعمال بضعة الفاظ تؤثّر فى المشاعر ، وقد جربت ذلك فى أمر بارز بسيط اليك بيانه :

كانت إدارة الاملاك الأميرية قررت لأسباب اقصادية بيع قطعة من حديقة (سان كلو) مقيدة فى سجلات الادارة المذكورة باسم غابة (ڤيلنوف ليتان) ، وبما أن امضاء هذا البيع نكبة على سكان تلك الضاحية الذين تعودوا النزهة فى الحديقة المذكورة فكيف يحال دون انعقاده ؟

لقد عُلّقت اعلانات البيع الرسمية على الجدران ، وحيث ان الجمهور لا يعرف مدلول ذلك الاسم الادارى لم يحرك ساكناً ، غير انى وجهت نظر مقررى لجنة الميزانية الى هذا الامر ذى العلاقة بالمنفعة العامة فوعدونى خيراً ، ثم مرت الأيام تلو الأيام ولم يبق ليوم عقد البيع البات القاطع سوى اسبوع واحد ، وفى تلك

الأثناء علمت أن البيع سوف ينعقد مع أحد يهود المانيا فنشرت فى احدى الصحف الكبيرة مقالة موجزة عنوانها « بيع حديقة (سان كلو) الى الالمان » ، وما كاد الخبر يعم حتى حدث ثوران فى الرأى العام فتهافت فوج من مراسلى الصحف على بلدية (سان كلو) لاستقصاء حقيقة الأمر وملأت الجرائد أعمدتها بمقالات طنانة عن هذا الموضوع ، ثم استُجوب الوزير فى مجلس النواب فصرح بالعدول عن البيع فى الحال والمستقبل .

وهكذا كفى لنيل النتيجة المذكورة نشر ثلاث كلمات ، فكلمات مثل هذه هى من الصيغ المؤثرة القادرة على تحويل المشاعر الفردية الى عزم جامع شامل .

الباب الثامن
حياة المعتقدات

الفصل الأول

صفات المعتقد الاساسية

١ — المعتقد احتياج نفسى مهيمن

لقد عرّفنا المعتقد فى الفصل الأول من هذا الكتاب بأنّه الايمان وذكرنا الفرق بينه وبين المعرفة وتكلمنا بايجاز عن شأنه ، وأما الآن فسنبحث عن حياة المعتقدات .

إن العناصر التى يتألف منها كياننا تتصل بثلاثة انواع من الحياة أعنى : الحياة العضوية والحياة العاطفية والحياة العقلية ، والاحتياج الى الإعتقاد هو من مظاهر الحياة العاطفية ، وهو فى تجبره وسيطرته كالجوع والحب ، وبما أن المعتقد هو احتياج مهيمن على طبيعتنا العاطفية فانه لا يكون إراديًا عقليًا ، ولا يقدر العقل على تكوينه وتسييره .

ومهما يكن عرق الناس ووقت ظهورهم ودرجة جهلهم وعلمهم فإنهم سواء فى عطشهم الى المعتقد ، فكأن المعتقد غذاء نفسى ضرورى لحياة الروح كضرورة الغذاء المادى لحفظ الجسم ، وما مبدأ الشك العام الذى قاله (ديكارت) غير خيال وهمي ، فاذا دخل المرء فى طور اللا أدرية فذلك لأجل قصير ، والحكيم وان كان لا يعتقد الأمور كالجاهل الا أن الاشياء التى يؤمن بها قلما تكون قائمة على الدليل والبرهان .

وقد أوضحنا الفرق بين المعتقد والمعرفة فى أوائل هذا السفر ايضاحًا كافيًا فرأينا أن المعتقد إيمان أينع فى عالم اللاشعور ولا يحتاج لإثبات أمره الى أية حجة تدعمه

مع أن المعرفة هى بنت الحيـاة الشاعرة وتقوم على التجربة والاختبار ، فبالمعرفة نعلم و بالمعتقد نسير ، ولو ألزم الانسان اكتساب المعرفة قبل أن يسير لاعترته البطالة والجمود زمناً طويلاً ، وقد ظلت المعتقداتُ وحدها أدلاء البشر قروناً عديدة ، فهى التى أنارت لهم السبل فى جميع المسائل ، ولم تكن الأديان منشـأ احتياج الناس الى الايمان ، بل إن هذا الاحتياج هو بالعكس علة الأديان ، فمتى ترك المرء دينه لم يلبث أن يعتنق بغريزته معتقداً آخر صنماً كان أم سحراً أم خرافة سياسية الخ .

٢ — عدم التسامح فى أمر المعتقدات .

عدم التسامح هو احدى صفات المعتقدات العامة الثابتـة ، وكلما كان المعتقد قوياً قل تساهله ، فالناس بعد أن يدخل إيمانٌ فى قلوبهم لا يصطبرون على من ليس عليه ، هذه هى سنة أجرت حكمها فى جميع الأجيال ولا تزال تجريه ، وكلٌ يعلم درجة ما يصل اليه المعتقدون من صولة دينية كفاراً كانوا أم قانتين ، فالحروب الدينيـة ومحكمة التفتيش وملحمة السان بارتلمى والغاء مرسوم نانت والهول الأكبر واضطهاد الأكليروس فى الوقت الحاضر الخ أمثلة على تلك الصولة .

واذا كان لتلك السنة شواذ نادرة سهل ايضاحها ، فالرومان لم يعترفوا بآلهة مختلف الشعوب التى دخلت فى ذمتهم إلاَّ لأن هذه الآلهة فى نظرهم عبارة عن سلسلة من الموجودات العلوية يجب اجتذابها بالعبـادة ، وكذلك البوذية فانها لم تؤد الى اضطهاد ، إذ هى متساهلة بما تأمر الناس به من التجرد عن الرغائب والشهوات و باعتبارها الآلهة والموجودات أوهاماً لا أهمية لها ، وليس من سبب يجعلها عديمة التسامح .

إذاً مثل هذه الشواذ توضح نفسها بنفسها ، وليس فيها ما يناقض الناموس العام القائل إن المعتقد عديم التساهل بحكم الضرورة .

والمعتقدات السياسية هى كالمعتقدات الدينية فى عدم تسامحها ، فليس من يجهل الشدة التى أباد بها رجال العهد الذين اعتقدوا أنهم على الحق المطلق خصومَ ايمانهم السياسى ، وأنصار إلاهة العقل فى الوقت الحاضر هم كهؤلاء شدة وتعصباً وتعطشاً الى القرابين البشرية ، وستظل كلمة القديس (طوماس) الآتية مبدأ لكل مؤمن حقيق

وهى : « إن الإلحاد إثم يستحق صاحبه القتل » ، ولذلك أصاب الموسيو (جورج صوريل) حيث أنبأ بأن أول عمل تأتى به الاشتراكية المنتصرة هو قتل أعدائها بلا رحمة ، وإلاَّ فكيف يستقيم أمرها حيناً من الزمن إذا لم تفعل ذلك ؟

وعدم التسامح فى أمر المعتقد وما ينشأ عنه من الاضطهاد ليسا عند العوام أقل منهما عند المتعلمين ، بل قد يكونان عند هؤلاء أنمى وأكثر استمراراً ، قال (ميشليه): « أعجب أحياناً من قسوة المتعلمين الشديدة التى قد لا يأتى بمثلها من هم أقل علماً وأدنى معرفة . »

٣ — استقلال الرأى ، شأن عدم التسامح الاجتماعى .

إذا دُرس عدم التسامح فى أمر المعتقد من الوجهة العقلية وحدها بدا شيئاً ثقيلاً لا يُطاق ، وأما إذا نُظر اليه من الوجهة العملية فإنه لا يكون كذلك ، لأنَّ الرغبة فى الاستقلال الذى يتخلص به المرء من سلطان المعتقد العام أمر شاذٌ ، وكلٌّ يتحمل استعباد البيئة الاجتماعية المحددة للاستقلال الشخصى من غير أن يتظلم ، وفى الغالب لا يشعر الإنسان بذلك الاستعباد ، ولا بد له فى البداءة من التحرر من ربقة البيئة — كأن يعيش منزوياً — لكى يصبح حراً حقيقياً .

وكل ما يمكن المرء أن يناله من الاستقلال هو أن يقدر أحياناً على مقاومة ما يشيع بين الناس من تلقين شامل ، وبذلك يمتاز من أفراد زمرته الذين يتبعون ما يطرأ على هذه الزمرة من معتقدات وآراء وأوهام كالهشيم الذي تذروه الرياح .

وصفوة الناس القليلة هى وحدها ذات آراء شخصية فى بعض الأحيان ، والى هذه الصفوة العالية يعود فضل الإتيان بمبتكرات الحضارة ، ولا نتمنى زيادة عددها كثيراً ، لأنهُ لما كان المجتمع لا يقدر على ملاءمة مبتكرات متتابعة صادرة عن صفوة كثيرة العدد فإنه يقع فى الفوضى بعد ظهور صفوة كبيرة ، فالثبات الضرورى لبقاء المجتمع قد تم أمره بفعل جماهير الناس ذوى النفوس البطيئة القليلة الذكاء التى تقودها البيئة والتقاليد .

فمن المفيد أن تكون اكثرية المجتمع مؤلفة من متوسطى العقل الذين

لا رائد لهم سوى ما فى البيئة من آراء ومعتقدات عامة ، ومن المفيد أيضاً أن تكون الآراء العامة قليلة التسامح ، إذ الخوف من انتقاد الآخرين هو أحد الأسس الأخلاقية المتينـــة ، ويكون التوسط فى العقل اكثر فائدة للأمة إذا اجتمع مع بعض المزايا الخلقية ، وقد اطلعت انكلترا على ذلك بغريزتها فبقيت على رغم كونها من اكثر بلاد العالم حرية تمقت كلّ فكر متطرف .

٤ — اشتداد المعتقد ، الشهداء .

بين الرأى الموقت وبين المعتقد التام الذى يستولى على العقل وقوة التمييز مراحل قلما قطعت ، وحينما تجاز فى بعض الأدوار النادرة تشتد اندفاعات المرء الدينية وما توجبه من المشاعر حتى لا تقدر على ردعها جميـــع الزواجر الاجتماعية وعقوبات القوانين ، ووقتئذ يظهر أمثال (بوليوكت) الذى حطم الأصنام والشهيد الذى لم يبال بسيف الجلاد والعدمى الذى رمى قنبلة بين جم غفير ليقتل أميراً .

ومتى بلغ معتقد المرء هذه الشدة لم يقم فى وجهه حاجز فيستولى على أوضح منافعه وأعز مشاعره ويجعله يرى الخطأ صواباً والصواب خطأ ويدفعه الى التضحية بنفسه فى سبيل نشر ايمانه والذود عنه .

والشهداء جميعهم ذوو نفسية واحدة ، أى لا فرق بين نفسية من ذهب منهم ضحية السياسة ونفسية من ذهب ضحية الدين او المبادىء الاجتماعية ، ولما سحرتهم حلاوة المبدإ ضحّوا بأنفسهم بوجوه مبتسمة انتصاراً له غير طامعين بثواب فى الدنيا ولا فى الآخرة أحياناً ، يؤيد ذلك تاريخ العدميين والارهابيين فى روسيا الذين يلقون بأنفسهم الى التهلكة غير راجين دخول ملكوت السماوات .

ومن حسن الحظ أن عدد هؤلاء المتهوسين قليل فى كل دور ، ولو زادوا لقلبوا العالم ، والبحث عن الشهداء هو من خصائص عـــلم الامراض النفسية ، ولما بين المتهوسين من شبه كبير على رغم التباين بين معتقداتهم فان درس اثنين أو ثلاثة منهم يؤدى الى الوقوف على حقيقة الباقين .

ولا ينشأ عن الايمان تحول فى الآراء فقط بل تتبدد أمام سلطانه مشاعر قوية

الى الغاية كالخوف والحشمة وحب الأبوين ، ويشهد بصحة هذا القول تاريخ الشهداء الذين نعد القديسة (بيربيتوا) التى ظهرت فى عهد الامبراطور (سبتيم سيڤير) الرومانى مثالاً لهم ، فهذه القديسة الجميلة المثرية التى هى بنت رئيس مجلس شيوخ (قرطاجنـــة) والتى اعتنقت الديانة المسيحية سراً فضلت عرضها عارية أمام الجمهور لتلتقمها الحيوانات المفترسة على أن تحرق اللبان فى الهيكل الامبراطورى .

ومما يعتقده المؤمنون هو أن هذه الأحوال دليل على قدرة آلهتهم ، فلا ريب فى أن هذا الاعتقاد وهم باطل ، ذلك لأن جميع الأديان والمذاهب السياسية لها شهداء كالذين أشرنا اليهم .

ومن بين ألوف الأمثلة نورد الديانة البابية التى انتشرت منذ ستين سنة فى بلاد فارس مثلاً على ما ذكرنا :

لقد ظن الشاه آنئذٍ أنه يقدر على إطفاء هذا الايمان الجديد بسوم أنصاره سوء العذاب ، ولـكن انظر ماذا حدث حسب تقرير (غوبينو) : « تقدم الأطفال والنساء نحو السيافة وهم ينشدون بصوت عالٍ «الله خلقنا واليه مردنا» ، وكان الشهيد وقتما يبقره السياف ينهض قائماً وهو يقول بحماسة «الله خلقنا واليه مردنا» ، ومما شوهد على الخصوص أن جلاداً قال لوالد إنه سيضرب على كتفيه عنق ولديه إذ لم يرجع عن مذهبه ، فأجاب الوالد ملقياً نفسه على الأرض أنه لا يبالى بذلك ، ثم تقدم ولده الكبير — وكان فى الرابعة عشرة — طالباً بصفته اكبر الأبنين أن يذبح قبل أخيه ، وكان أحد أشياع الباب وهو معلق على سور تبريز لا ينطق الا بهذه الكلمة وهى : إلهى ، هل أنت راض عنى ؟ » .

ومثل ذلك الاضطهاد الذى عاناهُ فى هذه الأيام أنصار مذهب (السكوبسى) فى روسيا وأتباع مذهب (المورمون) فى الولايات المتحدة ، وقد فضل جميع هؤلاء العذاب على الرجوع عن ايمانهم .

تثبت هذه الحوادث وما شاكلها ما فى الروح الدينية من قوة قادرة على تبديد والألم على قهر المشاعر التى يقوم عليها كيان الانسان ، فماذا يستطيع العقل أن يفعل أمامها؟

لاتحرك الجموع بالبراهين العقلية ، وأما بالمعتقد فيمكن التغلب عليها على الدوام ، والعقل على ما فيه من سلطان يقدر أن يقاتل به الطبيعة يعجز عن تكوين المعتقدات .

وبفضل المعتقدات التى تخرب أحيانًا وتبدع غالبًا وتنتصر دائمًا تتأسس دول التاريخ الرهيبة ودعائم الحضارات الصادقة ، ولولا المعتقدات لما عاشت الأمم .

الفصل الثانى

ما ينشأ عن المعتقدات من اليقين وما يقنع به المؤمنون من الادلة

---

١ — ما ينشأ عن المعتقدات من اليقين .

ينشأ عن المعتقد القوى يقين لا يزعزعه شىء ، ومن مثل هذا اليقين تشتق اكثر حوادث التاريخ أهمية ، فقد أيقن محمد (صلعم) أن الله أمره بالدعوة الى دين جديد أوحى به لتجديد العالم فاستطاع بفضل يقينه أن يقلب الدنيا ، وايقن بطرس الراهب أن الرب يريد استرداد قبر المسيح من يد الكفار فاستطاع بقوة ايمانه أن يسوق ملايين من الرجال الى الهلاك ، وأيقن لوثر أن البابا عدو المسيح وأن لا أساس للمَطْهَر فى النصرانية فاستطاع بذلك اليقين أن يشعل فى اوربا حروبًا امتدت قرونًا طويلة ، وأيقن قساوسة محكمة التفتيش أن الرب يريد حرق الخوارج فاستطاعوا بفعل هذا اليقين أن يستأصلوا أهل اسبانيا ، وأيقن شارل التاسع ولويس الرابع عشر أن خالق السماوات والارض لا يسمح ببقاء البروتستان فأوجب الاول حدوث ملحمة الســان برتلمى وطاردهم الثانى شر مطاردة ، وأيقن رجال العهد بوجوب ضرب كثير من الرقاب فى سبيل سعادة البشر فأدى ذلك الى وقوع حروب كثيرة ثم الى اعلان الحكم المطلق ، وهلك من أجل هذا ثلاثة ملايين من الرجال فى اوربا ، ويوقن اليوم مئات من أبناء الطبقات الوسطى بأن الاشتراكية ستصلح الكون فهم بهذا اليقين يقوضون غاضبين دعائم المجتمع الذى يعيشون فيه .

ومن نتائج اليقين الناشىء عن المعتقد ظهور بضعة مبادىء خلقية قوية هى السبب فى حدوث شعور جديد يكون دليلاً على السير ، ومما يدل على ذلك أنّ الثورة الفرنسوية لم تكد تقع حتى اقترف الذين كانوا فى العهد السابق مسالمين أعمالاً دامية خاضعين لحكم اندفاعات أورثهم إياها إيمانهم الجديد ، ومن هؤلاء المندفعين سفاكو شهر ايلول الذين طلبوا أجراً قومياً على ما اجترحوه ومنهم زعماء العصابات الذين خرّبوا مقاطعة (ڤاندة) [1]

ويتضمن اليقين الدينى واليقين العاطفى في الانسان احتياجًا يدفعه الى حمل الناس عليهما ، فالمرء عند ما يؤانس من نفسه قوة لا يتحمل أن يرى يقينًا غير يقينه عند الباقين ، ولا يتأخر ثانية عن اقتراف اشد المظالم والأتيان بافظع المذابح فى هذا السبيل ، حقًا لقد خرب أولو اليقين العالم فى كل زمان ، ومما يخشى على الأمة أن يقودها هؤلاء ، وإن كانوا كما قال (ريبو) يقبضون على زمام تلك الأمة فى بعض ادوارها .

فليوقن رجل ذو قوة كامبراطور المانيا أنه يقتبس قوته من الله ثم ليتوهم أن الله امره بشهر الحرب على الملاحدة لنرى كيف يقلب أوربا كما قلبت فى الماضى بفعل مثل ذلك اليقين .

٢ — الأدلة التى يقنع بها المؤمنون

المعتقد هو ايمان لا يتطلب لثبات امره أدلة وكثيراً ما لا يتحقق بالادلة ، ولو قام الأيمان على الدليل العقلى وحده لكان عدد المعتقدات التى ظهرت على مر الاجيال قليلة ، وبراهين المؤمنين في الغالب صبيانية بالنسبة الى العقل ، ومع ذلك فليس من خصائص العقل أن يقضى فيها لاشتقاقها من عناصر دينية أو عاطفية لا صلة بينه وبينها .

---

(١) تتجلى نفسية هؤلاء بمطالعة الكتاب الذي أرسله وقتئذ الجندي (جوليكار) ونشرته حديثاً جريدة الطان في عددها الصادر في ٢٦ تشرين الأول سنة ١٩١٠ ، واليك بعض ما جاء فيه : « سنغزو ونخرب مقاطعتى (دوسيفر) و (فانده) ، وسنعمل فيهما الحديد والنار وسنحمل البنادق في يد والمشاهل في الاخرى وسوف نقتل النساء والرجال بالسيف ، هذا وقد حرقنا حتى الآن سبعة فراسخ فاغتنى بذلك كثير من الجنود »

ولما كان العقل غير مشترك فى تكوين المعتقدات فانه لاحد لسرعة التصديق فى المؤمن . ولا يتخيل المؤمن أنه يعتقد الاشياء من غير برهان بدليل أنه يستشهد بالبراهين على الدوام ، غير أن هذه البراهين التى يقنع بها تدل على ما فيه من سذاجة متناهية وسرعة تصديق متأصلة .

ويتجلى لنا هذا الامر من مطالعة الكتب التى بحثت عن الوسائل التى استعان بها القضاة المنعوتون فى الماضى بالجهابذة لكشف السحرة . فانها تدل مع رسائل علم اللاهوت على الهوة العميقة بين الدليل الذى يتطلبه العلماء والدليل الذى يقنع به المؤمنون المقذوف بهم فى دائرة المعتقد ، ولا فائدة من ايراد كثير من الامثلة على ذلك ، فانها كلها تشابه ما حدث فى الدعوى التى اقيمت على الكاتب (البانو) الايطالى ، فقد استُشهد على أنه تعلم « سبع المهن الحرة » من سبعة عفاريت من الجن باكتشاف زجاجة علاج مركب من سبعة أدوية مختلفة فى بيته ، ومع كونه فى الرابعة عشرة من عمره فقد أوشك القضاء أن يحكم عليه بالحرق حيًا لو لم يمت فجأة بفضل حماته من العفاريت ! ، حينئذ اكتفى القضاة بنبش قبره وحرقه ميتًا فى أحد الميادين العامة .

وقد ندر حرق السحرة فى عهد لويس الرابع عشر ، ولكن ما من أحد كان ينكر قدرتهم ، وقد كشفت قضية الساحرة (ڤوارين) أن أكابر ذلك الوقت — ومنهم المارشال (دولكسنبرغ) وأسقف (لانغر) الذى كان واعظ الملكة الأول — كانوا يعوذون بقدرة السحر ، والى هذه القدرة طلب المطران (سيميان دوجورج) أن تعطيه حبل روح القدس الازرق !

وما يقصه العرافون والرمالون فى الزمن الحاضر من اتصالهم بعالم الشياطين يثبت لنا أنه لم يذهب شىء من بساطة الإنسان وسرعة تصديقه ، ومن اغرب ما علمناه أن أحد الوزراء المعروفين بعداوتهم للاكليروس لا يخرج من بيته الا حاملاً حبل مشنوق وأن احد سفرائنا لا يأكل على خوان عليه ثلاثة عشر مدعواً ، فهل وثنية أمثال هذين القطبين أرقى من المعتقدات الدينية التى يحاربونها بما أوتوا من قوة ؟ لا شك لا .

ويشعر المؤمنون فى كل وقت بضرورة ايجاد براهين يدعمون بها ايمانهم كى يهدوا

الكفرة على الأقل ، وما بذلوه ويبذلونه من المساعى العظيمة فى وضع مؤلفات لعلم اللاهوت يثبت لنا درجة سيطرة هذه الضرورة .

إنهم — عدا ما يذكرونه فى كتبهم من المعجزات البينات — يعدون الاجماع العام برهانًا ساطعًا على صحة دينهم ، ولم يتردد بعض الأفذاذ كبوسويه فى انتهاج تلك الطريق،فاما اعتبر هذا الحبر الشهير الآراء الفردية خطرةً جديرةً بالازدراء قال إن الشعور العام هو على الحق وإن المذهب يكون صحيحًا بعد أن يتفق الجمهور على صحته وإن الفرد لا يكون مصيبًا وبقية الناس مخطئون ، وما كان خطل هذه البرهنة ليبدو لو لم تثبت مبتكرات العلوم أنها لم تظهر إلاّ لأن المرء وهو منفرد على حق أكثر من الجموع الحافلة والجماهير الحاشدة .

٣ — التصادم بين العلم والمعتقد .

لقد بينا أن دوائر أنواع المنطق هى من الاختلاف بحيث لا تجاوز إحداها حدود الأخرى فلا تتصادمان ، ومع ذلك فإن هنالك نقطة يظهر أن العلم والمعتقد يتقاتلان من أجلها نظراً لكونها تتعلق بمبدإ أساسى .

لعلّ أهم ثورة ظهرت فى عالم الفكر هى الثورة التى أدى اليها العلم بإثباته أن الحوادث تصدر عن نواميس مهيمنة لا عن أهواء الآلهة ، إذ بهذه الثورة تبدلت الكيفية التى ننظر بها الى الكون دفعة واحدة ، وهذا الاكتشاف العظيم الشأن الذى اخرج البشر اول مرة من دائرة المعتقد الى دائرة المعرفة لم يعمّ بعد ، إذ إن كثيراً من الناس يعتقدون أن قوى ما بعد الطبيعة تسير الحادثات وتقدر على تغيير مجراها عند ما يُستغاث بها .

فبما أن هذا التصور هو وليد الآمال التى لا تموت ابداً فإن التباين بين العلم والمعتقد سيبقى على هذه النقطة ، ويظهر أن التباين المذكور أبدى ، لانّ العلم مع انهُ لم يترك اثراً للآلهة في البقاع التى ارتادها لا يستطيع أن يثبت للمؤمنين أنه لا شىء فى البقاع التى لم يردها بعد ، فمن خلال هذه البقاع غير المطروقة تتراءى اشباح يتخيلها ذوو الايمان .

والأنسان بتركه مبدأ الوجوب فى تسلسل الحوادث يعود الى المبدإ الذى قضى عليه بعد عناء كبير والقائل إن مصدر الحوادث هو الآلهة ذات الاهواء ، فلو أن الحادثات التى يخبر بها اولو الكرامات فى الوقت الحاضر ممكنة لتقهقر العلم طائعًا الى قرون الاساطير حيث كان مصير الحروب بيد الآلهة وكانت كتائب الأرواح والجن والغيلان والعفاريت تتدخل فى أمور البشر اليومية ولرأينا قراءة العزائم والصلوات والقرابين والتعاويذ تصبح اليوم كما كانت فى الماضى وسائل فريدة لاستعطاف هذه القوى الهوائية .

وليس ما ينافى هذه القهقرة ، لأن نفسية الانسان الدينية تهيمن عليه فى كل وقت فترغمه على الالتجاء الى ما بعد الطبيعة وإن كان البحث الدقيق فى خوارق ما بعد الطبيعة يدلنا على أن هذه الخوارق عبارة عن أوهام تكونت فى نفوسنا ، وسوف نبين ذلك عند ما نوضح فى باب آخر كيفية تكوين بعض المعتقدات ايضاحًا قائمًا على التجربة .

الفصل الثالث

الشأن المنسوب الى العقل والارادة في تكوين المعتقد

---

١ — استقلال العقل واستقلال المعتقد

تعلن المباحث التى درست أمر تكوين المعتقدات أن هذه المعتقدات إرادية عقلية ، ومصدر هذا الخطإ هو الشأن الكبير الذى نسب الى العقل فى كتب علم النفس ، وأما نحن فقد فرقنا فى هذا الكتاب بين الذات العاطفة والذات العاقلة وأثبتنا أنه يسيطر على هاتين الذاتين أنواع منطق مختلفة وأن العقل الذى هو عنوان الذكاء مستقل عن المعتقد الذى هو عنوان المشاعر وخلق التدين ، وقد زدنا هذا الاستقلال وضوحًا عند ما قررنا أن المعتقد والمعرفة يستندان فى تكوينهما الى طرق وأساليب متباينة كل التباين .

ولو نظرنا الى أكثر منازعاتنا السياسية والدينية لرأيناها ناشئة عن زعمنا الوهمي الذي نريد أن نجعل به الأمور المتباينة يؤثر بعضها فى بعض كالمعتقد والمعرفة مثلاً ، ولا نقدر على استكناه قوة المعتقدات الا إذا اعترفنا بأنها بعيدة من أى مؤثر عقلي وقد يلوح للقارىء أنه ليس من المفيد أن نعود الى هذا الموضوع مرة أخرى ، ولكن ليعلم أن الأدلة مهما تكن عديدة فانها لا تكفى لمقاتلة أوهام مستعصية كهذه .

ولو كان العقل قادراً على التأثير فى المعتقدات لأصبح كل ما هو مخالف للصواب منها فى خبر كان ، فنرى والحالة هذه أن تلك المستحيلات العقلية لا تزال ثابتة فى النفوس ، ولذا ترانا مكرهين على التسليم بأنه لا مستحيل عند المؤمن وبأن المرء ليس حراً فى الاعتقاد وعدمه .

إن المؤثرات العاطفية والدينية التى هى أساس المعتقد هى كما قلت غير مرة تختلف عن سلسلة المعقولات التى تستند اليها المعرفة ، فلا فحص ولا تحقيق فى أمر المعتقد وأما فى أمر المعرفة فالتدقيق هو القاعدة وعلى حكمه ينزل كل معترض .

ومما تتصف به المعتقدات هو كونها تولد أوهاماً فى النفوس وترغم هذه النفوس على الخضوع لسلطانها ، ثم ان الانسان قد يتخلص من ربقة الظالمة المستبدين ولكنه يعجز عن التحرر من سيطرة المعتقدات على الدوام ، ويعد الذين هم مستعدون للتضحية بأنفسهم فى سبيل المعتقدات بالألوف مع أنه لا يعرض واحد من هؤلاء نفسه للخطر انتصاراً لاحدى الحقائق العقلية .

ولم يقدر دور العقل الذى دخل البشر فيه حديثاً بفضل مبتكرات العلوم على زعزعة قوة المعتقدات ، بل ربما لم تظهر معتقدات سياسية او دينية او اجتماعية عديدة فى زمن مثل ظهورها فيه ولا سيما فى اميركا وروسيا حيث يتكون كل يوم معتقد جديد .

٢ — عجز العقل عن التأثير فى المعتقد

قد يسيطر العقل على المعتقد عند ما يلحق المعتقد قبل أفوله وهنٌ ودروس بفعل

تطور الأشياء الطبيعى ، وأما المعتقد فى دور انتصاره فانه لا يحاول أن يقاتل العقل نظراً لأن هذا الأخير لا يعارضه فى ذلك الحين .

حقاً ليس ما هو أندر من ظهور أناس فى دور الايمان هم من الاستقلال بحيث يجادلون فى أمر المعتقد مجادلة عقليـــة ، فيثبت لنا مثال (باسكال) ماذا تكون نتائج التنازع بين المنطق العاطفى والدينى من جهة والمنطق العقلى من جهة أخرى : كان هذا المفكر الشهير يكتب فى زمن يخضع الناس فيه للحقائق الدينية غير مناقشين ، أى فى زمن لا يجرؤ فيه غير اولى العبقرية مثله على فحص هـــذه الحقائق فحصاً عقلياً ، ولـــكن ما أصابه من الفشل فى مسعاه يؤيد مرة أخرى لنا عجز العقل عن التأثير فى المعتقد

ساق ذكاء (باسكال) الواسع الى اطلاعه على بطلان القصة القائلة إن الله انتقم لنفسه من ابنه على الخطيئة التى ارتكبها احد خلقه فى بدء العالم ، ولـــكن سرعان ما خرّ منطقه العقلى ساجداً أمام اندفاعات منطقه الدينى ، إذ لما استحوذ عليه ما ألقاه المنطق الدينى فى قلبه من خوف الجحيم وكان مع ذلك يود أن يدافع عن معتقده ببراهين مقبولة اعتبر حياة الآخرة كناية عن مراهنة مخيفة ، لأن العذاب الأبدى واقع ان كان وجود جهنم متحققاً ، قال هذا الفيلسوف مؤكداً : « إزاء هذا الارتياب تجب المراهنة على وجود حياة فى الآخرة ويجب على الانسان أن يسير كأن هذه الحياة موجودة »

وبعـــد أن اقتنع (باسكال) بذلك على هون حاول — ولـــكن عبثاً — أن يدعم عقيدته بمنطقه العقلى ، فالمعجزات والاخبار بالغيب من جمـــلة البراهين التى تذرع بها هذا المفكر العظيم ليثبت صحة ايمانه إثباتاً عقلياً ، ولـــكن بما أن هذه الأدلة قد التجأت اليها جميع الأديان فانه لم يسعه سوى انكار ما حكت عنه هذه الأديان ، إذ قال : « يستطيع كل انسان أن يأتى بمثل ما عمله محمد الذى لم يجىء بمعجزة ولم ينبىء بغيب ، وأما ما أتى به يسوع المسيح فلن يقدر احد على فعل ما يدانيه » ، غير أن منطق (باسكال) الدينى لم يسمح له بالبحث عن السبب فى كون الاسلام والبوذية لهما ما للنصرانية من الانصار والتابعين .

ومع ما فى برهنة هذا الحـكيم من الدقة كان يشعر بضرورة دعم ايمانه بأدلة

قد لا يرضى بمثلها العقل السديد ، ثم كان يقول ان الايمان واجب للنجاة من نار جهنم على فرض وجودها ، ولكن كيف يدخل الايمان فى قلب الانسان ؟ اسمع ما يقول « ان كنتم تريدون أن تكونوا مؤمنين فباشروا الأمر كأنكم مؤمنين اى اشربوا ماء المعمودية وأقيموا القداس الخ وبذلك تصبحون من المؤمنين »

يثبت لنا مبحث (باسكال) عجز العقل عن مقاتلة المعتقد ، وبهذا العجز نفسر بضع حوادث تاريخية غامضة فى ظاهرها كحادثة دير (بور رويال) التى كدرت صفاء جانب من عهد لويس الرابع عشر ، كان فى ذلك الدير بضعة رهبان أتقياء لهم رأى خاص فى نظرية المشيئة الأزلية ، ولو نظر الى مباحثهم فى الغفران وتناول القربان وقضايا (جانسينيوس) الخمس من الوجهة العقلية لتبين أنها لا تستحق الاهتمام ، ومع ذلك اوجبت فى القلوب غضباً شديداً أدى الى نسف الدير المذكور وتشتيت شمل رهبانه مع كونهم عنوان الفضيلة والصلاح ، فلو كان العقل ذا تأثير فى وقوع مثل ذلك الحادث لتمذر ايضاح أمره .

وتلك المعتقدات تنضج فى عالم اللاشعور فلا سلطان للعقل ولا للارادة عليها ، وهى نتيجة تلقين كالتلقين الذى يأتى به جميع المنومين فى الوقت الحاضر نعم قد يلقى العقل فى النفس شوقاً الى الاعتقاد ولكنه يعجز عن حمل الانسان عليه ولن يكون المرء ذا اعتقاد باتباع نصيحة (باسكال) القائلة إن الرجل يصير معتقداً بعد أن يُرغم نفسه على الظهور بمظهر المؤمن ، فالإرادة مهما تكن قوية لا تقدر على إدخال الايمان الى القلب .

ولأن المعتقد مستقل عن العقل فاننا لا نعجب كما لاحظ ريبو « من مشاهدة ذوى العقول السامية الذين انقطعوا الى مناهج العلم وأصوله يؤمنون فى أمور الدين والسياسة والأخلاق بآراء صبيانية يترفعون عن المجادلة فيها ثانية واحدة لو كان المؤمنون بها غيرهم . »

وفى الغالب نعانى المعتقدات غير مناقشين فيها ، وحسناً ما نفعل ، فسوف يشيخ العالم كثيراً قبل أن يوازن العقلُ خلقَ التدين .

الفصل الرابع

كيف تثبت المعتقدات وكيف تتطور

---

١ — كيف تثبت المعتقدات .

الحقيقة تكون عقلية إذا كانت غير شخصية ، وما استندت اليه من دعائم يبقى مؤبداً ، وأما المعتقدات فلأنها شخصية ولاستنادها الى مبادىء عاطفية أو دينية تخضع لجميع العوامل التى تؤثر فى الاحساس ، وعليه وجب أن تكون متقلبة تقلباً متتابعاً .

ومع أن الأمر يقتضى أن يكون كذلك فإن أجزاء المعتقد الجوهرية تثبت إذا دوفع عنها دفاعاً مستمراً ، وإلاَّ فانها لا تلبث أن تنحل عراها ، والتاريخ أكبر شاهد على صحة قولنا ، إذ هو مفعم بأنقاض معتقدات لم تثبت بسبب ذلك إلا قليلاً .

ولا يكفى لثبات المعتقد إثباتُه كتابةً ، لأن الكتابة لا تفعل غير تبطئة زواله بفعل الزمن ، فالمعتقد الدينى أو السياسى أو الأخلاقى يثبت على الخصوص بتأثير العدوى النفسية والتلقين المكرر ، ومن مقومات هذين الركنين نعد الصور والتماثيل والحج والطقوس والترتيل والموسيقى والوعظ والإرشاد الخ .

ولو نُفِىَ المؤمن المتعصب الى بادية ليس فيها ما يذكِّره بدينه لضعف ايمانه بسرعة ، فالذى يجعل الزهاد والمبشرين حافظين لايمانهم هو كونهم يتلون كتب الدين كل يوم ويقضون أوقاتهم بالصلاة والتسبيح ، والذين أوجبوا القساوسة أن يتلوا كل نهار كتاب الفرض الكنسى هم من الواقفين على أحوال النفس وتأثير التلقين والتكرار فيها .

وما من معتقد يثبت إذا حُرم مقومات ثابتة يستند اليها ، فلولا معابد الإله وصوره وتماثيله لفقد عباده ، ولذلك سار هادمو الهياكل بغريزة صادقة عند ما حطموا التماثيل ودكوا المعابد التى هى رمز الى الآلهة التى ارادوا ان يمحقوها ، وقد كان رجال الثورة الفرنسوية أيضاً على حق — بحسب ذهنيتهم — عند ما حاولوا أن

يقضوا على تأثير الماضى بتخريب الكنائس والتماثيل والقصور ، غير أن هذا التخريب لم يطل عهده حتى يقدر على التأثير فى المشاعر التى ثبتت بفعل الوراثة والتى هى أمتن من رموزها الحجرية .

٢ — كيف تتطور المعتقدات .

لا يعنى ثبات المعتقدات على الوجه الذى ذكرناه أنها لا تتحول أبداً ، فهى بالعكس تتطور وإن كان أتباعها يزعمون خلاف ذلك ، وسبب هذا الزعم تصريح الكتب المقدسة باستحالة تحريف الديانة التى تدعو الناس اليها .

حقًا إن الواقع يثبت أن المعتقد سياسيًا كان أم دينيًا أم فنيًا أم اجتماعيًا لا يثبت منه سوى اسمه ، وقد بينت فى كتابى المسمى « سر تطور الأمم » كيف تتحول الاناظيم واللغات والمعتقدات والفنون ثم أثبت أن هذه العناصر لا تنتقل من أمة الى أخرى من غير أن يعتورها تبدل عظيم .

وعلى هذا فإن المعتقدات — مع ثباتها الظاهر الناشىء عن نصوصها القاطعة — تضطر الى التحول لتلتئم بالتقلب الذى يطرأ على نفسية أتباعها والبيئات التى تتسرب فيها ، والتحول المذكور يقع ببطء ، ولكن متى تراكم هذا التحول بتعاقب الأزمنة بدا للعين أنه لا صلة بين نصوص الكتب أيام وضعها وبين تطبيقها على العمل عند تمام ذلك التراكم ، خذ ديانة البراهمة مثلاً تر أنها ابتعدت من كتب الهندوس المسماة « ڤيدا » وكذلك أمر الديانة البوذية .

ومع أنه يصعب تعيين النواميس التى يسير عليها تطور المعتقدات فاننا نذكر ما يأتى :

أولاً : قد يُجمع بين المعتقدات المتماثلة عند المصاقبة ، وذلك كما يقع فى آلهة الوثنيين ومعتقداتهم — ثانيًا : إذا كانت المعتقدات متباينة فالقوى منهـا يقضى على البقية ، لهـذا السبب استطاع الإسلام أن يهدى عدا قبائل أفريقيا المتوحشة أمم الهند العريقة فى التمدن — ثالثًا : بعد أن يتم النصر للمعتقد ينقسم الى فرق ومذاهب لا يحافظ كل منها على غير مبادىء المعتقد الأساسية .

و يجدر بنا أن نطنب فى بيان الناموس الثالث ، فهو يكفى لايضاح الكيفية التى تتطور بها المعتقدات .

لقد لوحظ افتراق المعتقدات الى فرق عقب انتصارها فى جميع الديانات الكبيرة كالنصرانية والاسلام مثلاً ، والنصرانية نظراً لكونها اكثر الأديان تعقيداً ولدت كثيراً من الفرق والمذاهب (كالمانوية والاريوسية والنسطورية الخ) التى تطاحنت قروناً عديدة ، وقد زادت ثورة الاصلاح الدينى هذا التطاحن شدةً ، وما لبثت فرقة البروتستان أن انقسمت الى مذاهب نذكر منها مذهب الانغليكان ومذهب لوثر ومذهب كالفين الخ .

و بما أن المذهب الذى هو وليد الدين يطمع بحكم الطبيعة فى التغلب على بقية المذاهب فإنهُ لا يلبث أن يصبح عديم التسامح كالدين الذى صدر عنه ، ولذلك نعد من الخطإ والجهل بطبيعة المعتقد اعتبار ثورة الاصلاح الدينى رمزاً لانتصار حرية الفكر ، فقد كان البروتستان فى أول الامر أشد من الكاثوليك تعصباً ، وما أتى (لوثر) وخلفاؤه إلا بمبادىء جامدة مجردة عن الحكمة مشبعة من روح التعصب الذميم ، ثم إن (كالفين) قسم الناس الى أخيار وضالين فقال يجب على اولئك أن يضطهدوا هؤلاء ، وعند ما أصبح سيد مدينة (جنيف) سامها سوء العذاب فأسس فيها محكمة ضارعت محكمة التفتيش فى ميلها الى سفك الدماء . وقد اعدم مخالفه (ميشل سيرفيت) حرقاً بالنار .

وفى ملحمة (السان بارتلمى) التى تجلى فيها الخصام الدينى فى فرنسا قُتل البروتستان ، وأما فى الأمكنة التى لهم الاكثرية فيها فأصبحوا من أشد السفاكين ، وما كان أحد الطرفين أقل تسامحاً من الآخر فى الدور المذكور .

وسبب الانقسام فى المعتقدات هو أن كل امرىء يميل فيها الى مبادىء تؤثر فيه اكثر من البعض الآخر ، و بفعل هذا التأثير يحاول المؤمنون الذين لهم مزاج الرسول أن يقيموا كنيسةً صغيرةً ، فاذا نجحوا فى مسعاهم يكونون قد أسسوا فرقة جديدة لا تلبث أن تنتشر بالعدوى النفسية ، ومما يعين على انقسام الأديان الى فرق هو ما فى الكتب المقدسة من غموض والتباس ، فلهذا الغموض والالتباس يقدر كل عالم

لاهوتى على تفسيرها وتأويلها حسبما يرى ، ويفيدنا للوقوف على ذلك أن نتصفح الكتب التى بُحث فيها عن مذهب اليسوعيين وأتباع (توما) وأنصار (جانسينيوس) الخ فى العفو والغفران ، حينئذٍ نرى كيف تتيه النفوس التى ران الايمان على قلوبها .

ويظهر أن أولى العبقرية أيضاً يضلون عندما يدخلون فى ميدان المعتقد ، مثال ذلك كتاب (ملبرانش) الشهير الذى سماه « التأملات » ونال رواجاً سنة ١٦٨٤ حتى إنه بيع منه أربعة آلاف نسخة فى أسبوع واحد . فقد جاء فيهِ « ان الله هو الذى يشعر ويفكر ويسير فينا وهو الذى يحرك ذراعنا حتى فى الاشياء التى نفعلها على رغم أوامره ، وليس المرء هو الذى يرفع ساعد نفسه وانما الله هو الذى يرفعه وقتما يريد المرء ذلك ، فالانسان لا يقدر على الانفصال من الله الذى منحه إرادة جزئية ، ومتى نفعل الخير فالله هو الذى يفعله بنا ، ثم ان المرء مسؤول عن عمل الشر لا عن عمل الخير ، فالشر يقع فى العالم عندما يغفل الله عن صنعه ، وهذا أمر لا ريب فيه لأن الشر من عمل المجرمين . »

فهذه النصوص المتناقضة نعدها اليوم صبيانية ، ولكن لا يغيبن عن بالنا أن العالم قد تزعزع بمثلها مرات عديدة ، وأضاليل كلامية مثل هذه لا تخص الماضى وحده ، فنى الحال ما يعادلها ولربما ظهر نظيرها فى المستقبل إذ إن معتقدات الوقت الحاضر السياسية التى تقضُّنا هى كتلك من حيث البطلان وسوف تصفُّها الاجيال القادمة بجانب تلك .

وقد زعم المعتقدون فى كل جيل أن إيمانهم قام على العقل غير عالمين أن ما فيه من القوة ناشىء عن كون العقل غير مؤثر فيه،وكل ماللعقل من التأثير فى المعتقد الدينى هو كونه يجعل المؤمن يعتبر أقاصيص الكتب المقدسة التى تناقض العلم الحديث رموزاً.

ولا يقع انقسام المعتقد الى مذاهب متشاكسة فى الأديان ذات الارباب المتعددة ، فهذه الأديان وان كانت تتطور الا أن تطورها يقع بانضمام آلهة جديدة اليها اعتبرت قادرة جديرة بالتحية والتعظيم ، وذلك هو السبب فى كون الحروب الدينية التى خربت أوربا وضرجتها بالدماء لم تقع فى القرون القديمة الوثنية .

إذاً فانه كان أولى بالشعوب أن تبتدىء حياتها بالإشراك ، وإنى خلافاً للرأى

السائد أقول انها تنال خيراً عميماً لو بقيت مشركة ، فالتوحيد بدلاً من أن يكون سبباً للرقى قد أوجب وقوع حروب كثيرة خضبت الأرض بالدماء وعاقت الفنون والفلسفة والآداب التى أينعت فى العصر اليونانى الوثنى عن التقدم

ولا يُعترض علينا بالقول إن التوحيد مع ما يوجبه من حروب وإحراق بالنار والاخراج من الديار ومنفى من الأرض يؤدى الى وحدة المشاعر اكثر من غيره ، فعبادة الوطن قد كفت لمنح الرومان المشركين أيام عظمتهم وحدة فى المشاعر لا يعلو عليها شىء .

ولو جارينا كثيراً من المؤرخين والفلاسفة مثل (رينان) فاعتبرنا التوحيد أفضل من أية عبادة اخرى لكان الاسلام وهو دين التوحيد الوحيد على وجه التقريب افضل الأديان ، أقول على وجه التقريب لأن الأديان التي تدعو الى التوحيد لم تكن فى غير الكتب ، فلو نظرنا الى النصرانية مثلاً لرأينا أنها لم تلبث أن أضيف اليها طوائف من الملائكة والقديسين والجن هى بالحقيقة مثل الآلهة الثانوية القديمة فى تقديسها وخشيتها ، ثم ان تلك الأرباب المتعددة التى تسربت فى أديان التوحيد وانقسام هذه الأديان الى فرق ومذاهب تثبت لنا أن التوحيد مبدأ نظرى لايناسب احتياجاتنا العاطفية والدينية .

ولتطور المعتقدات الذى أشرنا اليه فى هذا الفصل شأن كبير فى التاريخ ، وأما فى الفلسفة فلا فائدة من التحديث به ، فالمعتقد غذاء لما يتطلبه احتياجنا الى الايمان ، وقد تبدل هذا الغذاء وسيتبدل وأما الاحتياج فسيبقى بقاء طبيعة البشر .

الفصل الخامس

كيف تموت المعتقدات

١ — دور المعتقدات الخطر وانحلالها .

عنوان هذا الفصل صحيح من الوجهة التاريخية اكثر منه من الوجهة الفلسفية ، لأن المعتقدات — وهى تشبه الحركة التى بحثت عنها كتب الحكمة الطبيعية — تتحول أحيانًا ولكن من غير أن تموت ، أى ان المعتقدات تغير اسمها ، وهـذا التغيير هو الذى نسميه موتًا .

فبعد ان تشيخ المعتقدات ترد مورد السنة العامة أى سنة الخمود والانطفاء ، وقبيل هذا الانطفاء وبتعبير أصح قبيل هـذا التحول يظهر دورها الخطر أى دور الانقلابات .

يثبت علماء الطبيعة أن الجرم عندما يدنو من دوره الخطِر تؤثر فيه تقلبات الجو الحقيقية فتحوله من غاز الى مائع ومن مائع الى غاز ، ويشاهد مثل هذا الدور الخطر فى كثير من الحوادث الاجتماعيـة مثال ذلك كون القطر الذى يستورد ذهبًا وبضعة أنواع من السلع لا يلبث أن يصبح بفعل بعض المؤثرات الطفيفة ذا صادرات ، وما يقع فى عالم الطبيعة والاقتصاد السياسى يحدث مثله فى عالم المعتقدات ، أعنى أنها متى تتقلقل ويعمل فيها البلى والدروس تدخل فى الغالب فى طور الخطر فتصبح مستعدة للتحول فجأة .

ويحدث هذا الطور الذى يتجاور فيه الشك واليقين عندما تتزعزع المعتقدات بفعل الزمان أو غيره وذلك قبل أن يتم تكوين المعتقدات التى ستحل مكانها ، وفى تلك الاثناء يرتبط أنصار المعتقدات بها ارتباط اليأس والقنوط خائفين كما قال بوسويه « من الغم الذى يصيب الناس وقتما يضيعون حب الله »

والواقع أن هذا الحب لا يزول من قلوبهم ، إذ ما من الهة يموت إلاَّ ويقوم مقامه اله جديد ، غير أن الانتقال من عبادة اله الى عبادة اله آخر لا يقع بسهولة ، يؤيد ذلك

ما حدث فى الازمنة التى انقرضت فيها الوثنية من الحادثات ذات الشأن العظيم .

واليوم نمر من جيل تتجاذب الشعوبَ فيه آلهتُها القديمة والآلهةُ التى لم يتم تكوينها بعد ، ولذا كان زماننا من أدوار المعتقدات الخطرة ، والروح الشعبية لبينما تعتنق ديناً كبيراً ثابتاً تتراوح الآن بين معتقدات هى على شيء من القوة مع كونها موقتة ، اذ تدافع عنها جموع ولجان وأحزاب كثيرة ،والدليل على تلك القوة ما لأندية الثورة الفرنسوية والجمعيات الماسونية من التأثير فى أبناء الطبقات الوسطى وما للنقابات من الشأن فى صنوف العمال وما للجان الانتخابات من النفوذ فى المدن

٢ — تحول المعتقدات الدينية الى معتقدات سياسية .

يظهر أن الجيل الحاضر قد غير مقاييس القيمة ، والحقيقة هى أنه بدل اسماءها على الخصوص ، ويشكو أنصار العبادات الشائخة ضعف ايمان الأجيال الحديثة ، مع أن الجموع لم تظهر احتياجها الى الإعتقاد كما تظهره اليوم ، فالايمان الدينى بتحوله الى ايمان سياسى لم يتبدل منه سوى شيء قليل ، وما القدرة التى نعزوها الآن الى الحكومة الا من نوع القدرة التى كنا نعزوها الى الآلهة .

إن المعتقد هو من عمل الايمان ، وتطبيق هذا العمل على موجود عال أو ألوهية يعبر عن احتياج الانسان الى الخضوع والعبادة ، فالمؤمن يميل بطبيعته الى تأليه الشيء بالعبادة ، ومن ذلك أن (مارا) الذى كان يجب أن تقذف جيفته فى بالوعة المرحاض لم يلبث أن أُلّهَ بعد قتله ووضعت أوراد لتقديسه ، وقد كان (نابليون) الهاً قاهراً لا يغلبه أحد فى نظر جنوده .

ولا يكون المعتقد شعبياً إلاّ إذا دلّ على موجودات أو أشياء تجب عبادتها ، تجلى هذا الأمر أيام الثورة الفرنسوية حين فكر رجالها عند ما نشبت فى إيجاد آلهة تحل مكان الآلهة السابقة فأقاموا فى كنيسة (نوتردام) عبادة للالاهة العقل تماثل العبادة التى سار عليها الناس منذ قرون عديدة .

ولا ندرك حقيقة تلك الثورة الا إذا اطلعنا على ما لتدين الشعب وزعمائه من الشأن الكبير فى سيرها ، فقد كان (روبسبير) الذى هو عنوان نفسية زمانه الدينية

الضيقة يعتقد أنه رسول أوحى اليه أن يثبت دعائم الفضيلة وأن يذبح أعداءها غير راحم ، وكان يذكر فى خطبه اسم رب السماوات ، وقد ما ثلت محاكم الثورة المذكورة محكمة التفتيش بحقدها على من ليسوا على دين أعضائها وبإبادتها لهم شر إبادة .

أطنبت فى بعض كتبى السابقة فى بيان تطور الاشتراكية على شكل دينى ، ولذلك لا أطيل البحث عن هـذا التطور هنا ، فالاشتراكية لو كان لها إله معين يعبده الناس لتم لها النصر بسرعة ، وقد إطلع رسلها على تلك الضرورة بغريزتهم ، ولـكن لما لم يجرؤوا على مطالبة الشعب بعبادة (كارل ماركس) اليهودى الذى هو حبرها النظرى ولوا وجوههم نحو إلاهة العقل ،وقد نقلت فى كتابى المسمى روح السياسة فقرة من جريدة (الاومانيته) الاشتراكية دلتنا على أن الاستاذ الشاب فى (الصوربون) قرأ فى حفلة افتتاح احدى المدارس الاشتراكية موعظة دينية مخاطباً فيها إلاهة العقل.

لم تستهو الآلهة المجردة قلب الجموع قط ،ولذلك تفتقر الاشتراكية ذات المبادىء والتعاليم الى رب تدعو الناس الى عبادته ، وليس عليها أن تنتظر كثيراً ليتمثل لها هذا الرب ، إذ الآلهة هى بنت الحاجة .

وما فى الاشتراكيـة من قوة يشتق على الخصوص من كونها وارثة لتعاليم المسيحية ، فقد استعارت مبادىء الاشتراكية من السلف النصرانى التعطش الى المساواة وحب الغير والحقد على الأغنياء ، ولذا أصبحت الكثلكة فى بلجيكا حليفة الاشتراكية ، فهى تستحسن فيها اعتصابات العمال علناً وتشجع على تنازع الطبقات .

وفى رسل الاشتراكية ما فى أنصار النصرانية السابقين من توقد الروح ، لا أشير بذلك الى الرسائل والمقالات التى ينشرها عوام الاشتراكيين فقط بل أشير أيضاً الى من نالوا من العلم قسطاً وافراً ، وقد أتيح لى أن أنقل فى كتابى الأخير نبذاً من هذا النوع دبجها يراع استاذ فى مدرسة فرنسا (كوليج دوفرانس) اعتنق الاشتراكية راغباً فى القضاء على الآلهة الباطلة . وبمطالعة تلك النبذ نستدل على أن العالم لا يدخل فى دائرة المعتقد من غـير أن يفقد اعتداله وصوابه ، ولا فائدة من لومه على ذلك ، فللمعتقد على المرء ، أيا كان ، سلطان قاهر تتعذر مقاومته ، والمعتقدات دائمة كانت أم موقتة هى أكثر العوامل تأثيراً فى حيـاة الشعوب ، والشعب لا يتم حكمه بمبادىء

حقيقية بل بمعتقدات يؤمن بأنها حقيقية . ولو ظهر (بيلاطس) فى هذه الأيام لما طرح السؤال الذى لم يجب عنه فيلسوف ولقال إن الحقيقة هى ما يعتقده المرء . فكل اعتقاد حقيقة . أجل ، إن الحقيقة المذكورة موقتة ولكن العالم قد سار حتى الآن بحقائق من نوعها .

الباب التاسع

مباحث تجريبية في تكوين المعتقدات وما ينشأ عنه من حوادث غير شعورية

الفصل الأول

تدخل المعتقدات في أمر المعرفة ، تكوين الاوهام العلمية

١ — لماذا تظل المعرفة مشوبة بالمعتقدات

لا يقدر عالم على الافتخار بأنه خرج من دائرة المعتقد خروجاً أبدياً ، فهو مكره في الحوادث التي لم تعرف تماماً على ايجاد نظريات وفرضيات أي معتقدات لا يسلم الناس بها الا لما له نفوذ وتأثير .

وقد نضطر أيضاً الى التسليم بالحوادث التي دُرست كثيراً كما نسلم بالمعتقدات عندما لا نستطيع أن نحققها جميعها ، ولو نظرنا الى تربيتنا المدرسية لرأينا أنها عبارة عن الايمان بمبادىء لم تدخل في نفوسنا الا بنفوذ الاستاذ ، وإذا دعمها الأستاذ أحياناً بالتجربة فذلك ليبين للطالب إمكان تحقيقها بالتجربة وليعلمه أن الاختبار والتجربة هما أساس الحقائق .

إن تحقيق معارفنا جميعها بالتجربة متعذر تعذراً يجعل نصيحة ديكارت في كتابه « قواعد الاصول » خيالية وهمية . فقد قال : «لا تسلم بصحة شيء مالم تعرف أنه كذلك وارفض كل شيء ترتاب فيه » ، ولو طبق (ديكارت) قواعده على العمل لما صرح بأقوال نسخر منها الآن ، فالمعتقد هو الذي ران على قلبه كما ران

على قلوب كثير من معاصريه وخلفائه ، حقاً إن اللا أدرية المتطرفة هى فى الواقع لا تشك الا قليلاً ، قال لوك « من يشك فى أمور حياته العادية التى لم تؤيدها الادلة والبراهين لا بد من هلاكه فى وقت قصير ، لأنه بذلك لايجرؤ على الاغتذاء بطعام ولا بشراب . »

وأضيف الى هـذا قائلاً ان المجتمع لا يعيش بتحليل آرائه ومعتقداته تحليلاً انتقاديًا ، وليس شأن المعتقد سوى كفاية المجتمع مؤونة مثل ذلك التحليل .

وبما أن العلماء يضطرون الى التسليم بكثير من القضايا العلمية كما يسلمون بالمعتقدات فاننا لا نعجب مما يبدو عليهم أحيانًا من السذاجة كما يبدو على الجهلة الأميين ، فالعالم قلما يكون أسنى من الجاهل فى الأمور التى ليست من دائرة اختصاصه ، وبهذه الملاحظات ندرك السبب فى كون أفاضل العلماء يؤمنون بأشد الأوهام خطلاً .

٢ — تكوين الاوهام العلمية .

يتعذر تكرير جميع التجارب ، ولذلك يبقى مبدأ نفوذ العالم وتأثيره مرشدنا الاساسى كما ذكرت آنفًا . فالناس يؤمنون بالعالم الذى اكتسب من مقامه العلمى نفوذاً كبيراً فيظنون أنه لا يأتى بمزاعم مختلة يتعرّض فيها للتكذيب .

حقًا إن العالم لا يخبر بشيء يراهُ غير صحيح ، غير أن الوهم قد يتطرق اليهِ بتأثير التلقين — حتى فى الأمور المضبوطة — فيظن الاضاليل التي أملته عليه مخيلته حقائق ، واكبر دليل على ذلك حكاية أشعة (N) التى كان اشهر علماء الطبيعـة يقيسون انحرافها مع أنه ثبت بعد ذلك أنهُ لا أساس لتلك الأشعة .

وقد اسهبت فى بيان هذه الموضوع لأننى باظهارى الخطأ فى مباحث علم الطبيعة — التى يتوخى العلماء الضبط والدقة فى درسها — أوضح السهولة التى تستحوذ بها الأوهام على النفوس إزاء حوادث لاتنالها يد التحقيق الا قليلاً ، وإنى أختار أمثلة تشاهد فى العلماء وحدهم لأثبت أنه بتأثير النفوذ والتلقين والعدوى يحدث في جميع الناس ومنهم اولو المدارك السامية معتقدات وآراء مختلة .

ومن تلك الأمثلة المؤثرة الضلال الذى وقع فيه أعضاء المجمع العلمى منذ أربعين

سنة وحمل (الفونس دوده) على هجو ذلك المجمع فى رواية سماها « الخالد » ، فقد نشر هذا المجمع مئات من الرسائل التى نسبها احد المزورين القصيرى الباع في الادب الى باسكال وغاليله وكاسينى وغيرهم ، وحازت القبول مع ما فيها من الأغلاط الكثيرة والسقطات الكبيرة نظراً لنفوذ المؤلفين المنسوبة اليهم ونفوذ المهندس العالم الذى عرضت بواسطته ،ولم يشك أعضاء المجمع حتى سكرتيره فى صحتها وظلوا على ذلك حتى اعترف لهم المزور بأنه هو الذى لفقها ، وحينئذ زال النفوذ وأعلنوا أن اسلوب الرسائل ركيك جداً بعد أن عدوه من افصح الأساليب وقالوا إنه خليق بأولئك المؤلفين .

قد يقال إنه يصعب على أولئك الاعضاء أن يحققوا أمراً ليسوا متخصصين به فحكموا حسبما لزميلهم من التأثير والنفوذ ، نجيب عن ذلك بأن نبين أن أعضاء المجمع العلمى المتخصصين قد انخدعوا فيه أيضاً ، ثم إن الاعتراض المذكور يزول عند البحث في حوادث جديدة أخرى ضل فيها رجال متخصصون دون غيرهم .

ومن اوهام النفوذ والعدوى ما فصله منذ خمس عشرة سنة الموسيو (بيكريل) — احد مشاهير علماء الطبيعة واستاذ الحكمة الطبيعية فى مدرسة (البوليتكنيك) — فى مجمع العلوم قال : — « لقد ثبت من تكرار التجارب الدقيقة أنه يصدر عن معدن الأورانيوم اشعة تستطيع أن تزيغ وتنحرف وتنعكس كأشعة الاجسام الفوسفورية» وعلى رغم ما أبداه احد علماء الطبيعة فى فرنسا — المعروف عند قراء هذا الكتاب — من الادلة المخالفة اصر ذلك العالم المشهور على رأيه مدة ثلاث سنوات وشاطره خطأه فى أثناء ذلك جميع علماء أوروبا ، وما اعترف العلماء بخطإهم الا بعد ان أثبت احد علماء اميركا — الذين لم يؤثر فيهم باطل العالم المذكور لبعد الشقة بين البلادين — أن تلك الأشعة لا تنحرف ولا تنعكس وأنها شيء غير الضياء ، فلو بحثنا عن أسباب ذلك الخطا الذي ران على العلماء ثلاث سنين لرأينا أنها نفسية بحتة .

وتاريخ اشعة (N) التى المعنا اليها آنفا بارزٌ ، يتجلى فيه شأن النفوذ والتلقين والعدوى النفسية ، وليست حكاية هذه الاشعة كحكاية الأمثلة السابقة التى سلم بها

الناس من دون تحقيق بل صرح كثير من علماء الطبيعة بأنهم حققوا أمرها بالتجربة .

ظن أحد أساتذة الحكمة الطبيعية المشهورين الموسيو (بلوندلو) أنه شاهد كثيراً من الاجسام تنشر أشعة خاصة نعتها بأشعة (N) يمكن قياس تموجها بضبط ودقة ، وبما أن العالم المذكور ذو نفوذ كبير سلّم اكثر علماء فرنسا بصحة زعمه غير مجادلين ، وقد كرروا التجربة ذاتها بأنفسهم فرأوا صحة ما تلقنوه ، ثم إن مجمع العلوم رأى أن يكافىء صاحب ذلك الاكتشاف الخطير فأوفد كثيراً من أعضائه — ومنهم العالم الطبيعي ماسكار — الى المكتشف كي يحققوا عنده صحة مباحثه ، فعادوا مشدوهين بما شاهدوه منهُ ومنحهُ المجمع جائزة قدرها خمسون الف فرنك .

وفى أثناء ذلك أتى علماء الأجانب الذين لا تأثير لعلماء فرنسا فيهم بتجارب مكررة فى الموضوع فلم يظفروا بشيء ، وعندئذ عزم عدد غير يسير منهم على شد الرحال الى المكتشف ليختبروا الأمر أمامه ، وسرعان ما علموا أن هذا الأخير ذهب ضحية أوهام تطرقت اليه من قياسهِ انحراف أشعة (N) بمنشور من زجاج ، وعلى أثر ذلك قامت « المجلة العلمية » ببحث ضاف فى المسئلة فظهر أن أشعة (N) هى نتيجة للتلقين والعدوى وأنه لا وجود لها .

تدلنا هذه القصة العجيبة على ما للنفوذ والتلقين والعدوى من السلطان الكبير ، وبها تتضح لنا كيفية تكوين المعتقدات وكثير من الحوادث التاريخية وجميع حادثات السحر فالناس يسحرون بالتلقين ، وإذا كان تأثير التلقين فى المسائل العلمية هو كما وصفنا فما أحرى به أن يكون عظيما فى إحداث أمور خارقة للعادة .

لم أبحث هنا الا عن أوهام علمية شهيرة ، ولو ذكرت ما تسرب فى مختلف المسائل العلمية من الاوهام التى مصدرها النفوذ لاستوعب ذلك سفراً كبيراً ، ولذا فأنى اقتصر على ايراد المثال الآتى :

إعتقد أحد طلاب الموسيو (ليمان) أنه اكتشف أن الجسم المكهرب وهو فى دور الحركة لا يجتذب الابرة المغناطيسية ، وقد كان أمر هذا الطالب مجهولاً ، ولكنه لما أتى بتجاربه فى حضرة الموسيو (ليمان) واستعان بنفوذه العلمى العظيم اتبعه جميع علماء الطبيعة الى أن اثبت أحد علماء الاجانب أن الطالب واستاذه كانا على ضلال.

وأكثر ما تكون الاوهام فى العلوم التى هى فى طور التكوين — كعلم الطب مثلاً — حيث يصعب تحقيقها ، فتعدادها عبارة عن تدوين لتاريخ الطب وإثبات لكون النظريات والأدوية تتغير فى كل خمس وعشرين سنة ، وإنى اختار المثال الآتى كدليل على ذلك :

كان الاطباء منذ خمسين سنة يعتبرون معالجة ذات الرئة بالفصد من أهم ما اكتشفه فن الطب ؛ وقد استندوا فى ذلك الى الاحصاءآت التى دلت على أن عدد الوفيات من المصابين بالداء المذكور — بعد معالجتهم بالفصد — هو ثلاثون فى المئة ، وقد استمر استعمال طريقة الفصد الى أن زار طبيب ماهر احد مستشفيات لندن فحقق فيه أن عدد الوفيات من المصابين بذات الرئة هو خمسة فى المئة بدلاً من أن يكون ثلاثين فى المئة وأن علة هذا النقص فى الوفيات هى أن الاطباء يعالجون المرضى هنا لك بعدم التعرض لهم بدواء .

وإنى لأرجو أن يكون القارىء قد اقتنع من الأمثلة السابقة بأنه يجب نعت اكثر آرائنا العلمية بالمعتقدات لا بالمعارف ، فالآراء المذكورة التى هى من فصيلة المعتقدات تتكون بفعل بعض المؤثرات كالنفوذ والتوكيد والتلقين والعدوى وغيرها من العوامل البعيدة من العقل والتى هى ذات سلطان اكبر من سلطانه .

الفصل الثانى

تكوين المعتقد فى الوقت الحاضر . السحر

---

١ — فائدة البحث التجريبي فى تكوين المعتقد

بينا منذ بدأنا بهذا الكتاب صعوبة ايضاح الكيفية التى تتكون وتنتشر بها المعتقدات الكبيرة التي سيرت البشر قروناً طويلة ولا تزال تسيره ، وقد حاولنا أن نحل هذه المسئلة نظرياً مستعينين بطرق مختلفة وسوف لا نألوا جهداً فى تطبيق المبادىء

التى شرحناها على معتقدات ظهرت أخيراً متخذين المذهب الروحانى الحديث — ذا المعجزات التى ضاهى بها الأديان السابقة — مثالاً لها ، وبعدما نرى أموراً باطلة غير محتملة سلم بصحتها عند حدوثها كثير من أفاضل العلماء يتضح لنا تجريبيًا أنهُ لا شأن للعقل والذكاء فى تكوين المعتقدات وأن عناصر العاطفة والتدين التى شرحناها عندما بحثنا عن أنواع المنطق المختلفة هى التى تؤثر فى ذلك التكوين

وسيكون استدلالى مستقلا عن قيمة معتقدات الروحانيين صارفًا همى على الخصوص الى المسائل التى قال بصحتها علماء كثيرون مع اعتراف أنصارها مؤخراً بأنها وهمية باطلة ، ومنهُ يتضح أن المختبر يؤمن — بعد أن يدخل فى دائرة المعتقد — بالمستحيلات ويكون أحيانًا مثل الهمج فى سذاجته وسرعة تصديقهِ

وسنستنبط من هذه البرهنة ومن المبادىء التى فصلناها فى هذا الكتاب أدلة حقيقية تتضح بها كيفية ظهور المعتقدات وانتشارها اتضاحًا تجريبيًا ، ولكى نصل الى ذلك نبدأ فى البحث عن المعتقدات السابقة التى اشتق منها المذهب الروحانى الحديث

٢ — السحر في القرون القديمة وفى القرون الوسطى

تعطش الانسان فى كل وقت الى كشف مصيره وإلى نيل معونة من قوى علوية يعتقد أنها محيطة به ، ومن هذا التعطش بدت أنواع السحر المختلفة ، ولقد تعاطت الشعوب جميعها فن السحر فى جميع أجيال التاريخ ، فزاول الناس فى القرون القديمة استدعاء الموتى والتنجيم والكهانة التى هى من فروع السحر مزاولة مستمرة .

والكهانة أى العرافة – التى استندت الى وسائل متعددة ولا سيما الى أجوبة من الآلهة يفسرها أناس هم كالوسطاء فى الوقت الحاضر – هى أكثر أنواع السحر القديم شيوعًا ، والسحر فى روما كان دينًا للدولة ذا كهنة عُهد اليهم فى تفسير الحوادث ، وقد تمتع هؤلاء الكهنة بنفوذ عظيم حتى إن قادة الجيوش كانوا لا يباشرون القتال قبل أن يستشيروهم وكثيراً ما نقضت قوانين ونظمٌ بعد أن أبدوا رأيهم فيها ، وما أُلغيت جمعية العرافين فى روما الا فى القرن الرابع بأمر من الامبراطور (تيودوز) أى أيام استفحل شأن الديانة المسيحية .

كان ايمان القدماء بالنبوءات المعزية الى الآلهة عامًا ، وقد كان لإله مدينة (دلف) شأن كبير من هذه الجهة فكان الناس يفدون الى تلك المدينة من جميع أقطار العالم ليستشيروا الإله المذكور ، ثم صمت هتاف تلك الآلهة وغاب سحر العالم الوثنى عن الوجود وقتما تم النصر للدين النصرانى ، ثم عاد السحر فى القرون الوسطى ، وما شأن السحر فى تلك القرون بالأمر المجهول ، فعلى رغم حرق السحرة بالألوف لم يستأصل الحرق شأفتهم . والزمان لا العقاب هو الذى قطع دابرهم

إن أعمال السحر التى أعمت القرون الوسطى هى أدعى الحوادث للعجب وهى أقل الامور إيضاحًا من قبل علم النفس فى الماضى ، ومع ذلك نرى أن للتلقين والعدوى النفسية شأنًا كبيراً فى حدوثها ، وذلك لأن الشهادات فى مختلف القضايا التى أقيمت فى كثير من البلدان متطابقة وأوجه الوصف للشيطان متماثلة وكيفية اجتماع السحرة به متشابهة .

ويظهر ان المنفعة الشخصية لم تؤثر فى أولئك المتهوسين ، إذ الشيطان لم يمن عليهم بغير ما هو زهيد تلقاء ما يعرضون له أنفسهم من أنواع العذاب ، وقلما كان القضاء يلجأ الى استنطاقهم بالدهق والعذراء [1] كى يعترفوا له بجناياتهم ، فالمتهمون كانوا يصفون بوجه باش كيفية اجتماعهم بالشيطان ، ومن هذا الوصف أن الشيطان كان يظهر لهم على شكل ضفدع أو هر أو كلب اسود أو تيس الخ وكان يطعم أنصاره طعامًا من الجيف ، وأنهم فضلاً عن رقصهم مع الشياطين ومجامعتهم لهم كانوا يجلدون الضفادع الضخمة ليرغموها على إراقة سائل لزج ضارب الى الخضرة ليصنعوا منه مراهم ومساحيق.

واستمر فن السحر قرونًا كثيرة ولم يشك القضاة فى أثناء ذلك فى صحة ما يُقص عليهم من وجود طقوس سحرية غير مدققين فى السبب الذى يدفع كثيراً من الناس الى بيع روحهم الى الشيطان تلقاء لذات دنيئة كأكل الجيف ليلا فى أرض بور ، وكيف يرتابون من ذلك والمتهمون كانوا يقرون بجناياتهم ؟ ولهذا الاقرار كانوا يحرقون السحرة من دون أن يبكتهم ضميرهم ، وقد حرقوا فى دوكية (لورين) وحدها أربعمئة ساحر فى عشرين سنة

---

(١) الدهق والعذراء من ضروب العذاب لحمل الانسان على الاقرار بامر — الناشر

وليس من الانصاف أن نعزو الى من ذهبوا ضحية السحر او ما شابهه من المعتقدات مزاجًا نفسيًا بعيداً كل البعد من مزاج رجال الوقت الحاضر ، لأن سذاجة هؤلاء عظيمة كسذاجة اولئك وإن بدلت شكلها ، فالسحرة فى القرون الوسطى وسحرة السياسة ذوو الوعود الخلابة الوهمية فى هذه الأيام ومستخدمو الأرواح وزاجرو الطير وضاربو الرمل والمنوّمون تنويمًا مغنطيسيًا جميعهم من فصيلة واحدة ، فليس ما هو مستحيل فى هذا العالم الخادع ولا فرق بين ما فيه من التهوس وبين الاحلام التى نراها أحيانًا فى المنام .

نعم ، أخذ البشر يتحرر قليلاً من ربقة تلك المنطقة المخيفة ، ولكن بما أن هذا الخلاص حديث غير تام فان قوة تأثير الوراثة ترغم البشر على العودة الى تلك المنطقة على الدوام ، واذا تفلت المرء بعد مجهود كبير من ميدان المعتقد فانه لا يلبث أن ينجذب اليه وقد جرب ذلك كثير من العلماء بأنفسهم . فلما تذرعوا بوسائلهم ومناهجهم الخاصة ظنوا أنهم قادرون على التخلص من المؤثرات التى يتهوس بها ذوو النفوس الضيقة ، غير أنهم سرعان ماخُدعوا مثل أبسط المعتقدين ولم تنفعهم وسائلهم العلمية الا بإلباس بعض الأوهام شكلاً غير حقيق .

٣ — السحر في الازمنة الحاضرة وحوادث تجسيم الارواح

يظهر أن الايمان بالسحر قد تلاشى أمام تقدم الافكار العلمية ، فلما جُرِّد السحرة من نفوذهم خسروا اعتبارهم الا فى بعض القرى . غير أن حب الاطلاع على الاسرار والاحتياج الى التدين وأمل الحياة بعد الموت هى مشاعر قوية لا تموت أبداً ، ولذا رجع السحر القديم باسم جديد من دون أن يطرأ على الأساس تغيير كبير ، فهو يُدعى اليوم تجسيم الأرواح واستدعاؤها . ويسمى العرافون وسطاء وتدعى الآلهة أرواحًا

احتقر العلماء هذا المعتقد الجديد زمنًا غير قصير ، ولكننا نرى أنفسنا منذ عشرين سنة إزاء حادث مفاجىء وهو أن اساتذة عبقريين أصبحوا يدافعون بحماسة عن جميع أنواع السحر ، على هذا الوجه نسمع أن بعض علماء تاريخ الانسان الطبيعى

المشهورين مثل (لومبروزو) يقولون مؤكدين أنهم استدعوا الأرواح وحادثوها ، ونرى بعض علماء الكيميا مثل (كروكس) يقولون إنهم عاشوا شهوراً طويلة مع أحد الأرواح ، ونسمع بعض أساتذة علم وظائف الأعضاء مثل (ريشه) يزعمون أنهم شاهدوا محارباً على رأسه خوذة يخرج من جسم فتاة ، ونرى بعض علماء الطبيعة مثل (دارسونفال) يدعون أن وسيطة قد تصرفت بثقل احد الأشياء حسبما أراد .

لا ريب فى أن هنالك علماء ليسوا أقل شهرة من أولئك ينكرون تلك المشاهدات التى يقولون إن التهوس مصدرها ويسخطون على رجوع الناس الى دور السحر والخرافات ، إلاَّ أن الجمهور المتعلم يبقى حائراً أمام هذه المتناقضات وهو يسأل : أمن المحتمل أن يتيه اولئك العلماء فى دياجير الضـــلال ، ولماذا يقول بعض العلماء بصحة أمور يزعمون أنهم شاهدوها مع أنه لم يشـــاهدها البعض الآخر على رغم تذرع هؤلاء بمثل ما تذرع به اولئك من الوسائل والاحوال ؟

لا يمكننا إدراك ذلك إلاَّ إذا تعمقنا فى البحث عن كيفية تكوين المعتقدات وعن شأن التلقين والعدوى فى الجماعات . ومما يجدر ذكره أن الوهم قد يشتد في بعض الاحوال حتى يختلط بالحقيقة .

ولكى اثبت سذاجة بعض العلماء المتناهية بعـــد أن يدخلوا فى ميدان المعتقد أذكر حادثة تجسيم الأرواح التى أمعنوا فى درسها ، فما هو تجسيم الأرواح ؟ قال الدكتور (ماكسويل) : « إن التجسيم هو عبارة عن قدرة الروح — سواء أكانت روح ميت أم روح حىّ — على إفراز سائل من أعضاء الوسيط لا يمكن وزنه قابل للتكاثف ، فهذا الجوهر الذى يتحول الى مادة كثيفة يكتسى أشكالاً مختلفة حسبما تريده الروح ، وفى الغالب تكون هذه الأشكال مماثلة لجسم تلك الروح . »

ويرى الروحانيون أنه يحيط بجميع الاعضاء غشاء من جوهر لطيف ، أى إن للانسان — عدا جسمه المادى — جسماً سماوياً يفترق أحياناً عنهُ بعد الموت ، فهذا الجسم السماوى يتجسم تجسماً ماديًا عند ما يستعير من أحد الأجسام الحية — كجسم الوسيط مثلاً — عناصر مادية ، ومن الطبيعى أن يكون ايضاح الروحانيين مبهما مختلفاً باختلاف مخيلة كل واحد منهم ، وإنما الذى نستنبطه من أقوالهم فى مجموعها

هو أنه قد يظهر بغتةً من الجسم الحى جسم آخر كالجسم الاول في اعضائه وهيئته فان (كاتى كينغ) الذى أخرجه الكيماوى (ويليام كروكس) كان له قلب ذو نبض معتدل وكانت رئتا الانسان ذى المغفر الذى أخرجه (ريشـــه) تفرزان حامض الفحم كبقية الناس ، ولو أن هذين العالمين الشهيرين وغيرهما من العلماء الذين سنتكلم عنهم لم يذهبوا ضحية الغش والتدليس لحق لهم أن يفتخروا بأنهم شاهدوا معجزات كالتى أخرج بها ربُّ سفر التكوين حواء من جسم آدم .

ومن دواعى الأسف أن تلك الأشباح كلما بُحث فيها بحثًا دقيقًا تبين أنها صادرة عن تدليس ، ولو لم تغر كثيراً من اولى النفوس السامية لالتزمنا الصمت عنها .

إن منشأ أوهام العالمين المذكورين وغيرهما من العلماء الذين قالوا مثل (لومبروزو) إنهم استدعوا الأموات وحادثوهم هو التلقين والتدليس ، ويمكننا أن نطلع على تأثير التدليس بما وقع حديثًا (لميلر) الشهير الذى أظهر أشباحًا كثيرة تكلمت مع الحضور ولامستهم ، غير أن (ميلر) الذى اعتمد على سذاجة الحضور المتناهية تراخى فى اتخـــاذ بعض التدابير الاحتياطية فافتضح أمر تدليســـه فى الحال واضطرت صحف استدعاء الأرواح التى نشطته فى البداءة الى الاعتراف بخطإها وضلالها .

وليس ما عرض ل (لاناروث) بأقل من ذلك ، فقد اشتهر أمر (أناروث) فى برلين حتى اكتشف بعض الشُرَط الماهرين حيلها فرافعوها الى القضاء فَحُكم عليها بالسجن ثمانية عشر شهراً ، وقد أطنب الدكتور (ماكسويل) فى بيان حكايتها وانى اقتطف منه العبارات الآتية وهى :

« كانت هذه الوسيطة تكوّن فى المجتمعات العامة الحافلة حسب طريقة تجسيم الأرواح أزهاراً فكانت هذه الأزهار تتساقط على أطرافها وبين يديها وتظهر فجأة على أكتاف الحاضرين ، وقد استمرت على هذا الأمر سنوات طويلة فأوجبت زيادة عدد القائلين باستدعاء الأرواح وتجسيمها كثيراً فحثى البلاط عاقبة الأمر ، وقد اتفق فى احدى الليالى أن ألقى بعض الشُرَط أنفسهم على تلك الوسيطة فى احد

المجتمعات فرأوا أن الأزهار التى زُعم أنها تتكون على الوجه المذكور ليست بالحقيقة سوى أزهار طبيعية مخبأة تحت ثوبها . »

والوسيطة (اوزابيا) التى دعاها « معهد العلوم النفسية فى باريس » كى يطبق طريقة تجسيم الأرواح فى اجتماعات كثيرة لم تجرؤ على فعل ذلك إلا قليلاً نظراً لشعورها بمراقبة الناس لها مراقبة شديدة ، غير أنه اتفق فى احدى المرات أن قدرت على تخليص يديها من أيدى المراقبين فخوطت رأس أحد الحضور بذراع قالت انها ذراع أحد الأشباح مع أن مصدر تلك الذراع الحقيقى لم يلبث أن عُلم .

وعند ما أقامت الوسيطة المذكورة فى مدينة (نابولى) وأحست أن يد المراقبة والاحتراز غير شديدة فيها ورأت أنها تشتغل بين أناس ذوى اتكال وتسليم أتت بالغرائب :

قامت هنالك باتمام الحوادث العجيبة التى سأقصها فى حضرة الاستاذ (بوتازى) الذى هو من أفضل علماء ايطاليا وفى حضرة كثير من علية القوم ، وقد اقتنع الاستاذ المشار اليه ومعاونوه بأنهُ من الممكن أن يخرج من جسم الوسيطة (اوزابيا) ذراع ويد غير منظورتين تستطيع بهما أن ترفع خواناً وزنه اثنان وعشرون كيلو وأن تنقل أشياء كثيرة من محلها ، وهكذا سلَّم (بوتازى) المتخصص بعلم وظائف الاعضاء بأن أعضاء لا تدركها الابصار قد تتكون بغتةً وتقوم بأفعال كالتى تقوم بها أعضاء الانسان العادية .

ثم قال (بوتازى) إنه رأى مع معاونيه — عدا الذراع واليد غير المنظورتين — رأساً منظوراً يخرج من جسم الوسيطة وأيدياً وأصابع منظورات ، وأن هذه الأيدى — منظورة كانت أم غير منظورة — لمست الحاضرين لمساً خفيفاً وأنها وضعت على الخوان طنبوراً وكثيراً من الأدوات غير البعيدة من الوسيطة وأن هذه أوقعت بيدها المنظورة على آلة الطرب البعيدة منها ستين سنتيمتراً ودورت بها زر مصباح كهربائى ، وقد ختم (بوتازى) كلامه بقوله إنه شاهد فى الاجتماع نفسه خروج وجهين بشريين شاحبى اللون من الوسيطة .

وروى الدكتور (فينزانو) والاستاذ (مورسيللى) وهما من علماء ايطاليا

المعروفين أن تلك الوسيطة أتت بأمور مماثلة لما ذكرنا ، ومنها « خروج امرأة تضم بين ذراعيها طفلاً ذا شعر قصير » وعند ما سئلت الوسيطة المذكورة عن تلك المرأة أجابت « أنها أم مدام افيليتو وأن الطفل حفيدها » ، ومما ذكره ذانك العالمان أن بهو الاجتماع كان آنئذٍ مُنَوَّراً بغاز كثيف ، وقد قصدا بذلك أن يبينا أن النور لا يمنع الأشباح من الظهور كما يزعم مستخدمو الأرواح ، وعندى أن الأشباح تظهر فى كل حال إذا كان الحضور مشبعين من ايمان شديد ، أقول ذلك وأنا أعتقد مع الوسطاء أن الظلام البهيم أنفع من النور فى نمو المعتقد وانتشاره .

لقد اختلفت نتائج التجارب التى قامت بها الوسيطة (اوزابيا) باختلاف البلدان والمشاهدين ، فكانت هذه النتائج فى ايطاليا خارقة للعادة ولم يأت السحرة الذين جاء ذكرهم فى الأساطير بمعجزات أعظم منها ، وقد تجلى نجاحها فى فرنسا بحسب البيئات ومزاج الحاضرين النفسى ، فكان باهراً فى مجالس العوام وضعيفاً فى محافل العلماء ، وأما فى انكلترا فلم تؤد تلك التجـارب الى نتيجة ، ذلك لأن اللجنة التى عينت لفحص الحوادث المذكورة حكمت بأنها قائمة على التدليس .

صرح الموسيو (دارسونفال) فى حديث تناقلته الصحف أنه يعتبر حوادث تجسيم الأرواح جميعها تدليساً وشعوذةً ، وبين معهد العلوم النفسية أن حوادث تجسيم الأرواح التى فحصها لم تكن خالية من شائبة الغش والحيلة ، وقـد توصل الموسيو (داستر) العضو فى المجمع العلمى واستاذ علم وظائف الأعضاء فى كلية(الصور بون) الى مثل هذه النتيجة ، إذ اختبرت معه فى بيتى الوسيطة التى جربها معهد العلوم النفسية ، فرأينا فى وسط النهار يداً تخرج من رأسها مرات عديدة ، ولكن لمـا راقبنا كتفيها بجهازى الذى اعددته لتتبع جميـع الحركات ثبت لدينا أن تلك اليد هى بالحقيقة يد الوسيطة الطبيعية ، وحينما تنبأت (أوزابيا) بأنها صارت محلاً للشبهة والإرتياب انقطع ظهور اليد المذكورة انقطاعاً تاماً .

إن نتائج هذا الفصل هى من الوضوح بحيث لا تحتاج الى تفصيل ، فالموقن يبقى موقناً والمرتاب يظل مرتاباً . ولا شأن للعقل فى ميدان الايمان .

٤ — ما هو السبب فى تكوين المعتقدات السحرية ؟

تبين مما تقدم شأن التلقين والعدوى النفسية فى الحوادث الخارقة للعادة القائمة على السحر وتأثيرهما فى أرباب النفوس العالية .

غير أن ذلك الشرح لا يكفى ، فلادراك سر المناهج الدينية التى سارت عليها الشعوب فى غضون القرون يجب أن لا نفسر بالعقل أموراً لم يملها العقل أبداً كما أنه يجب أن نعد أنواع السحر كلها مظهراً لروحنا الدينية التى لا تفارقنا والتى بينا قوتها وسلطانها .

وما مؤسسو الأديان والرقاة والسحرة والعرافون وجميع ناشرى الأوهام التى جذبت قلوب البشر أوهالتها فى كل زمن إلاَّ قساوسة إله مهيمن يلوح لنا أن عبادته ستظل أبدية ، فاذا نظرنا الى ما أقيم من المبانى المقدسة منذ ثمانية آلاف سنة فى مختلف الأقطار والأمصار وسعينا فى اكتناه القوى الخفية التى دفعت الناس الى تشييد المعابد والهياكل والكنائس والمساجد نرى أن سببها الأمل الذى هو إله الأمم الواحد وإن اختلفت الأسماء .

الفصل الثالث

طرق البحث التجريبى فى بعض المعتقدات وفى أنواع الحوادث التى زعموا أنها خارقة للعادة .

---

١ — نقص طرق الاختبار العادية .

إن الاوهام التى ذهب ضحيتها العلماء الذين درسوا حوادث استخدام الأرواح تثبت لنا أن طرق الاختبار المفيدة فى ميدان المعرفة لا تنفع فى ميدان المعتقد ، نقول إنها لا تنفع لأن العالم يرى نفسه حينئذٍ فى أحوال استثنائية يجب عليه فيها أن يبطل عمل التدليس المتوالى الذى لا صلة بينه وبين تجارب العلم العادية وأن يقاوم الأوهام التى لُقِّنَها .

فلكى نصل الى بعض النتائج يقتضى تحديد طريقة البحث فى الحوادث التى يجدر اتخاذها أصلاً لبعض المعتقدات ، وبما أن هذا الموضوع يخرج قليلاً من دائرة هذا الكتاب فانني اكتفى بايجاز السبب فى كون الطرق المزاولة حتى الآن لا قيمة لها مبينًا المواضيع التى تفيد فيها طريقة الاختبار العادى .

ونلاحظ قبل كل شىء أن المؤمنين بحوادث السحر يقولون انها لا تقع متى اردنا ، إذ ليس على الآلهة الموجبة لها أن تسير حسب أهوائنا ، فالمشترى يرسل الصواعق متى شاء وإله البحر يثير الموج ويسكّنه غير ملتفت الى دعاء الربابنة والملاحين .

غير أن استحالة التنبؤ باحدى الحادثات لا يمنع الانسان من فحصها فحصًا علميًا عند ظهورها ، ولذا نرى أن الصعوبة التى لاحظناها ليست على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة الى الصعوبات التى سوف نلمع اليها .

٢ — قيمة الشهادة والاختبار فى البحث فى المعتقدات .

الشهادة هى أصل البحث فى التاريخ ، والاختبار هو المرشد الهادى فى مسائل العلم ، وأما فى أمور السحر فلا قيمة للشهادة ولا ينتفع بالتجربة والاختبار الا فى أحوال مستثناة ، فما هو السبب فى رفض الشهادة حتى عند تواتر الروايات وتوافقها ؟

أجيب عن ذلك بأن تاريخ أغلب حوادث السحر يثبت لنا أن الوفًا من الشهود ذكروا أنهم شاهدوا وقوع أمور ظهر بعدئذٍ أن مصدرها تهوس الأفراد أو الجموع ، ومن تلك الحوادث اتفاق الشهادات — فى دعاوى قضائية عديدة أقيمت فى القرون السابقة — بأن كتائب السحرة اجتمعت بالجن بين الرياح ، فمع أن حوادث التاريخ قلما تجد دعائم مثل تلك تستند اليها لإثبات صحتها فإنه لا يجرؤ اليوم أحد على المناضلة عن حوادث السحر ، وليس الآن حظ المعجزات التى شاهدها مئات من الناس فى القرون الغابرة بأحسن من حظ تلك من حيث صحتها وثبوت وقوعها .

وعليه يجدر بنا أن لا نعتمد على الشهادات ولا على الاختبار الفردى فى درس الحوادث الخارقة ، فالتلقين هو المصدر الدائم لهذه الأمور ؛ ويؤثر التلقين

فى الشاهد على الخصوص بأن يجعله يتوهم أنه يحقق وقوع احدى الحادثات ، حينئذ يستحوذ الهوس عليه من كل جانب فيعتقد أنه يشاهد حقائق لا ريب فى صحتها ، فلنصغ الى ما يقصه علينا المؤمنون خوفاً من أن يستولى الغم والحزن عليهم ولكن لنجحد فى أنفسنا ما يحدثوننا به من قصص الخوارق للعادة .

تتجلى لنا صعوبة البحث فى الحوادث الخارقة عند ما نعلم أنه ليس من السهل أن نختبر أبسط الأمور اختباراً دقيقاً ، قال الاستاذ (بونيس) : « إن تحقيق الحادثة الواحدة غير هين فنحن نميل بطبيعتنا الى تشويه ما نشاهده من الأمور على رغم أنوفنا وجعله ملائماً لأفكارنا الشخصية وعاداتنا النفسية والطرز الذى ننظر به الى العالم . »

٣ — قيمة تجربة الفرد وتجربة الجماعة .

بعد أن نقضنا أمر الشهادة والاختبار لم يبق لدينا شيء آخر سوى التجربة فالتجربة سهلة فى المواضيع العادية ، وأما المواضيع التى ينظر اليها من خلال المعتقد فان التجربة فى الغالب تؤيد ما فيها من خطأ وضلال بدلاً من كشف حقيقتها ، نعم قد يستعين المرء بالتجربة ، ولكن ما الفائدة فى تطبيقها على أمور خفية غير منظورة ؟ فتذرع الرجل بآلة يحقق بهـا تنقل الشيء فى وقت يقلبه الوسيط من وراء حجاب لا يؤدى الى تدقيق نافع .

ولصعوبة التجربة فى مسائل السحر يجتمع العلماء بعضهم على بعض كى يتوصلوا الى نتيجة حاسمة فيها ، فهذا الاجتماع لا يجدى نفعاً ، لأن العلماء وهم مجتمعون يلقن احدهم الآخر فينقص ما فيهم من ملكة الانتقاد ، و بعد أن ينخفض مستواهم النفسى على هذا الوجه ينتهون الى نتائج غير صحيحة ، ولا أظن ان اكتشافاً كبيراً تَمَّ على يد جماعة حتى الآن ، فاذا اكتُشف شيء ينير السبيل فى أمر السحر فأن ذلك لا يكون الا من قبل عالم على انفراد .

ولم يؤد تحقيق أمور السحر فى انكلترا وفرنسا وايطاليا الى شيء جديد سوى تأييد ما ذكرناه من الملاحظات أى ان الوسيط الواحد فى هذه البلدان عُدَّ بحسب نفسية الحضور وقابليتهم للتأثر من التلقين إما مدلساً وإمَّا بالعكس ذا قدرة

كالتى عزاها الناس فى الماضى الى الشيطان ، واكثر تلك التحقيقات أهمية — سواء من جهة ما أنفق فى سبيلها من مال وزمان أو من جهة شخصية المجربين البارزة — هو التحقيق الذى قام به معهد العلوم النفسية فى باريس ، فعلى رغم الخمسة والعشرين الف فرنك التى بذلها والثلاثة والأربعين اجتماعًا التى عقدها فى هذا السبيل لم يتوصل المعهد المذكور الا الى نتائج ضئيلة ، ولم يتفق الحاضرون على حادث ظهر فى الاجتماعات المذكورة فينوروا المسئلة ولو قليلا .

٤ — ضرورة تحليل الحوادث والتدقيق فى كلّ عنصر من عناصرها على حدته — تطبق ذلك على حادثة الرفع

أن الفشل الذى أصاب تحقيق معهد العلوم النفسية يثبت لنا ضعف قيمة طرق البحث الحاضرة ، وعندى أنه يجمل بالباحث أن يحصر نظره فى تدقيق حادث واحد حتي يظفر بنتيجة بدلاً من أن يشعب ذهنه الى كثير من الحوادث دفعة واحدة، فلما لم يدرك احد فائدة هذا النهج رأيت أن اطبقه بنفسى على احدى الحادثات وهى منفردة اعنى حادثة رفع احد الأجسام من غير أن يامسه شىء ، وبعد أن عاينت الوسيطة (اوزابيا) مستعينًا بالاستاذ (داستر) بقى فينا بعض الشك فى أمرها مع أنه ليس فى حادثة الرفع ما يأباه العقل ، اذ قد يتصف الوسيط بقوة خاصة يقدر بها على جذب الأشياء كما يجذب المغناطيسُ الحديدَ ، غير أننا رأينا قبل أن نتباحث في شأن تلك القوة أنهُ يقتضى اثبات وجودها قبل كل شىء .

ولكى ادعم شكوكى فى امكان وقوع حوادث الرفع عزمت على مراجعة جميع الوسطاء الذين يزعمون أنهم قادرون على رفع الاشياء من غير لمس ، فخصصت مع البرنس (رولان بوناپارت) احد اعضاء مجمع العلوم والدكتور (داريه) مدير مجلة العلوم النفسية جائزة قدرها الفا فرنك تعطى للوسيط الذى يستطيع أن يرفع شيئًا دون أن يمسه ، وقد نشرت خبر هذه الجائزة مع مقالة فى جريدة (الماتن) التى هى من أهم الصحف ليطلع عليها الوسطاء فتناقلت اكبر جرائد العالم تلك المقالة .

أن التجربة التى اقترحتها ستكون دليلاً قاطعًا لاجدال فيه عند تحققها ، لأننى

اشترطت أن تقع نهاراً فى مختبر الاستاذ (داستر) فى كلية الصوربون وفى حضرة اثنين من المشعوذين وفوطوغرافى لأخذ تفاصيل التجربة بالصور المتحركة وأربعة من اعضاء المجمع العلمى ليكونوا شاهدين على الكيفية التى تقع بها التجربة فقط .

ولم يمكن الاعتراض على تلك الشروط بأن حوادث الرفع لا تقع الا فى الظلام بعد أن صرح اكثر السحرة فى الوقت الحاضر بأنهم لا يرون فرقاً فى ذلك بين الليل والنهار وبعد أن نَصَّ الموسيو (ماكسويل) فى كتابه على إمكان وقوع حوادث الرفع فى وسط النهار وبعد أن قال الموسيو (بواراك) مدير المجمع العلمى فى (ديجون) إنه جذب خواناً مرات عديدة فى النهار دون أن يمسهُ ، ولماذا لم يسع الموسيو (بواراك) فى نيل جائزة الفى الفرنك وفيه تلك القدرة ؟

اعلانى للجائزة المذكورة أدى الى اخذى بضع مئات من الرسائل ، الاّ أنه لم يحضر لكسبها سوى خمسة وسطاء ، وقد اخبرتهم بالشروط المذكورة آنفاً وعاهدتهم على اقامة الاجتماعات التى يطلبونها فوعدونى جميعهم بالحضور فى اليوم المعين ، ولكن لم يأتِ احدٌ منهم فى الأجل المضروب .

ومع أن الوسيطة (اوزابيا) عجزت عن إمالة كفة ميزان الرسائل بعد أن روقبت مراقبة جدية فإن مستخدمى الارواح لا يزالون يدعون مؤكدين بأن الوسطاء يقدرون على رفع ما وزنه مئتا كيلو من غير لمس ، قال الاستاذ (مورسيللى) : « لا شك فى صحة حادثة رفع الاخونة ، فالخوان قد يرتفع دون أن يُمسَّ ويبقى معلقاً مدة ثمانٍ وسبعين ثانية ، على هذا الوجه استطاع وسيط شاب شاعر أن يحرك خزانة وزنها ١٨٠ كيلو . »

وأنا لنأسف على كون الشاعر الشاب — الذى استطاع أن يزحزح ١٨٠ كيلو من غير أن يمسها — لم يسع فى نيل جائزة الفى الفرنك برفعه بضعة غرامات فقط .

واظنّنى اتيت بخدمة جليلة بأثباتى ندرة حوادث الرفع على فرض تسليمنا بامكان وقوعها ، وهو امر لم نعثر قط على ما يؤيده .

وقد اراد معهد العلوم النفسية أيضاً أن يحقق حوادث الرفع فعانى كثيراً من

المتاعب فى ذلك السبيل ، ومن دواعى الأسف أن ما أتى به من التجارب والصور المؤيدة لتلك الحوادث لا تقنع أحداً .

وما أسعد حظ علماء ايطاليا ، فقد رأوا أيدياً روحانية ترفع الوسيطة (اوزابيا) في الهواء ، وبعد أن نال (لومبروزو) شرف المحادثة مع شبح أمه أيقن بصحة ما وقع ، وهذا ما قاله في حديث نشرته جريدة (الماتن) : « نعد صعود (اوزابيا) — التى كانت جالسةً مربوطة اليدين والرجلين ربطاً وثيقاً — على الخوان رويداً رويداً من الأمور الخارقة للعادة وما رأينا فى اثناء صعودها سوى يدين روحانيتين آخذتين بابطيها لتساعداها على ذلك . »

غير أن الروح التى أعانت بيديها الروحانيتين (اوزابيا) على رفع نفسها أو على رفع اخونة ثقيلة بسهولة لم تعضداها عندما أخذ بعض المرتابين يفحصون الأمر فحصاً جدياً ، كانت هذه الوسيطة تميل فى معهد المعلوم النفسية كفة ميزان الرسائل دون أن تمسها فأخذ الحضور يعتقدون صحة ذلك ، وفى تلك الاثناء لاح لأحدهم أن مصدر الميل ناشىء عن شعرة تمسكها الوسيطة بين اصابعها فكسى الكفة وسائر الميزان بسواد الدخان ليظهر عليه كل أثر للشعرة عندما تمسه ، ومنذ تلك اللحظة لم تستطع (اوزابيا) أن تحرك كفة الميزان ولو مرة واحدة من غير أن تلمسها .

وقد جربت (اوزابيا) أن تغير وزنها أمام معهد العلوم النفسية ، وفعلاً دل الميزان على نقص فى الوزن غير قليل ، إلا أنه ثبت أنها أثرت بيديها فى عقرب الميزان .

ثبت مما تقدم أن حادثة الرفع التى هى ابسط ما يحدث عنه مستخدمو الأرواح ليست حقيقية ، وما اتينابه من البحث والتدقيق فى المذهب الروحانى لم يخل من فائدة ، فقد دلنا على انتشار دين جديد اعتنقه عدد غير يسير من أفاضل العلماء الذين لم يستطيعوا العيش من غير أن يتمسكوا باحد المعتقدات ، فالآلهة قد تزول أحياناً ولكن النفسية الدينية لا تموت أبداً .

* — من هو جدير بالبحث فى الأمور الروحانية ؟

الآن أصل الى مسألة ذات بال يجب الاسهاب فى بيانها ، وأعنى بها وصف الاشخاص الذين يستطيعون أن يحققوا الحوادث الروحانية .

فمن الخطأ الشائع بين الناس زعمهم ان العالم الاختصاصى قادر على اختبار أمور بعيدة من دائرة معرفته ولا سيما الأمور التى للوهم والتدليس شأن كبير فيها ، فالعلماء لما كانوا عائشين خالصى النية صادقى الطوية موطنين أنفسهم على تصديق ما يشاهدونه بمساعدة آلاتهم الفنية اصبحوا بالحقيقة اكثر الناس تعرضاً للحيلة والخداع ، أثبت ذلك بالمثال الآتى الغريب الذى نشرته مجلة « تقاويم العلوم النفسية » واليكه :

« دعا الموسيو (دافى) اليه عدداً غير قليل من كبار أهل النظر وفيهم عالم من أشهر علماء انكلترا هو المستر (والاس) وقدم لهم أشياء لمسوها بأيديهم وختموها كما شاؤوا ثم أجرى أمامهم جميع ظواهرهذا الفن من تجسيم الارواح والكتابة على السبُّورة وغيرهما ، وكتبوا له شهادات قالوا فيها إن المشاهدات التى وقعت أمامهم لا تنال الابقوة فوق قوة البشرفلما صارت الشهادات فى يده قال لهم إن مافعله شعوذة بسيطة جداً ، قال راوى الحادثة : والذى يوجب الدهش والاستغراب فى بحث الموسيو (دافى) ليس إبداعه ومهارته فى الحركات التى قام بها بل ضعف الشهادات التى كتبها اولئك الشهود الذين كانوا يجهلونها فقد ذكروا روايات كثيرة واقعية كلها خطأ ولو صح وصفهم الحوادث التى يروونها لتعذر تفسيرها بالشعوذة ، على أن الطريقة التى استنبطها الموسيو (دافى) بسيطة يدهش الإنسان لبساطتها من جرأته على استعمالها ، ولقد كان له من التأثير فى افكار جماعته ما جعلهم يرون ما لم يروا . »

ذلك شأن التلقين على الدوام ، فتأثيره فى ذوى النفوس السامية الذين يتذرعون مقدماً بالحذر والاحتراز يثبت ماله من السلطان الكبير .

إذاً لا يقدر العلماء أن يحققوا حوادث استخدام الأرواح تحقيقاً شافياً . فأولو النظر الذين يستطيعون ذلك هم الذين تمرنوا على خلق الأوهام وإيقاع الناس فيها أعنى المشعوذين وإنا لنحزن على كون معهد العلوم النفسية لم يدرك ذلك ، فلو

استعان هذا المعهد ببعض المشعوذين لما أنفق خمسة وعشرين الف فرنك فى سبيل تجارب لاطائل تحتها .

ومن الأمور المعلومة أن المؤمنين يرتابون بالمشعوذين ارتياباً شديداً خوفاً من تبديد ما ران على قلوبهم من الاوهام ، فلما اقترح الاستاذ (بينيه) على معهد العلوم النفسية إحضار مشعوذين ماهرين لكشف الغطاء عما استحوذ على النفوس من الاضاليل عدل المعهد المذكور عن دعوته لحضور الاجتماعات كما جاء فى رسالة أرسلها ذلك الاستاذ الىّ .

ولايسعنا الا أن نأسف على كون ذلك المعهد لم يرتح الى دعوة المشعوذين، والاّ فما هى العلة التى تبرر رفض المعهد المذكور للاستعانة بأولئك المشعوذين الذين هم وحدهم يقدرون على ابطال عمل الحيل ؟ وكيف لم يشعر أعضاء اللجنة بضرورة الاستفادة من خبرة أناس تعودوا إيهام الناس ؟ ، ولقد اثبت الانكليز أنهم على جانب كبير من الصواب ، إذ اختارت جمعية المباحث النفسية فى انكلترا مشعوذاً يسمى (مسكلاين) لاكتشاف حقيقة الوسيط الذى اختبره معهد العلوم النفسية فى باريس ، فاثبت هذا المشعوذ تدليس ذلك الوسيط .

حقاً إن طرق البحث فى الحوادث الخارقة تتطلب شروطاً خاصة كما بينت ، فلما جهل كبار أهل النظر هذه الشروط وقعوا فى ضلال مبين

الفصل الرابع

بحث فى بعض الحوادث اللاشعورية التى هى مصدر المعتقدات

---

١ — تأثير الايمان فى الاعضاء والشفاء .

سأذكر بين المباحث القائمة على التجربة تأثير بقايا أجساد القديسين والحجج والمياه ذات المعجزات الخ. والمؤمنون من كل دين يسلمون بان هذه الاشياء قادرة على الشفاء . يؤيد ذلك ما عُلِّقَ على جدران معابد الآلهة من الذخائر المنذورة منذ القرون الغابرة .

ومن المحقق أن حج ألوف من المؤمنين سواء الى (مكة) أو الى (لورد) أو الى ضفتى نهر (الغانج) لم يكن عبثًا فى كل وقت ، فعندما يحرك الايمان الشديد قوى اللاشعور الخفية تبدو هـذه القوى فى الغالب أنها اشد تأثيراً من الوسائل التى يتذرع بها علم الطب لمداواة الامراض ، ومما اعتقد أنه يفتح أفقًا واسعًا غير منتظر فى علم وظائف الأعضاء هو إيضاح درجة تأثير التلقين الناشىء عن الصلوات وبقايا اجساد الأولياء والتعاويذ والتمائم فى الأعضاء .

لا ريب فى أن هذا البحث المهم لا يكون جديًا قبل أن يمضى وقت كبير ، إذ لم يبحث حتى الآن عن الشفاء القائم على تأثير الخوارق غير أناس مرتابين متصلبين فى ارتيابهم أو مؤمنين أعمى الايمان بصائرهم ، فبما أن هاتين الصفتين متساويتان فى شل قوة الاختبار فى الإنسان ولا يلبث المرتاب فى تلك المواضيع أن يكون فى بعض الأحيان معتقداً من حيث لا يشعر لم يسهل الوصول الى حقائق واضحة فيها .

ولقد بقيت جميع تلك الامور — وهى مجحودة أو مسلم بها على غير دليل تجريبى — مُقْصَاة فى ميدان المعتقد غير جديرة بالاهتمام ، وما كان يلوح للأعين شىء اكثر استحالة من تحقيق وعود المبشرين القائلين بتأثير الميـاه والمساحيق العجيبة وبقايا القديسين وخواتم السحر الخ .

إلا أن المباحث العصرية فى التلقين دلتنا على أن تلك المزاعم ليست عبثًا ، إذ

أدت فى الغالب الى شفاء فى الجسم وزيادة فى قوته ومنحت القلوب شجاعة واحيت فى النفوس آمالاً . وهكذا ظهر لنا أن الحقائق العلمية ليس فيها ما فى الأضاليل من فائدة فى بعض الأوقات .

وهل فى الأعضاء من قوى مجهولة تعمل عملها بتأثير الخيال ؟ لم يستطع أحد حتى الآن أن يجيب عن هذا السؤال جواباً قاطعاً ، ومع ذلك يمكننا أن نأتى بالفرضية الآتية هى : إن الخيال لما كان صادراً عن أحوال عضوية فان استمراره قد ينعكس على تلك الاحوال فيؤثر فيها ، ولهـذا يكفى لنيل الشفاء احداث خيالات نفسية شديدة .

وقد عُلم ذلك الأمر منذ زمن بعيد ، فقد أشار الفيلسوف الايطالى (بومبانازى) فى رسالة نشرها سنة ١٥٢٥ الى أن عظاماً للحيوانات بيعت على أنهـا من أجساد القديسين المشهورين كانت تشفى الناس كعظام هؤلاء القديسين الحقيقية ، ثم إن الشفاء بفعل الايمان قـد استعان به الطبيب الشهير (شاركو) فى أيامنا الحاضرة مرات عديدة .

٢ — الأوهام الناشئة من تلقين الفرد وتلقين الجماعة .

للتلقين سلطان عظيم على النفوس ، فبه آمن مدة سنتين أفاضلُ علماء الطبيعة — الذين أشرنا اليهم آنفاً — بوجود أشعة خاصة لم تلبث أن اختفت بعد أن علموا أنها عبارة عن أوهام ، وهو الذى يجعل الناس يسلمون بصحة حوادث مستحيلة كتجسيم الأرواح بغتة ، على هذا الوجه اعتقد الكيماوى الشهير (كروكس) خروج شبح (كاتي كينغ) من الوسيطة مع أن هذا الشبح لم يكن غير الوسيطة نفسها ، وقد قبض أخيراً على هذه الوسيطة فى برلين عند ارتكابها جرم التدليس الذى كانت بمثله أوهمت العالم الانكليزى المشار اليه .

أفلا يوجد فى العالم أناس ذوو قدرة عظيمة على التلقين يستطيعون أن يؤثروا بها فى من يحيط بهم من الناس تأثيراً كبيراً ؟ يظهر أن بعض الحوادث تؤيد ذلك ، ومنها حوادث الرفع التى يأتى بهـا الوسطاء أمام الجمهور قائلين إنهم اقتبسوها من دراويش الهند .

والتلقين فى الأمور الروحانية تأثير عظيم الى الغاية ، وقد اعترف بذلك دعاة المذهب الروحانى من أنفسهم ، فقد قال (ماكدوبل) : « يلقن الحاضرون بعضهم بعضاً فلا يلبثون أن يكون عندهم هوس جامع ، ومما سمعته أن أحد الحضور أشار الى أنه يرى نوراً فى جهة معينة فالتفت الباقون ورأوا ما رآه ، ثم أعلن رجل أنه يشاهد صورة فشاهد الآخرون ما شاهده ، هذا هو هوس الجماعة ، وقد أيدت لى تجاربى الشخصية أن حاسة البصر هى أكثر الحواس استعداداً لقبول الانطباعات الوهمية . »

للتلقين فى بعض الاحيان تأثير خارق ، فقد بلغ فى إغوائه للسحرة فى القرون الوسطى مبلغاً جعلهم يرضون مطمئنين بحرقهم كتكفير عن خطيئاتهم الخيالية ، ويلوح لنا أن مزاج المختبرين النفسى فى الوقت الحاضر — ومنهم أفاضل العلماء — يقرب من مزاج اولئك السحرة من هذه الجهة ، لأننا على رغم ادعائهم بأنهُ لا سبيل للوهم فيهم الا فى أحوال شاذة نراهم عاجزين عن التفلت من حكمه ، فليس من الهين أن يتحرر الانسان من ربقة المعتقد ، وكلما حاول ذلك عاد اليها بفعل التلقين الذى يستولى على عقله وبصيرته .

وقد أوضح الأستاذ (غراسيه) هذا الأمر ايضاحاً جيداً حيث قال : « إن من الأمور الغريبة ما يطرأ على المختبرين من أحوال غير طبيعة عندما يحاولون درس ذلك ، فبعد أن أوضح (لومبروزو) فى مذكراته تجارب علمية دقيقة فى أمور الطب أخذ يشرح فيها صحة ظهور الأموات ومناجاتهم ورفع الاشياء من غير أن تمس كدور ان(هوم)حول نوافذ أحد القصور دوراناً أفقياً من دون أن يلمس شيئاً وكركض أخوى (روفو) الصغيرين خمساً واربعين كيلو متراً فى مدة لا تزيد على خمس عشرة دقيقة وكتقمص الأرواح لقسم من جوهر الوسيط تقمصاً موقتاً كى تبدو تامة الأعضاء ، وهكذا نرى أن خيرة العلماء ينسون قواعد العلم ومناهجه حينما يكونون إزاء حوادث السحر . »

ولكن هذا الاستعداد النفسى يختلف باختلاف الأفراد والشعوب ، فقد أتى الوسيط الواحد بنتائج مختلفة فى انكلترا وفرنسا وايطاليا أى إن هذه النتائج كانت كالعدم فى انكلترا ومتوسطة فى فرنسا وباهرة فى ايطاليا .

ويتجلى ما لتلقين بعض الوسطاء للحضور ومنهم العلماء من التأثير الكبير بمطالعة تقرير معهد العلوم النفسية فى باريس الباحث عن الوسيطة (اوزابيا) ، واليك المثال الآتي الذى ننقله منه : « رجت الوسيطة (اوزابيا) الموسيو (دارسونڤال) أن يرفع الخوان المستدير فرفعه بسهولة ثم منعته من الرفع فلم يقدر على زحزحته ثم وضعت يدها على الخوان فرفعه بدون صعوبة ، ثم قالت للخوان كن خفيفًا فرفعه على وجه أسهل من ذى قبل . »

تثبت هذه التجربة تأثير بعض الوسطاء فى الناس بواسطة التلقين ، ومع ذلك سألت مستغربًا عن تسليم ذلك العضو فى المجمع العلمى بأن أحد الناس قد يكون ذا قدرة خارقة يستطيع أن يغير بها وزن الأجسام تغييراً متفاوتًا الى الغاية من دون أن يخطر بباله أن يحقق الأمر بالميزان ، نعم حاول معهد العلوم النفسية أن يعيد تجاربه مرة أخرى ، إلا أنه أجراها فى أحوال اعترف بأنها لا تنشىء طمأنينة فى النفس ، فمثل تلك الحادثة يقتضى تكريرها ألف مرة لا مرة واحدة .

ويحتمل أن الوهم قد استحوذ على الموسيو (دارسونڤال) عند ما تصور بتأثير تلقين (اوزابيا) أنه حقق تغيير وزن الشىء الواحد كما استحوذ عليه وقتما توهم وجودَ أشعة (N) فالقى عنها محاضرة حماسية قال فيهـا بصحة جميع حوادثها المزعومة ، فالسهولة التى لُقّنَ بها جميع علماء الطبيعة الفرنسويين فيما يتعلق بتلك الأشعة هى من الأدلة البارزة التى يُستدل بها على عظم شأن التلقين فى تكوين المعتقدات .

٣ — تحول الارواح الفردية الى روح جامعة .

إن مبحث تكوين روح الجموع هو أحد مباحث علم النفس الغامضة التى يجب الإكتفاء إزاءها بالملاحظة والمشاهدة ، وما يمكننا أن نقوله فى ذلك هو أن الجموع ذات وحدة فى المشاعر لا فى الذكاء ، وما فى المشاعر من الاستعداد للانتقال بالعدوى يوضح لنا السبب فى كون الناس عند ما يجتمعون يكتسبون ما تتصف به الجماعة من صفات وأخلاق أى تتكون فى الاجتماع المذكور روح جامعـة على الفور فيظهر فيه زعيم ومسوسون .

وما هو كنه تلك العدوى ؟ أشعاع ذو طبيعة خاصة أم شيء آخر ؟ يستحيل علينا أن نجيب عن ذلك ، ويصعب علينا أيضًا أن نكتشف طريقة تجريبية تؤدى الى حل المسئلة المذكورة ، فتكوين روح الجماعات وتطورها وانحلالها عبارة عن ألغاز فى علم النفس ، وكل ما يقوله علم النفس هو أن روح الجموع ذات تأثير جوهرى فى حياة الأمم .

٤ — انحلال الذات .

تكلمت عن هذه الحادثة فى فصل سابق ، فعندى أن الذات هى ثمالة تنتقل بالإرث ملتحمة الأجزاء على قدر الإمكان ، إلا أن كثيراً من المؤثرات كالتنويم المغناطيسى وملازمة الوسطاء والحوادث الثورية الشديدة الخ تحلّ تلك الثمالة فتتألف من أجزائها ذات جديدة موقتة تختلف بأفكارها وأقوالها وأعمالها عن الذات الأصلية اختلافًا تامًا ، وقد طبقت هذه النظرية على بعض رجال الثورة الفرنسوية الذين لم يبد منهم قبل نشوبها ما يدل على ما سيقترفونه فيها من الآثام والذين لم يدركوا كنه المحرض لهم على ذلك بعد سكونها .

الفصل الخامس

كيف تستقر النفس فى دائرة المعتقد وهل من حد للسذاجة وسرعة التصديق ؟

---

١ — معرفة العلماء ومعتقدهم .

أود أن أزيد الأدلة التى جاءت فى هذا الكتاب إثباتًا وتأييداً ، ولذا أبحث بحثًا موجزاً عن الكيفية التى يترك بها أرباب الملكات العلمية دائرة المعرفة عند ما يدخلون دائرة المعتقد بفعل أنواع المنطق التى شرحناها فى الفصول السابقة .

لإدراك السبب فى كون كثير من أكابر العلماء الذين تعودوا تجارب العلم الوثيقة لا يلبثون أن يؤمنوا ببعض الخوارق كتجسيم الأرواح يجب أن لا ننسى أن المنطق العقلى والمنطق الدينى يبقيان فى النفس الواحدة مهما تكن ، فدوائر العقل والتدين والعاطفة مستقل بعضها عن بعض وتكون مصادر الايمان مختلفة بحسب الانتقال من احدى تلك الدوائر الى الأخرى .

إن الارتياب فى دائرة العقل هو القاعدة ولا دليل فيها غير التجربة والاختبار ، وأما فى دائرة المعتقد حيث يسيطر المنطق الدينى فلا حد للسذاجة وسرعة التصديق ، ولكن كيف يترك العالم المرتاب دائرة العقل ليدخل فى دائرة المعتقد ؟ يدل الواقع على أنه يدخل فيها غير مختار وإن كان لا يعدل عن تجاربه ، وبما أن الايمان يدخل فى قلبه على وجه غير شعورى من حيث لا يعلم فان تجاربه تتطور على شكل يتأيد به إيمانه الجديد وتسير على ما يلائم معتقده لا إرادته ، يؤيد ذلك تاريخ الأديان المفعم بخوارق العادات .

٢ — كيف يصبح العالم مؤمناً ؟

لنفرض أن عالماً كثير الشك والارتياب أراد أن يبحث فى حوادث السحر بحثاً تجريبياً ، فيجب عليه قبل كل شىء أن يلازم مكان السحرة حيث تتجلى تلك الحوادث أى أن يزج بنفسه بين أناس مجتمعين فى وسط مظلم ، وبعد أن ينتظر طويلاً يسمع ضوضاء وزُحولاً فى الأمتعة ويؤكد له مجانبوه أنهم يرون وميضاً وصوراً تقمصتها أرواح الخ ، ولما كان هذا العالم متصلباً فى ارتيابه فانه يخرج من دون أن يطرأ شىء على شكوكه .

ومع ذلك فان أموراً تقرع ذهنه بعد الاجتماع المذكور ، فيلوح له أنه سمع فيه ضوضاء غريباً وأن مجانبيه — وهم من أشرف الناس — رأوا ووميضاً وشاهدوا الأمتعة تنتقل من غير أن يمسها الوسيط ، فيرغب في الحضور مرة أخرى للبحث عن أسباب تلك الحوادث .

يعود الى الاجتماع فيكون هدفاً للتلقين والعدوى النفسية ثم تستحوذ عليه

الوساوس والشبهات ، فيرى أنه لا بد من أن يكون شيء خلف الحوادث المذكورة التي سلّم بصحتها عدد غير قليل من العلماء ، ثم يعود الى الاجتماع مرات عديدة فتستأنف تلك المؤثرات النفسية عملها فيه فيتدرج الى فقد ارتيابه حتى تغيب ملكة الانتقاد فيه فيدخل فى دائرة المعتقد راسخ الايمان .

ومع ان ذلك التدرج دليل على تقهقر منطقه العقلى لا يعترف بالواقع فيأتى بتجارب جديدة مستعينًا بآلاته وأدواته العلمية وينصب حبائل لاصطياد الأشباح ، ولكن لما كانت الأشباح أمراً لا تناله يد المراقبة فان تجارب العلم قلما تنجح فى شؤونها ، حينئذٍ يكتفى العالم بظواهر الأمور وتفوته عوامل التدليس مهما تكن ظاهرة ، وهكذا حتى يتم قهر منطقه العقلى فيعلن العالم ايمانه بالمعتقد الجديد على رؤوس الأشهاد ، على هذه الصورة تمت مباحث كثير من العلماء في الوقت الحاضر ، ومن هؤلاء العلماء الاستاذ الشهير (لومبروزو) الذى كان شديد الارتياب عند ما باشر تدقيقاته فاصبح شديد الإيمان فى نهاية الأمر كما يشهد بذلك كتابه الأخير .

تبين مما سبق كيف أن العلم لا يقدر على تحرير الانسان من أوهام المعتقد ، ولو طبقنا أحكامنا على انتشار الأديان التاريخية لاتضح الأمر أكثر من تطبيقها على أمور السحر ، فالأديان تذيع فى الغالب بين أناس بسطاء عاطلين من ملكة النقد عاجزين عن التعقل والتجربة والاختبار ، وفى هؤلاء الناس قد تؤثر عوامل الايمان ولا سيما النفوذ والعدوى النفسية أكثر مما تؤثر فى العلماء الذين يتذرعون بوسائل يمكنها أن تقيهم فعل هذه العوامل ، نقول قد تؤثر لأننا نعلم أن العالم والجاهل وإن اختلفا من الوجهة العقلية يتقاربان من الوجهة الدينية والعاطفية في أغلب الأوقات ، وقلما تكون معتقدات العالم الشهير الدينية والسياسية والاجتماعية أعلى من معتقدات أحقر الرعاة .

٣ — حدود السذاجة وسرعة التصديق .

يدلنا هذا الفصل والفصول السابقة على أنه لا حد للسذاجة وسرعة التصديق فى ميدان المعتقد وأنهُ لا فرق فيه بين العالم والجاهل ، فالعالم الذى يشك فى الكسور

العشرية قد يؤمن من غير صعوبة بخروج محارب على رأسه خوذة من جسم أحد الوسطاء وبمشيه فى احدى القيعان وبتعريضه نفسه للحضور كى يجسوا نبضه و يعتقدوا أنه ليس شبحًا فارغًا أو غازاً لا يمكن مسه .

ولا قرار لسرعة التصديق والسذاجة فقد جاء فى عدد من مجلة استخدام الارواح التى يديرها أحد اساتذة كلية الطب فى باريس ما يأتى : اولاً حكاية وسيط رفع ساعة كبيرة من غير أن يمسها ، ثانيًا صور بعض الارواح ، ثالثًا البحث عن جنّ يسكنون الغابات ، رابعًا قصة أربعة اشباح أنشدت نشيد (المرسيلياز) الخ .

إذاً لا يفضل العالمُ الجاهلَ من حيث سذاجته وسرعة تصديقه ، فالسذاجة المتناهية هى حال نفسية قد تهيمن علينا جميعًا عند ما نخرج من دائرة المعرفة لندخل فى دائرة المعتقد .

حقًا إن بضاعة العلم مزجاة ، فهو لا يوضح لنا سوى عدد يسير من الأسرار المحيطة بنا ، الا أنه يقول إن الحوادث تابعة لنواميس ثابتة غير متقلبة .

وما تخلص البشر من الهمجية النفسية الأولى إلا بعد أن ضرب بالخرافات والاساطير القديمة عرض الحائط وصار لا يخاف سلطان المشعوذين والخوارق والسحرة، ولم يكتشف مستخدمو الأرواح فى كل جيل حقيقة مجهولة مع أن طرق العلم ومناهجه تُخرج من العدم عالَمًا مؤلفًا من العجائب ، فلنترك زمر الاشباح والأرواح التى هى بنات الليل الى أرباب النفوس المريضة ولننظر الى النور الذى يتبدد أمامه جيش الظلام .

لا جدال فى هذه النتائج ، غير أنها لم تحل المشكلة من جميع وجوهها ، فجميع الناس فى كل زمن سُكبوا فى قالب المعتقد الذى هو ضرورى لحاجات النفس الأبدية ، ذلك لأن العلم يحرم على نفسه الخوض فى مصير الدنيا مع أن النفس ترى مثلها الأعلى وآمالها فى هذا المصير ، فالنفس تقرع على الدوام باب حصن الأسرار الحصين أملاً فى اكتشاف سبب الأشياء ومصيرها ، وبما أنها لم تقدر حتى الآن على فتح ذلك فانها ملأت الحصن المذكور بأوهام وأحلام .

فلا نقل ببطلان تلك الجهود ، لأن المعتقدات التى هى بنتها قد أورثت القلوب سلواناً وأنارت لها سُبل الحيـــاة ، وها هو العلم القليل التسامح فى الماضى أخذ يحترم المبادىء الخارجة عن منطقة نفوذه ، فالعلم والمعتقـــد اى العقل والمشاعر ينتسبان الى معقلين مستقلين لا يؤثر احدهما فى الآخر .

والعالم الذى سوف يعالج هذا الموضوع بعد الف سنة لا أدرى كيف يرى نفسه إزاء حوادث مشابهة لحوادث الوقت الحاضر أفيأتى ببيان صريح عن علة العلل ام لا ، وانما لا اشك فى انه سينص على آلهة ومعتقدات جديدة مهيمنة على البشر الذى لا غُنية له عنها .

الخلاصة

إن من أهم المسائل الأساسية التى أشرنا اليها فى اوائل هذا الكتاب هو البحث عن الكيفية التى يؤمن بهـا اولو العقول الراجحة فى كل جيل بمعتقدات لا يؤيّدها دليل ، ولو كان أمر المعتقد إراديا عقليًا كما جاء فى رسائل علم النفس سابقًا لما مست الحاجة الى طرق باب ذلك البحث ، غير أن تحليل العناصر التى يقوم عليها المعتقد وثبوت كونه غير شعورى قائمًا على مبادىء دينية عاطفية مستقلة عن العقل والإدارة قد فتح بابًا جديداً للدرس والتنقيب .

وإذا لم يكن العقـل منشأ المعتقد فأنه لقادر على المجادلة فى أمره واكتشاف ما فيه من خطإٍ وضلال ، ومع ذلك نسأل لماذا يهيمن المعتقـد على الناس على رغم مناقضـته لأكثر الأدلة وضوحًا والمعقولات جلاء ؟ وقد اجبنا عن هذا السؤال عنـد ما بحثنا عن تأثير بعض العوامل — أى النفوذ والتوكيد والتكرار والتلقين والعدوى — فى ميدان اللاشعور ، فهذه العوامل التى لا سلطان للعقل عليها تؤثر حتى فى العقل وتمنعه من الاعتراف بالبديهيات .

وقد اثبتنا قدرة هذه المؤثرات على تكوين المعتقدات ببياننا عملها فى أعرق الناس علمًا ، اذ رأينا كثيراً من علماء الطبيعة الماهرين يفحصون فحصًا تجريبيًا أشعةً تكونت فى مخيلتهم بفعل التلقين وشاهدنا علماء هم اعضاء المجمع العلمى يعرضون مبلغًا وافراً جائزة لمـكتشف تلك الأشعة التى لم تلبث أن ظهر بطلانها حينما تخلص بعض الخبراء من ربقة التلقين فصاروا لا يرون طيفهُ ، وقد اوردنا عليهِ كثيراً من الامثلة

والفرق الوحيد بين المعتقد العلمى الناشىء عن تلك المؤثرات والمعتقدات الدينية والسياسية والروحانية الصادرة عنها أيضًا هو أن الخطأ فى المسائل العلمية يزول سريعًا

يحاول المعرفة مكان المعتقد مع أن الاختبار والعقل والتجارب تبقى لا عمل لها إزاء المبادىء العاطفية والدينية .

ثم حققنا أنهُ لاحد للسذاجة وسرعة التصديق فى ميدان المعتقدات الروحانية وأنه لا فرق فى ذلك بين العالم والجاهل ، وأرجو أن اكون — بأثباتى كيف يؤمن اصحاب النفوس العالية بمعتقدات لا فرق بينها وبين اساطير الاولين — قدرت على ايضاح حال روحية لم تشرحها رسائل علم النفس حتى الآن .

وهكذا توصلت الى ناموس فلسفى مهم وهو أن مبادئنا تشتق من أنواع المنطق المختلفة لا من مصدر عقلى مشترك ، فمن تغلب احد هذه الانواع على الاخرى أو من تصادمها ظهرت اكبر حوادث التاريخ .

وربما يكتشف العلم حقائق الكون الثابتة المستترة خلف ظواهر الأمور يجب علينا أن نكتفى بالحقائق التى تستمرئها نفوسنا الآن . فكل ما نعرفه حتى الوقت الحاضر هو أننا مسيرون بثلاث حقائق « أعنى : الحقائق العاطفية والحقائق الدينية والحقائق العقلية » وأنه لا قياس مشترك بين هذه الحقائق الصادرة عن انواع المنطق المختلفة .

تم

فهرس

صفحة

مقدمة المترجم ٣

الباب الأول

المعتقد والمعرفة

الفصل الاول

دائرة المعتقد ودائرة المعرفة

١ — صعوبة تفسير المعتقد ٥
٢ — ماهو الفرق بين المعتقد والمعرفة ٧
٣ — شأن المعتقد وشأن المعرفة ٩

الفصل الثاني

طرق البحث فى علم النفس ١١

الباب الثانى

ميدان الآراء والمعتقدات النفسى

الفصل الاول

عوامل الحركة — اللذة والألم

١ — شأن اللذة والألم ١٦
٢ — صفات اللذة والالم المتقطعة ١٧
٣ — الرغبة نتيجة اللذة والألم ١٨
٤ — الامل هو اللذة المرجوّة ١٩
٥ — العادة هى ناظمة اللذة والالم ١٩
٦ — اعتبار اللذة والالم حقيقتين نفسيتين اساسيتين ٢٠

صفحة

الفصل الثانى

تقلبات الحس هى أساس حياة الفرد وحياة المجتمع

١ — حدود الشعور باللذة والألم ٢١
٢ — تقلبات الحس فى الفرد وشأنها فى الحياة الاجتماعية ٢٣
٣ — ما ينشأ عن تقلبات الحس فى المجموع من تبدل فى المثل الاعلى والمعتقد ٢٤

الفصل الثالث

دوائر الحركات الحيوية والنفسية

الحياة الشاعرة والحياة اللاشاعرة

١ — دوائر الحركات الحيوية والنفسية ٢٥
٢ — النفسية اللاشاعرة ومصادر الالهام ٢٦
٣ — اشكال اللاشعور . اللاشعور الذهني واللاشعور العاطفي ٢٨

الفصل الرابع

الذات العاطفة والذات العاقلة

١ — الذات العاطفة والذات العاقلة ٢٩
٢ — مظاهر الحياة العاطفة . الانفعالات والمشاعر والحرص ٣٣
٣ — ذاكرة المشاعر ٣٥
٤ — اشتراك المشاعر واشتراك الافكار ٣٦

صفحة

الفصل الخامس

عناصر الذات ، امتزاج المشاعر التى يتألف الخلق منها

١ — عناصر الخلق ٣٧
٢ — اخلاق الشعب الجامعة ٣٨
٣ — تطور عناصر الخلق ٣٩

الفصل السادس

انحلال الخلق وتقلبات الذات

١ — التوازن بين عناصر الخلق ٤٠
٢ — تقلبات الذات ٤١
٣ — عناصر الثبات في الذات ٤٢
٤ — صعوبة التنبؤ بما ينشأ عن الخلق من سير وحركة ٤٣

الباب الثالث

أنواع المنطق المسيرة لآرائنا ومعتقداتنا

الفصل الاول

تقسيم المنطق

١ — هل للمنطق أشكال متنوعة ؟ ٤٦
٢ — أنواع المنطق الخمسة ٤٦
٣ — اقتران أنواع المنطق ٤٨

الفصل الثانى

منطق الحياة

١ — شأن منطق الحياة ٤٩
٢ — الغرائز ومنطق الحياة ٥١

صفحة

الفصل الثالث

المنطق العاطفى ومنطق الجموع

١ — المنطق العاطفي ٥٥
٢ — مقايسة بين المنطق العاطفي والمنطق العقلى ٥٦
٣ — منطق الجموع ٥٨

الفصل الرابع

المنطق الدينى

١ — اوصاف المنطق الدينى ٥٩
٢ — خلق التدين أساس المعتقدات ٦١

الفصل الخامس

المنطق العقلى

١ — عناصر المنطق العقلى الاساسية ٦٢
٢ — شأن المنطق العقلى ٦٤
٣ — ظهور المنطق العقلى متأخراً بفعل الانسان ضد الطبيعة ٦٦

الباب الرابع

العراك بين أنواع المنطق

الفصل الاول

التصادم بين المبادىء العاطفية والمبادىء الدينية والمبادى العقلية

١ — العراك بين أنواع المنطق فى الحياة اليومية ٦٧
٢ — التصادم بين المبادىء العاطفية والمبادىء العقلية ، تأثير الافكار فى المشاعر ٦٨
٣ — تنازع المشاعر ، العوامل الزاجرة ٧١

صفحة

الفصل الثاني

العراك بين أنواع المنطق فى حياة الأمم

١ — نتائج كسر الزواجر الرادعة للمشاعر فى الحياة الاجتماعية ٧٢
٢ — المبادىء الدينية والمبادىء العاطفية فى حياة الامم ٧٤
٣ — التوازن وعدمه بين أنواع المنطق فى حياة الأمم ٧٥

الفصل الثالث

ميزان العلل

١ — الميزان النفسى ، السير والحركة ٧٧
٢ — شأن الارادة في ميزان العلل ٧٨
٣ — كيف يؤثر المنطق العقلى في ميزان العلل ٧٩

الباب الخامس

آراء الأفراد ومعتقداتهم

الفصل الاول

العلل الباطنية للآراء والمعتقدات

١ — تأثير علل الآراء والمعتقدات ٨١
٢ — الخلق ٨٢
٣ — المثل الأعلى ٨٣
٤ — الاحتياجات ٨٤
٥ — المنفعة ٨٥
٦ — الحرص ٨٦

الفصل الثانى

العوامل الخارجية للآراء والمعتقدات

١ — التلقين ٨٧

صفحة

٢ — الانطباعات الاولى ٨٩
٣ — الاحتياج الى التفسير ٩٠
٤ — الالفاظ والصيغ والصور ٩٠
٥ — الأوهام ٩١
٦ — الضرورة ٩٢

الفصل الثالث

لماذا تختلف الآراء ولماذا لا يقدر العقل على تقويمها

١ — اختلاف الامزجة النفسية يورث اختلاف الآراء ٩٣
٢ — عناصر تقويم الآراء ٩٤
٣ — شأن العقل فى تكوين الآراء والاحكام المهمة ٩٥
٤ — شأن العقل فى تكوين الآراء اليومية ٩٧

الفصل الرابع

تقويم الآراء بالتجربة

١ — التجربة فى حياة الامم ٩٩
٢ — صعوبة ادراك العوامل التى هى سبب التجربة ١٠٠

الباب السادس

آراء الجموع ومعتقداتها

الفصل الاول

تكوين الآراء بتأثير الجموع

١ — تأثير العرق فى المعتقدات ١٠٤
٢ — تأثير البيئة فى الزمر الاجتماعية ١٠٦
٣ — تأثير العادة ١٠٧

صفحة

الفصل الثاني

تأثير آراء الجموع ونتائجها

١ — صفات الآراء الشعبية ١٠٨
٢ — كيف يبقى شيء من الثبات فى الشعب على رغم تقلب آرائه ١٠٩
٣ — قوة الآراء الشعبية قبل الجيل الحديث ١١٠
٤ — زيادة تأثير الجموع الحاضرة فى تكوين الآراء ونتائج ذلك ١١١
٥ — تأثير الجموع فى ثبات بعض العناصر الاجتماعية ١١٤

الفصل الثالث

فناء روح الفرد فى روح الزمرة

١ — انحلال الجموع الكبيرة وتحولها الى زمر صغيرة في الوقت الحاضر ١١٤
٢ — كيف تخلصت روح الفرد من روح الزمرة وكيف تعود اليها ١١٦

الباب السابع

انتشار الآراء والمعتقدات

الفصل الاول

التوكيد والتكرار والمثال والنفوذ

١ — التوكيد والتكرار ١١٩
٢ — المثال ١٢٠
٣ — النفوذ ١٢١

الفصل الثاني

العدوى النفسية

١ — اشكال العدوى النفسية ١٢٤

صفحة

٢ — امثلة مختلفة على العدوى النفسية ١٢٥
٣ — سلطان العدوى النفسية ١٢٦
٤ — شأن العدوى فى انتشار المعتقدات الدينية والسياسية ١٢٧

الفصل الثالث

الطراز

١ — تأثير الطراز فى عناصر الحياة لاجتماعية ١٢٨
٢ — قواعد الطراز ، الطراز مزيج من عناصر عاطفية وعناصر عقلية ١٢٩

الفصل الرابع

الجرائد والكتب

١ — تأثير الجرائد والكتب ١٣١
٢ — الاقناع بطريقة الاعلان ١٣٢

الفصل الخامس

جريان الآراء وثورانها

١ — جريان الآراء ١٣٤
٢ — ثوران الآراء ١٣٦

الباب الثامن

حياة المعتقدات

الفصل الاول

صفات المعتقد الاساسية

١ — المعتقد احتياج نفسى مهيمن ١٤٠
٢ — عدم التسامح فى امر المعتقدات ١٤١
٣ — استقلال الرأى ، شأن عدم التسامح الاجتماعي ١٤٢
٤ — اشتداد المعتقد ، الشهداء ١٤٣

صفحة

الفصل الثاني

ماينشأ عن المعتقدات من اليقين وما يقنع به المؤمنون من الادلة

١ — ما ينشأ عن المعتقدات من اليقين ١٤٥
٢ — الادلة التى يقنع بها المؤمنون ١٤٦
٣ — التصادم بين العلم والمعتقد ١٤٧

الفصل الثالث

الشأن المنسوب الى العقل والارادة فى تكوين المعتقد

١ — استقلال العقل واستقلال المعتقد ١٤٩
٢ — عجز العقل عن التأثير فى المعتقد ١٥٠

الفصل الرابع

كيف تثبت المعتقدات وكيف تتطور

١ — كيف تثبت المعتقدات ١٥٣
٢ — كيف تتطور المعتقدات ١٥٤

الفصل الخامس

كيف تموت المعتقدات

١ — دور المعتقدات الخطير وانحلالها ١٥٨
٢ — تحول المعتقدات الدينية الى معتقدات سياسية ١٥٩

الباب التاسع

مباحث تجربية فى تكوين المعتقدات وما ينشأ عنه من حوادث غير شعورية

صفحة

الفصل الاول

تدخل المعتقدات فى أمر المعرفة ، تكوين الأوهام العلمية

١ — لماذا تظل المعرفة مشوبة بالمعتقدات ١٦٢
٢ — تكوين الاوهام العلمية ١٦٣

الفصل الثاني

تكوين المعتقد فى الوقت الحاضر ، السحر

١ — فائدة البحث التجريبي فى تكوين المعتقد ٦٦١
٢ — السحر فى القرون القديمة وفى القرون الوسطى ١٦٧
٣ — السحر فى الازمنة الحاضرة وحوادث تجسيم الارواح ١٦٩
٤ — ما هو السبب فى تكوين المعتقدات السحرية ؟ ١٧٤

الفصل الثالث

طرق البحث التجربى فى بعض المعتقدات وفى أنواع الحوادث التى زعموا أنها خارقة للعادة

١ — نقص طرق الاختبار العادية ١٧٤
٢ — قيمة الشهادة والاختبار فى البحث فى المعتقدات ١٧٥
٣ — قيمة تجربة الفرد وتجربة الجماعة ١٧٦
٤ — ضرورة تحليل الحوادث والتدقيق فى كل عنصر من عناصرها على حدته ، تطبيق ذلك على حادثة الرفع ١٨٧

صفحة

٥ — من هو جدير بالبحث فى الامور الروحانية ؟ ١٨٠

الفصل الرابع

بحث فى بعض الحوادث اللاشعورية التى هى مصدر المعتقدات

١ — تأثير الايحاء فى الاعضاء والشفاء ١٨٢
٢ — الاوهام الناشئة عن تلقين الفرد وتلقين الجماعة ١٨٣
٣ — تحول الارواح الفردية المدروج جامعة ١٨٥
٤ — انحلال الذات ١٨٦

صفحة

الفصل الخامس

كيف تستقر النفس فى دائرة المعتقد وهل من حد للسذاجة وسرعة التصديق ؟

١ — معرفة العلماء ومعتقدهم ١٨٦
٢ — كيف يصبح العالم مؤمناً ؟ ١٨٧
٣ — حدود السذاجة وسرعة التصديق ١٨٨

الخلاصة ١٩١

تصحيح الخطأ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢١	٥	ذلكما	ذينك
٧٩	١٩	الحقيقين	الحقيقيين
١٠٠	٢٤	على ابتياعها	لابتياعها
١١٢	٢٠	على زيادة	لزيادة
١٢٥	٤	تأثيراً	تأثير
١٣٨	١٩	امضاء	إمضاء
١٤٤	٢٤	والألم على	الألم وعلى
١٤٦	٢٣	المشاهل	المشاعل

للمطبعة العصرية

تأسست سنة ١٩١٩

داوها بشارع الخليج الناصري رقم ٦

بأول الفجالة — بمصر

جميع الكتب المذكورة في هذا الملحق من علمية وتاريخية واجتماعية هي من أجود الكتب العصرية ، ومؤلفوها أشهر كتاب الشرق ، ومطبوعة أتقن طبع على أحسن ورق ، ومزينة بالصور الجميلة ، ومغلفة بأجمل وأمتن غلاف

يُضاف الى ثمن الكتاب الذي يُطلب ٤ قروش أجرة بريد لبلاد القطر المصري و ١٠ قروش للخارج وهذا المبلغ يكفي لارسال ما زنته ٥ كيلو جرام . فيحسن بمن يرغب في طلب كتاب واحد أن ينتخب من هذه المجموعة النفيسة بعض كتب أخرى فترسلها كلها معاً ضمن طرد بريد واحد خالصة الاجرة

قيمة الكتب ترسل مقدماً مع الطلب ، أو يرسل نصفها و يحول على التكتب المرسلة بالباقي .

(القرش المصري يساوي ½ ٢ بنسات انكليزية أو ٥ سنتات أميريكانية)

العنوان البريدى — الياس انطون الياس ، صندوق البريد رقم ٩٥٤ — مصر
(Mr. Elias A. Elias, P.O. Box 954, Cairo, (Egypt.)

القاموس العصري

انكليزي وعربي

تأليف

الياس انطون الياس

(الطبعة الثانية منقحة وموضحة بالصور)

ان جميع المعاجم الانكليزية وعربية التي تقدمت « القاموس العصري » لم يضعها مؤلفوها لفائدة طلاب اللغة الانكليزية من الشرقيين ، بل وضعوها لطلاب اللغة العربية من المستشرقين ، ولذلك تجدهم يأتون بالكلمة الانكليزية فيذكروا أمامها من البيانات ما يفسر اوضاع الترجمة العربية المقابلة لها وكيفية هجائها في حالاتها المتنوعة ، وجمعها ومفردها ، الى غير ذلك مما لا فائدة منه مطلقاً للطالب الشرقي . وأول معجم وضع خصيصاً للشرقيين هو « القاموس العصري »

ويطول بنا الشرح اذا ذكرنا مميزات هذا المعجم . واننا ننصح لكل من لم يطلع عليه للان ، مكتفياً بما عنده من القواميس العتيقة ، أن يبادر الى أقرب مكتبة ويفحصه بنفسه فيرى حقيقة ما ذكرناه ويرى الفائدة التي يناها من اقتنائه

وقد قررته وزارة المعارف العمومية لاستعمال معلمي اللغة الانكليزية والترجمة في كل فصل من فصول مدارسها الثانوية في القطر المصري ، وذلك بخطاب تاريخه مايو سنة ١٩١٤ رقم ٧٧٧ ثمنه ٧٠ قرشاً

والطبعة الثانية تمتاز بما لا يقاس عن الطبعة الاولى

القاموس العصري

عربي وانكليزي

مُصَوَّر

تأليف

الياس انطون الياس

هو معجم لم يُنسج على منواله حتى الآن ، ويمتاز بأسلوبه البسيط (المسجل في المحاكم المختلطة تحت نمرة ١٦٢) الذي ابتكره المؤلف لأجل التوفيق بين الترتيب المصطلح عليه في القواميس العربية والترتيب الهجائي البسيط المتبع في كل القواميس الافرنجية ، ثم تحديد معنى الكلمة العربية أو تفسيرها بكلمة عربية مرادفة لها تمهيداً لذكر الترجمة الانجليزية . إذ بدون ذلك لا يتسنى للطالب أن يتحقق من صحة المقابل الانجليزي للمعنى الخاص الذي يطلبه

إطلع عليه فتعلم انه اكثر فائدة لك من أي قاموس آخر مادمت من المشتغلين باللغة الانكليزيه

عدد صفحاته ٧٠٠ من القطع الكبير ويحوي نحو ٥٢,٠٠٠ كلمة عربية وما يقابلها من الترجمة الانكليزية . وقد قررته وزارة المعارف العمومية لاستعمال معلمي اللغة الانكليزية والترجمة في جميع فصول مدارسها الثانوية في القطر المصري .

(ثمنه ١٠٠ قرش مصري والبريد)

قاموس الجيب

انكليزي وعربي

عدد صفحاته ٣٢٠ وكلماته ١٨٠٠٠

وثمنه ٢٠ قرشا

القاموس المدرسي

انجليزي وعربي و بالعكس (تأليف الياس انطون الياس)

وقد قررته وزارة المعارف — وثمنه ٥٠ قرشاً

الغربال

تأليف الاستاذ يوسف نعيم مشاقة الرياضة

العلمية البوليتكنيك بمصر. وهو كتاب مذهب حاك

الادب العصري والاساليب التي يجب ان يسير عليها

الكتاب والشعراء ليجاروا روح العصر الحديث

ثمنه

﴿١٠ قروش مصرية﴾

حصاد الهشيم

تأليف الكاتب الشهير الاستاذ

ابرهيم عبد القادر المازني

لا حاجة بنا الى ترغيب القارىء في اقتناء هذا السفر النفيس فمؤلفه اشهر من نار على علم . والكتاب يُعدّ درة في تاج المطبوعات العربية . مطبوع طبعاً نفيساً على ورق صقيل وعدد صفحاته ٤٣٠ ولتروبجه جعلنا ثمنه ١٠ قروش فقط

قاموس الجيب

انكليزي وعربي

عربي وانكليزي

اجابة لطلب وزارة المعارف العمومية قد طبعنا قاموسي الجيب الانكليزي عربي والعربي انكليزي في مجلد واحد وجعلنا ثمنه ٣٥ قرشاً — وقد قررته الوزارة لتلاميذ مدارسها الابتدائية ؟

الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية

يكفي للتنويه بفائدة هذا الكتاب أن نذكر انه طبع للمرة الخامسة في بحر عشر سنوات . وكل من بدأ دراسة اللغة الانكليزية بواسطته استفاد جداً من سهولة اسلوبه ، خصوصاً لأن طريقته الحديثة التي ابتكرناها (لالياس انطون الياس) للفظ الكلمات الانكليزية بأحرف عربية هي الطريقة التي لا يمكن ايجاد أسهل واصح منها

اشتر نسخة منه ، وجرب أن تتعلم اللغة الانكليزية من دون احتياج الى الاستعانة بمعلم . ثمنه ١٢ قرشاً والبريد

التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية

(لالياس انطون الياس)

أعيد طبع هذا الكتاب للمرة الرابعة في مدة وجيزة ، وهو مجموعة كبيرة جداً من المفردات والجمل والخطابات الاكثر استعمالا ، خصوصاً المفردات والجمل المختصة بالمعاملات التجارية والادارية والقضائية ، وبالاختصار كل ما يكثر استعماله في الاعمال العمومية ، لا يستغني عنه أي طالب للغة الانكليزية فسل من تقدمك في درس هذه اللغة عن هذا الكتاب يخبرك بعظيم فائدته

قاموس الجيب
عربي وانكليزي
عدد صفحاته ٥٤٠ وكلماته ٢٥٠٠٠
وثمنه ٢٥ قرشا

أناتول فرانس

في مباذله

تأليف جان جاك بروسو

مع خلاصة كتاب

« محادثات مع أناتول فرانس » لنيفول سيفور

وزبدة ما قالتهُ الجرائد الفرنسية في فرانس يوم وفاته

نقلهُ الى العربية وصدّرهُ بمقدمة وعلق عليه بعض حواش

كاتب الشرق الاكبر صاحب العطوفة

الامير شكيب ارسلان

من اعضاء المجمع العلمي العربي

وقد حليناه بما يزيد عن المائة والخمسين صورة وطبعناه على ورق جميل وجعلنا ثمن النسخة ٢٠ قرشاً، وطبعنا منه نسخاً قليلة على ورق ممتاز وثمنها ٢٥ قرشاً فقط

نظرية التطور وأصل الإنسان

تأليف الكاتب الكبير الاستاذ

سلامة موسى

ليس بين الالفاظ الآن ما هو اكثر ورودا على اقلام الكتاب والمؤلفين من لفظ « التطور » ولا يمكن قارئا يحترم نفسه أن يهمل فهم مدلول هـذه اللفظة وادراك النظرية التي تقول بها

والتطور ليس نظرية فحسب بل هو نزعة نزعت اليها العلوم والآداب والفلسفة . بل لا يمكن أن نجاري الثقافة الحاضرة ونساير العلماء فى أرائهم ما لم نفهم هذه النظرية ونقتنع بها

ليس في العالم العربي منذ أن مات الدكتور شبلى شميل من يدعو الى هذه النظرية بنشاط وهمة مثل الاستاذ سلامة موسى فهو يكتب عنها بأسلوب مغر ويأتي بأمثلة مألوفة تعين القارىء على فهمها وقد وضع كتاب « نظريه التطور وأصل الانسان » فى نحو ثلاثين فصلا يتضمن النصف الاول من الكتاب فصولا عن تطور الاحياء الى ظهور الانسان . والنصف الثاني يحتوى على ١٥ فصلا خاصة بتطور الانسان الجسمى والعقلى والاجتماعى . والكتاب موضح بنحو خمسين صورة فريدة تساعد القارىء على فهم الموضوع

خواطر حمار

وهي مذكرات فلسفية وأخلاقية

على لسانه حمار

اذا قرأت هذا الكتاب وأنت على رأى الناس فى قولهم جاهل كالحمار ، بليد كالحمار ، عنيد كالحمار ، انتهيت منه وأنت على رأي المؤلف تقول : زكي كالحمار ، وديع كالحمار ، عالم كالحمار

قدّم هذا الكتاب لابنك أو أخيك أو صديقك الصغير فيشكرك و يستفيد

وثمنه ٥ قروش مصرية والبريد

القصص العصرية

مجموعة ممتعة تشمل ٨٠ قصة أدبية غرامية مختلفة المغزى والاسلوب ومحلاة بكثير من الصور الرمزية ومترجمة بعبارة فصيحة قريبة المتناول لطيفة الاسلوب على طريقة أهل الغرب فى كتابة هذه القصص المستظرفة التي يتوخى بها الذهن بلذة السيرة المحكية وايصال الفائدة المقصودة الى العقل من طريق تلك اللذة بأسلوب انشائي خاص تجتمع فيه السهولة والسلاسة الحاذقة الوصف الى رشاقة المحادثة وظرفها ، الى حكمة سامية أو عظة كافة عن الشر داعية الى الخير ، كما قال نابغة الشعر والنثر خليل بك مطران في المقدمة التي كتبها لها

تقع هذه المجموعة في ما يقارب الخمس مئة صفحة ثمن النسخة ١٠ قروش

رواية

باردليان

تأليف الروائي الشهير ميشيل زيفاكو

وترجمة الكاتب البليغ الاستاذ طانيوس عبده

ليس الاستاذ طانيوس عبده في حاجة الى التنويه بذكره فهو أعظم من اشتهروا في عالم الترجمة بنقل الروايات الادبية الشيقة الى لغة العرب ، وامتاز على كثير من المعربين بأنه ينقل رواياته في عبارات سلسلة خلابة .

وهذه الرواية من أشهر الروايات التي ظهرت باللغة العربية الى الآن وهي تقع في ثلاثة أجزاء (بدلاً من ثمانية اجزاء في الطبعة الاولى) مجموع صفحاتها ٨٥٠ من القطع الكبير – ومطبوعة على ورق جيد جداً وحرف جميل وتجليد متين وثمن الثلاثة اجزاء ٢٠ قرشاً فقط والبريد (بدلا من ٤٠ قرش للطبعة الأولى) وتليها

رواية

الأميرة فوستا

(كاملة في جزئين كبيرين بدلاً من ثمانية اجزاء صغيرة)

وهي تابعة لرواية باردليان — وثمنها ٢٠ قرشاً والبريد

روح الاشتراكية

تأليف الدكتور غوستاف لوبون

ونقله الى العربية الاستاذ محمد عادل زعيتر

كتاب اجتماعي يبحث في مبادىء الاشتراكية ونفسية انصارها، وعن كونها معتقداً، وعن اختلافها باختلاف الشعوب ، وعما بين مقتضيات الاقتصاد من التباين ، وعن المبادىء الديموقراطية ، ورغائب الاشتراكيين ، وتطور المجتمعات في الوقت الحاضر ، ومصير الاشتراكية . ثمنه ٢٠ قرشاً والبريد

التربية الاجتماعية

تأليف الاستاذ علي فكري

أمين دار الكتب المصرية

ظهر هذا الكتاب حديثاً وقد جمع من الحقوق والواجبات والآداب الاجتماعية الشرقية ما يعرف به المرء ما له وما عليه ليعيش في راحة بال واسعد حال . وهو أول كتاب في موضوعه ، وحبا في تعميم فائدته جعلنا ثمنه ١٠ قروش مصرية والبريد